

تاريخ المغرب العربي

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

٥٥٨-٥٨٠ هـ / ١١٧٢-١١٨٤ م

الجزء السادس

دكتور

سعد زغلول عبد الحميد



الناشر / انتشارات بالاسكندرية

بجلال حزي وشركاه



الناشر : منشأة المعارف ، جلال حذى وشركاه

٤٤ شارع سعد زغلول - محطة الرمل - الاسكندرية - ت/ف ٤٨٥٣٠٥٥/٤٨٧٢٣٠٣

٣٢ شارع دكتور مصطفى مشرفة - سويز - الاسكندرية ت/٤٨٥٤٣٣٨/٤٨٤٣٦٦٢

الادارة: ٢٤ شارع ابراهيم سيد احمد - محرم بك - الاسكندرية ت/ف ٣٩٢٢١٦٤

EMAIL: monchaa@maktoob.com

حقوق التأليف: جميع حقوق النشر والتأليف والطبع محفوظة ، ولا يجوز اعادة طبع

واستخدام كل أو أى جزء من هذا الكتاب الا وفقا للأصول العلمية المتعارف عليها .

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق:

اسم الكتاب : تاريخ المغرب العربى جـ٦

اسم المؤلف : د. سعد زغلول عبد الحميد

رقم الايداع : ٢٠٠٣/١٩١٤٨٠

الترقيم الدولى: 1 237 - 03 - 977

التجهيزات الفنية:

طباعة : شركة الجلال للطباعة ت : ٤٤٩١٢٤٤

تاريخ المغرب العربي

الجزء السادس

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

٥٥٨-٥٨٠ هـ / ١١٧٢-١١٨٤ م

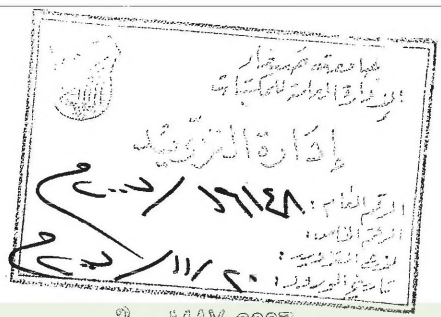
الدكتور

سعد زغلول عبد الحميد

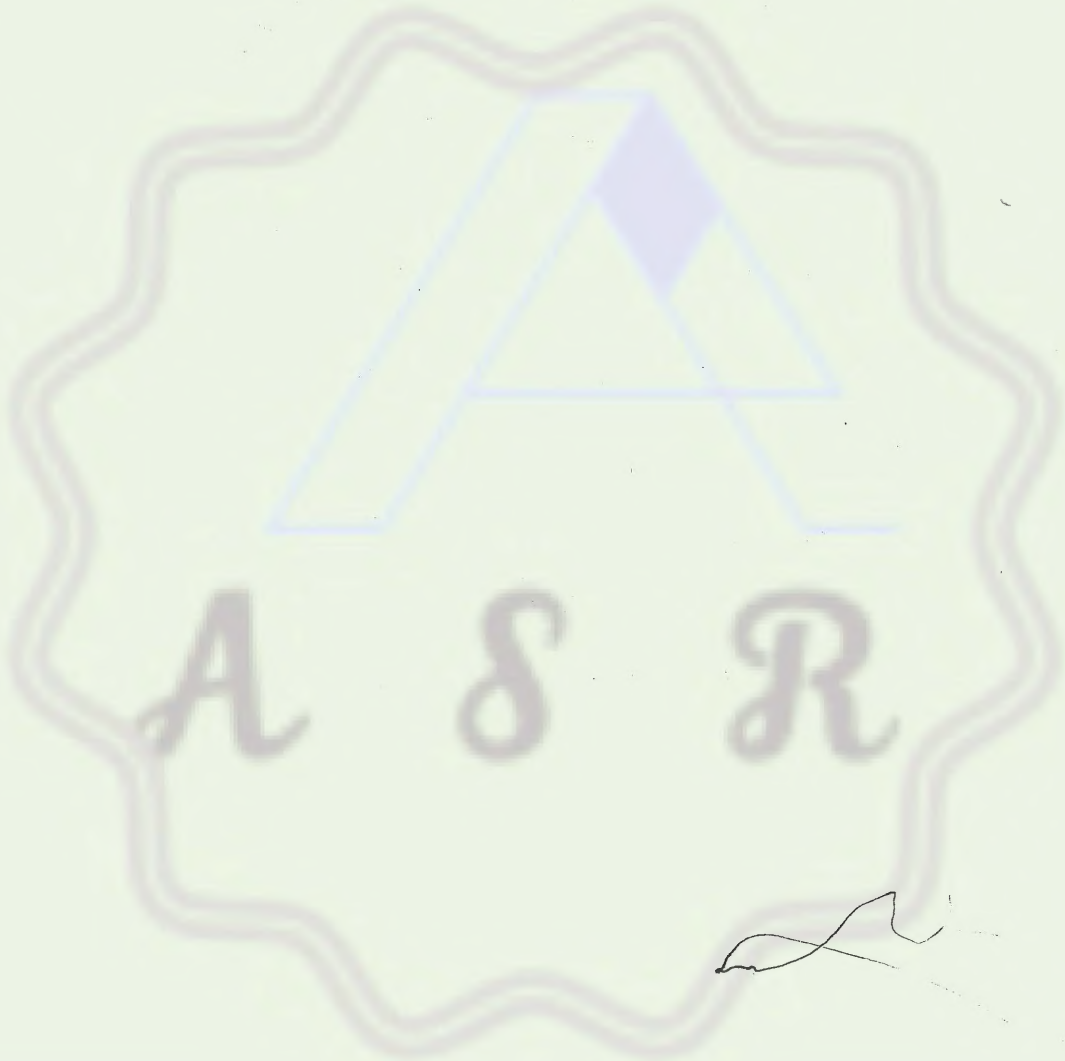
٢٠٠٤

الناشر / منشأة فا بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه





2 - MAY 2007



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَقَدْ جَاءَ فَخْرٌ قَتْلُهُمْ ﴾

عِبْرَةٌ لِأُولَئِىَّ الْأَلْبَابِ ﴿

صدق الله العظيم

الآية رقم ١١١ من سورة يوسف



التقديم

بسم الله : نعهد لختم كتابنا في « تاريخ المغرب العربي » بالجزء السادس، وموضوعه « أبو يعقوب بن عبد المؤمن » « أمير المؤمنين » « وخليفة الموحدين » والذي يعتبره بعض كتّاب الدولة الموحدية بمثابة « واسطة العقد » بالنسبة لأمرأء تلك الدولة، لايدانيه في هذا الوصف إلا عبد المؤمن (الوالد) قبله، ومن ثم أبو يوسف يعقوب المنصور (الابن) بعده.

وإذا كانت واسطة العقد قد انشلمت بوفاة يوسف في حملته هذه بالأندلس. فقد وقع علي عاتق ابنه أبي يوسف يعقوب تقويم الموقف، بالظفر والشار، مما يأتي في الجزء التالي - ان شاء الله.

الإسكندرية في يناير/ ٢٠٠٤

سعد زغلول عبد الحميد



الفهرس

A δ R



A S R

الفهرس

- ١٩ أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
٥٥٨-٥٨٠ هـ - ١١٧٢ - ١١٨٤ م
- ١٩ حول ولاية العهد واعتلاء العرش
- ١٩ ولاية العهد
- ٢١ إعتلاء العرش
- يوسف أميراً أو ملكاً لمدة ٥ (خمس) سنوات، قبل حمل اللقب
٢٤ الخلفى «أمير المؤمنين»
- ٢٩-٢٧ شخصية يوسف: أبو يعقوب- صفات أبى يعقوب يوسف
- ٣٣ أحوال الدولة الموحدة عند ولاية يوسف بن عبد المؤمن
- ٣٥ الخريطة السياسية العسكرية للأندلس عند ولاية يوسف
- ٣٧ ما بين الجهاد وحرابة الثوار فى العدوتين
- ثورة قبائل غمارة على الجانب المغربى من العدو تهديد أكيد
٣٩ للطريق إلى الأندلس
- ثورة صنهاجة مفتاح (الغمارية: الريفية) بقيادة مزيردغ
٣٩ (مرزدغ)
- ٤١ الموقف فى الأندلس: مدافعة حرابة ابن مردنيش
- ٤٨-٤٧ نتائج مؤتمر جبل الفتح - العبور إلى مراكش
- ٥١ موقعة لُكّ
- ٥٣ مسار الحملة وفتح أندوچر (Andujar)
- حرب ابن مردنيش: موقعة الجلاب: الإعداد للمعركة- فتح
٥٤ الفتوح: إنتصار فحص الجلاب

- استقبال السيد الأعلى أبى حفص فى مراكش: إستقبال كبار
الفاتحين ٥٨
- إضطراب العدو الغمارية مع نهاية ثورة ابن مردنيش: تبع ابن
منخفاد: ثائر جبل الكواكب ٦٠
- تقييم الثورة المنخفادية ٦٢
- منازلة حصن لبسة بمنطقة غرناطة ٦٦
- تهدين الأندلس الشرقية وجبال غمارة العدوية: أول تأكيد لإمارة
يوسف التجريبية ٦٧
- القضاء على الأعداء فى حصن لبسة ٦٨
- رقم (٢)
- فى تراتيب الإدارة ونظام الدواوين (ديوان الإنشاء) ٧٣
- ولاية الأقاليم ٧٣
- بجاية أشبيلية- (نهاية للحضرة)- أبى عبد الله بن أبى إبراهيم ٧٣-٨١
- (إسماعيل إيجيج صاحب المهدي)- حرب الطبول- جواز البحر
الى الأندلس من قصر مصمودة (القصر الكبير)- تولية السيد
أبو إبراهيم إسماعيل بن عبد المؤمن
إدارة الدعاية: استمرار نهج ابن تومرت فى تنظيم الديوان
- (البريد) وترتيب «العلامة» (الأميرية) ٨٢
- التمييز الجديد: تصنيف الناس على طبقاتهم ٨٥
- الأندلس موضع إهتمام الخلافة الموحدية على عهد يوسف بن عبد
المؤمن- النظر فى جزيرة الأندلس ٨٧-٨٨
- حصار حصن طبيرة (Tabira)- يوسف بن عبد المؤمن ملك
الملوك فى إيبيريا ٩٠-٩١
- أحد أمراء قشتالة لاجئ سياسى لدى الموحدين ٩٣

- ٩٥ ملك ليون يطلب الهدنة والحلف من الموحيدين
- ٩٦ سياسة الموحيدين في الأندلس ما بين الحرب والحلف
- ٩٨ ما بين حملة الأندلس واضطراب أهل الجبل
- ٩٩ حملة الأندلس ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م.
- ١٠١ سياسة الحلف مع الأسبان وإنقاذ بطليوس
- ١٠٣ مشاغبات جرانة في حصن جلمانية
- ١٠٤ أحوال الشرق الأندلسي ما بين ابن هُمُشك وابن مردنيش
- المسألة الأندلسية هي الشغل الشاغل لحكومة ابن أبي يعقوب
- ١٠٧ يوسف ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م
- الأندلس ما بين غضب الطبيعة وتهديدات قشتالة سنة ٥٦٥ هـ /
- ١٠٨ ١١٦٩ م
- حملة كونت قشتالة نونيه (Nuno) الوصي على العرش - غدر ١٠٩-١١١
- بطليوس من جديد على يد جرانة الغادر (جبرالدو سيمافور)
- أوقات صعبة تمر بها الحاضرة مراكش: الوباء والعائلة المالكة -
- ابن همشك في شرق الأندلس
- ١١٢ اللقاء مع ابن همشك والدفاع أولاً عن بطليوس
- ١١٣ غزو ابن مردنيش في عقر داره بالشرق
- ١١٥ حصار مرسية - توحيد محمد بن مردنيش
- ١١٧ جواز أبي يعقوب يوسف إلى الأندلس
- ١١٧ استدعاء عرب أفريقية للجهاد
- ١٢٠ استقبال حافل لمجاهدي أفريقية والمغرب الأوسط.
- ١٢٢ البروز لاستقبال العرب الوافدين من أفريقية
- ١٢٣ ولي العهد المخلوع

- ضيافة الغزاة: الخروج إلى بساتين البحيرة: ما بين الطعام والشراب ١٢٤
- تمييز العرب وعرض من وفد منهم- العرض العام: تمهيد لغزوة الأندلس العظمى ١٢٥ - ١٢٧
- خروج حملة الجهاد الأندلسية من مراكش: ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م ١٢٩
- المنازل : ١٣١
- الإقامة برباط الفتح- عين غبولة- جسر سلا- الكسوة- فداء الأسير ١٣٢ - ١٣٤
- عودة الروح إلى قرطبة: الجهاد في قلب قشتالة- حملة طليطلة أشبيلية نيابة لحضرة مراكش بالأندلس ١٣٥ - ١٣٧
- النقلة من قرطبة إلى أشبيلية- لماذا أشبيلية؟ ١٤٠
- عودة السيد الأعلى أبي حفص من غزو مرسية إلى أشبيلية ١٤٢
- بساتين البحيرة بأشبيلية ١٤٣
- مشروع المياه الجارية في البحيرة وفي أشبيلية: المدينة ١٤٤
- المسجد الجامع الكبير بأشبيلية ١٤٥
- إنتقال الخطبة من جامع عَدْبَس إلى الجامع الجديد الكبير بالقصبة ١٤٨
- إزدهار أشبيلية علامة استقرار بالأندلس- توحيد الشرق ونهاية بنى مردنيش ١٤٩
- بيعة أجناد الشرق الواصلين مع هلال بن مردنيش ١٥٢
- الطريق إلى وبدة ١٥٤
- معركة وبدة (Huete): ضرب الحصار على المدينة- التعبئة ١٥٦
- التقدم نحو الرَبَض- التخطيط للقتال ١٥٧
- التقدم نحو الأسوار- ما بين التقصير والعجز وإنشغال الأمير بالمناظرة ١٥٨ - ١٥٩

- الحصار بديلاً للإقتحام - الإضطرابات الجوية ما بين الرياح
العاصفة والسيول العارمة ١٦٢
- وصول المجاهدين من أهل الشرق ١٦٣
- الأحوال الجوية السيئة تضعف معنويات الموحدين ١٦٣
- الطريق إلى قونكة ١٦٦
- وصف قونكة - سكان قونكة المسلمون وقتئذ ١٦٦-١٦٧
- الخروج من قونكة « قيامة » أشبه بالخروج من وبدة - ما بين ١٦٨-١٧٠
- الجهل بالبلاد واضطراب الطبيعة
- إفتقاد الطريق ومعاناة الجوع ١٧١
- البرتغاليون يغدرون بمدينة الغرب: باجة ١٧٤
- الإقامة الجبرية لبنى مردنيش - العهد بولاية بلنسية إلى ابن ١٧٧-١٧٨
- مردنيش: العم - العودة إلى أشبيلية « بعد كمال بغيته فى
غزوته - الإستفادة من بنى مردنيش فى أشبيلية »
- سياسة إعمار جديدة - الإهتمام بإعمار الحاضرة أشبيلية - وفود ١٧٩
- إفريقية تهنى أمير المؤمنين يوسف على غزوة وبدة
- صاحب آبله (الأحذب - أبو البرذعة) يرد على غارات الموحدين ١٨٠
- إمداد بطليوس خطوة أولى للإنتلاق إلى أحواز طليطلة ١٨٤
- خضوع صاحبى قشتالة (طليطلة) والبرتغال (قمرية) - الهيمنة ١٨٥-١٨٧
- الموحدية على الأندلس: أشبيلية حاضرة للأمبراطورية الموحدية
لمدة ٥٥ (خمسة) سنوات (٥٦٦هـ / ٥٧١هـ -
١١٧٠م / ١١٧٥م)
- « الإسترجاع » الموحدى فى مقابل « الإسترداد » الفرنجى - دفع ١٨٧-١٩٣
- خطر الاسترداد بعيداً عن الحدود الإسلامية على وادى آنه
- خضوع ليون - إحياء مدينة باجة

- ١٩٤ العودة إلى باجة
- ١٩٦ الغدر من جديد بباجة
- ١٩٧ نهاية سعيدة لإقامة يوسف الطويلة في أشبيلية: التحالف العائلي بين بنى مردنيش وبنى عبد المؤمن يؤكد الوحدة بين المغرب والأندلس
- ١٩٩-٢٠٠ اضطراب الغز المصريين في طرابلس- العودة من أشبيلية إلى مراكش- كشف حساب السنوات الخمس من الكسب والخسارة في العدوتين
- ٢٠٢ الطريق إلى مراكش
- ٢٠٤ سنة (٥٧٢هـ / ١١٧٧م) غزو صنهاجة القبلة
- ٢٠٦ أحوال الأندلس بعد العودة إلى مراكش: الكونت نونيه يهاجم قونكة
- ٢٠٧ الحملة على طليطلة وطليطلة (شوال ٥٧٢هـ / أبريل ١١٧٧م)
- ٢٠٨ ثار البيسوج صاحب السبطاط حليف نونيه
- ٢٠٨ استدعاء السيدين والى قرطبة وأشبيلية إلى الحضرة للتشاور في أمور الأندلس الداخلية والخارجية
- ٢١٠ كَلَبَ العدو البرتغالي في الأندلس واشتداد الفتنة بها في البر والبحر
- المسألة الإفريقية تطفو على السطح من جديد- حركة يوسف إلى أفريقية وغزوة قفصة
- ٢١٣
- ٢١٥ استمالة العرب الراحية وعقد الصلح مع ملك صقلية
- ٢٢١-٢٢٢ مرحلة جديدة في ولاية أبي يعقوب يوسف- ردود فعل سلبية في الأندلس نتيجة الانشغال بتهديد إفريقية
- ٢٢٤ عودة الروح الجهادية بعد النجاح في تهديد إفريقية

- ٢٢٤ الثأر من البرتغاليين
- ٢٢٨ والحرب سجال مع البرتغال
- ٢٢٨ تدهور الموقف في الأندلس مع قدوم سنة ٥٧٨هـ / ٣-١١٨٢م
- ٢٢٨ محاولة اكتساح الأندلس من قبل البرتغال وقشتالة
- ٢٣١ رد فعل مناسب للتحدي القشتالي - إسترجاع شنتفيلة
- ٢٣٣ قلق في منطقة معدن النحاس الأبيض بمدينة داي قرب
السوس - الخليفة أبو يعقوب يوسف يقود حملة لقطع المنافقين
عن المعدن
- ٢٣٧ كفة الصراع في الأندلس تميل إلى صالح الموحدين
- ٢٤٠ أمجاد ابن وانودين وما قدموه من المفاخر لساداتهم الموحدين
- ٢٤٣ توسعة مراکش ٥٧٩هـ / ١١٨٣م: الأسباب ما بين الرجاء
والخوف
- ٢٤٥ الشروع في التوسعة
- ٢٤٨ القلاقل بين إفريقية والأندلس - القلق في إفريقية «إضطراب
بنى سليم»
- ٢٥١ عود على بدء: يوسف وتقويم الموقف من جديد في الأندلس
بالإقامة في نيابة أشبيلية
- ٢٥٢ تدبير شئون الأندلس الإدارية
- ٢٥٣ ترتيب الحملة إلى الأندلس
- ٢٥٤ الوصول إلى رباط الفتح
- ٢٥٦ كلب العدو البرتغالي
- ٢٥٧ الوصول إلى قصر المجاز (قصر مصمودة)
- ٢٦٢ التطهير الإداري والتصفية العسكرية - إشارة لبدء الحملة
الأندلسية في أحوال مستقرة.

فهرس الأقسام

- رقم ١: أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ١٩
- رقم ٢: فى تراتيب الإدارة ونظام الديوان (ديوان الإنشاء) ٧٣
- رقم ٣: الأندلس موضع إهتمام الخلافة الموحدية على عهد أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ٨٧
- رقم ٤: جواز أبى يعقوب يوسف إلى الأندلس ١١٧
- رقم ٥: خروج حملة الجهاد الأندلسية من مراكش ١٢٩
- ٥٦٦هـ / ١١٧١م
- رقم ٦: النقلة من قرطبة إلى أشبيلية لماذا أشبيلية ١٤٠
- رقم ٧: بيعة أجناد الشرق الواصلين مع هلال بن مردنيش ١٥٢
- رقم ٨: الجهاد بهدف الإسترجاع: الطريق إلى قونكة ١٦٦
- رقم ٩: الإقامة الجبرية لبنى مردنيش ١٧٧
- رقم ١٠: الطريق إلى مراكش ٢٠٢
- رقم ١١: مرحلة جديدة فى ولاية أبى يعقوب يوسف ٢٢١
- رقم ١٢: توسعة مراكش سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣م ٢٤٣
- الأسباب: ما بين الرجاء والخوف
- رقم ١٣: القلاقل ما بين أفريقية والأندلس ٢٤٨

الخرائط والأشكال

١٣.

١٩١

٢٢٥

١- بلاد مراكش (خريطة)

٢- خريطة ليون

٣ - خريطة البرتغال

A S R



A S R

الموحلون :عصر العظمة

بلوغ الذروة نذير الهبوط إلى المنحدر ما بين

فشل شنترين وانتصار الأرك وهزيمة العقاب

١١٨٤هـ / ١١٨٤م ٥٩١هـ / ١١٩٤م ٦٠٩هـ / ١٢١٢م

يوسف بن عبد المؤمن يعقوب المنصور محمد الناصر



A S R



أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨-٥٨٠هـ / ١١٧٢-١١٨٤م

حول ولاية العهد واعتلاء العرش: ولاية العهد :

ترك عبد المؤمن بن علي، خليفة ابن تومرت، ما بين ١٦ (ستة عشر) و ١٨ (ثمانية عشر) ولداً، حسبما تنص رواية كل من ابن صاحب الصلاة (في المن بالإمامة) وعبد الواحد المراكشي (في المعجب)، بينما لا تذكران له من البنات إلا اثنتين، هما: صفية وعائشة فقط. ومن المهم في تلك الرواية النص على علاقة الأخوة التامة (أخوة الأبوين) ما بين الأشقاء منهم، والتي يمكن أن يكون لها تأثيرها في خصوصية العلاقة بين الإخوة الأشقاء، كما هو الحال بالنسبة لأبي يعقوب يوسف، ولي العهد وشقيقه أبي حفص عمر الذي صار بمثابة الوزير أو الحاجب (المستول عن القصر) بالنسبة لأخيه الأمير^(١)، كمثل موسى وهارون.

والهم في مسألة ولاية عهد عبد المؤمن بن علي، خليفة المهدي، وتمام رسالته: الهادي إلى طريقته، إن الأمر لم يتوقف عند تنحية الإبن الأكبر: محمد، على أساس عدم الأهلية لمنصب رئاسة جماعة الموحدين، من حيث تجريحه بالخروج على الشرع باستباحة شرب الخمر حتى السكر، بل وتعدى ذلك إلى ترشيح الأخ الأصغر منه يوسف (أبو يعقوب) إلى الخلافة، مع الاكتفاء باستمرار شقيقه الأكبر منه عمر (أبو حفص) في منصب الجباية

(١) أنظر ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٢٢ هـ - حيث النص أيضاً على أن محمداً المخلوع، وأبو محمد عبد الله، وأبا سعيد عثمان، وأبا علي الحسن وأبا علي الحسين كانوا أشقاء، وقارن عبد الواحد المراكشي ص ٢٣٦ وما بعدها.

أو الوزارة التي كان يشغلها على أواخر أيام والده «الخليفة».

والأمر هنا يستأهل التفكير، فمسألة التغاضي عن حق الأسن من الأخوة (للترشيع للخلافة) مرتين دفعة واحدة، أولاها تتمثل في تنحية محمد (أبو عبد الله)، الإبن الأكبر لعبد المؤمن، الأمر الذي يشكك في أن يكون في المسألة مؤامرة حريم (بالقصر الأميري)، وثانيهما تتمثل في تقديم الأبن الأصغر على أخيه الأكبر سناً، وهو ما قد لا يبرره التفكير في مسألة مؤامرة الحريم، بل الأهلية الخاصة بكل من الأخوين الشقيقين عمر (الأكبر) الذي كانت له الوزارة أو الحجابة، ويوسف (الأصغر) الذي كانت له الحنكة الإدارية والثقافية في ولاية أشبيلية، والكفاية العسكرية والجدية في إدارة حرب الصوائف السنوية ضد الممالك الأسبانية المجاورة في الأندلس - مما سبقت الإشارة إليه.

وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن ولاية أشبيلية كانت قد أصبحت من مخصصات ولي العهد، منذ أيام الدولة المرابطية على عهد يوسف بن تاشفين الذي أعد ابنه عليه في الأندلس علمياً، ومن ثم ما كان من إعداد تاشفين بن عليّ هو الآخر، علمياً وعسكرياً بالأندلس^(١). فكان النظم السياسية والإدارية في دولة الموحدين كانت تركة عصر المرابطين، وبالتالي يمكن القول أن النظم في دول المغرب والأندلس كانت مستوحاة من نظم دولة الخلافة في المشرق - وهو الأمر المقبول، كما هو الحال بين الفرع والأصل^(٢). وهذه ملاحظة لا يستهان بها.

(١) أنظر ج ٥ ص ٣٤١، تماماً كما كان مغرب الدولة العباسية في عهد الرشيد من مخصصات ولي العهد الأول (الأمين) بينما كان المشرق من مخصصات ولي العهد الثاني (المأمون) (ج ١).

(٢) أنظر سوفاجيه وكلود كاين، مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، ترجمة، عبد الستار حلوجي، عبد الوهاب علوب، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨، رقم ٣١ (القاهرة)، ص ١٢ (مقدمة كلود كاين) وص ٢٤ (تمهيد سوفاجيه) - من مكتبة أحمد أبو زيد.

إعتلاء العرش :

إلى جانب مشكلة ولى العهد المخلوع: « أبو عبد الله محمد »، ابن عبد المؤمن الأكبر سناً، أتت وفاة عبد المؤمن فى تلك الظروف الإستثنائية، فى ثغر رباط الفتح فى منطقة سلا، لتضيف صعوبات أخرى. فبينما كان عبد المؤمن يعد (سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م) العدة للعبور إلى الأندلس للإشراف مباشرة على الصراع ضد حراة الأندلسيين، والجهاد ضد استرداد الأسبان المسحيين، بعد بناء كل من رابطة جبل الفتح (جبل طارق) على العدو الأندلسية، ورباط الفتح (العاصمة الحالية) على العدو المغربية، وقع فريسة للمرض الذى مات فيه (جمادى الثانى ٥٥٨هـ / مايو ١١٦٣م).

وهنا وقعت الجماعة الموحدية فى مأزق قريب من ذلك الذى وقعت فيه عند وفاة الإمام المعصوم، المهدي المعلوم: محمد بن تومرت الهرغى، فكان على الجماعة أن تتريث فى إعلان ذلك النبأ العظيم، وكان من الطبيعى أن تتفاوت آراء المسئولين، من: ولى العهد المنتظر أو أخيه الحاجب (أو الوزير)، ومن ثم بقية الجهاز الإدارى والحربى للدولة الموحدية، إبتداء من: أهل العشرة (صحابة الإمام)، ومن ثم: الطلبة والحفاظ، ثم رؤساء القبائل على مراتبهم، من: أهل الخمسين والسبعين ومن تلاهم من الشيوخ، حسب: السابقة فى التوحيد والإقدام فى الجهاد.

وبطبيعة الحال لم تكن فكرة الغيبة: غيبة الإمام، ومن ثم «الرجعة»، خافية على جماعة الموحدين، وهكذا اختلفت الآراء فى تسلسل الأحداث التى تربط ما بين خلع الأمير محمد (أبو عبد الله، وولاية الأمير يوسف (أبو يعقوب). فمسألة تجريح أبى عبد الله محمد، والتفكير الجدى فى عدم صلاحيته للولاية، بدأت عند زيارة عبد المؤمن لضريح المهدي ابن تومرت، تمهيداً للحركة نحو رباط الفتح، إعداداً للجهاد فى الأندلس.

والظاهر أن الأمر لم يتعد وقتئذ، لفت الأنظار. الى عدم أهلية ولى العهد «محمد المخلوع» دون خلعه حقيقة، مما سبقت الإشارة إليه، وهو

الأمر الذى تؤكدته رواية عبد الواحد المراكشى التى تنص على أنه: «لما مات عبد المؤمن اضطرب أمر محمد واختلف عليه إختلافاً كثيراً، وكانت ولايته إلى أن خلع ٤٥ (خمسة وأربعين) يوماً»^(١).

ولما كانت رواية ابن صاحب الصلاة صريحة فى أن خلع محمد (أبو عبد الله) كان قد تمّ فى الرباط (رباط الفتح) أثناء الفترة التى ساءت فيها صحة عبد المؤمن، وخيف من موته، قبل أن تحسم مسألة خلع محمد، الأمر الذى قد يؤدى إلى الفتنة^(٢)، ومع تمادى المرض أمر عبد المؤمن بإسقاط محمد من الخطبة، وذلك فى يوم الجمعة ٢ جمادى الثانى سنة ٥٥٨ هـ / ٩ مايه ١١٦٣ م. ويسترسل النص: «وفهم الناس أن الجرحه الموصوفة قد قضى بها، وأسقط بسببها من الخطبة»^(٣).

وبذلك يكون خلع محمد من ولاية العهد قد تمّ بطريق الإعلان من أعلى المنبر فى رباط الفتح قبل وفاة عبد المؤمن بأكثر من أسبوعين^(٤). وهنا يمكن أخذ مقالة عبد الواحد المراكشى: بأن خلع محمد كان بعد ٤٥ يوماً فقط من ولايته^(٥) على أنها تعنى صدور المرسوم (الرسالة الرسمية) بعد أن ذهبت دهشة كل من خلع ولى العهد (محمد) ووفاة «سراج الموحدين» (والده عبد المؤمن). وبذلك تصح كل من الروایتين الموجودتين: رواية «من ابن صاحب الصلاة»، رجل الدولة وكاتبها، و«معجب عبد الواحد» المقرب من رجال الدولة، والوثيق الصلة أيضاً بعدد من أمرائها السادات.^(٦)

(١) المعجب، ص ٢٣٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٢٢- حيث النص على أنه لم يزل الألم والوجع يشتد معه (عبد المؤمن)، وهو يذكر الله والنبي والمهدي والصديقين والشهداء والصالحين.

(٣) المن بالإمامة، ص ٢٢١.

(٤) ج ٥ ص ٥٤٦، وقارن ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٩٦ حيث وفاة عبد المؤمن فى ٢٠ جمادى الآخر.

(٥) المعجب ص ٢٣٦.

(٦) انظر ما يأتى فى الهامش ص ٢١ التالية.

وتنسب رواية عبد الواحد المراكشى تدبير خلع محمد إلى كل من الأخوين: يوسف (أبو يعقوب) وعمر (أبو حفص)، الأمر الذي سمح بتأرجح «الولاية» بينهما، ولو أن الأمر انتهى بأن نحى عمر -رغم أنه الأسن- نفسه عن الولاية، وتأخر مختاراً، وباع لأخيه أبي يعقوب...، حملة على ذلك «فرط عقله وإيثار دينه، وحب المصلحة للمسلمين»^(١).

(١) المعجب ص ٢٣٦- حيث يردف عبد الواحد مقالته هذه بالقول: «لأنه (أى عمر) كان يعلم من نفسه أشياء لا يصلح معها تدبير المملكة، وضبط أمور الرعية، فباع الناس أبا يعقوب، وإتفقت عليه الكلمة، فلم يختلف عليه أحد من إخوته ولا من غيرهم. وذلك كله بسعى أبى حفص عمر شقيقه: أخوه لأبيه وأمه، وشدة تلطف وجودة رأيه. هذا، كما ينص عبد الواحد على أن «أم أبى يعقوب يوسف، وأم أخيه عمر (أبى حفص) حرة أسمها زينب بنت موسى الضرير، من: شيوخ أهل تينمل وأعيانهم، من صنعة أنسا...».

يوسف أميراً أو ملكاً لمدة ٥ (خمس) سنوات قبل حمل اللقب الخلفي: «أمير المؤمنين»

والظاهر أن خلع الأخ الأكبر، وتنحى الأخ الأسن، كما ينص على ذلك عبد الواحد المراكشي في معجمه، إلى جانب توقف الأخوين: عبد الله (أبو محمد) وعثمان (أبو سعيد) عنبيعة يوسف، وعن البدار للحضرة مراكش.^(١) وكانت من الأسباب التي جعلت يوسف يقنع خلال السنتين الأوليين بحمل لقب «الأمير» دون «أمير المؤمنين»، بمعنى عدم حصوله على إجماع المسؤولين، من السادة الإخوة ومشايخ الحرس القديم من الموحيدين.

ولقد أتت إلى جانب ذلك الإضطرابات المحلية في كل من بلاد الريف بالعدوة المغربية، إلى جانب الحاربة في الأندلس وتهديد «الإسترداد» لتضع مزيداً من العراقيل أمام يوسف للحصول على الإجماع اللازم لحمله لقب «أمير المؤمنين»، لمدة ٣ (ثلاث) سنوات أخرى، لتكتمل «الخمسية».

والحقيقة أن يوسف كان يحمل فعلاً خلال الخمس سنوات هذه لقب الأمير فقط أو الملك. وهذا ما تؤكدته الرسالة الصادرة الديوان، وهي من إنشاء الكاتب عبد المالك بن عياش، والتي تبين دراسة أحداثها التاريخية أنها مؤرخة بشهر شعبان سنة ٥٦٠هـ / نهاية يونيه ١١٦٥م، وأنها صادرة بإسم الأمير يوسف بن أمير المؤمنين.^(٢) وهو ما تؤكدته الرسالة الموحدية التي ينقلها ابن صاحب الصلاة، والمؤرخة بأواخر سنة ٥٦٠هـ / أكتوبر ١١٦٥م، والخاصة بخبر الانتصار على ابن مردنيش - حيث الدعاء (١) ابن عذارى، الموحدون، ص ٥٨، مع النص: «واستبد السيد الأعلى أبو حفص بالأوامر السلطانية، كما كان مع أبيه».

(٢) انظر رسائل موحدية، برونفسال، الرباط ١٩٤١ (الرسالة رقم ٢٤، ص ١٣٨، والدراسة الديبلوماسية، باريز، ١٩٤٢، ص ٥٠.

«لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين» (عبد المؤمن)، ومن ثم لفرعه الأئمة ونجله الأزكى: «الأمير الأجل، الملك الأسعد: أبو يعقوب» (يوسف) المخصوص بغرائب الرغائب.^(١)

والذى نراه أن فترة السنتين الأوليين اللتين لم يكتمل ليوسف فيهما حمل اللقب الخلافي: «أمير المؤمنين» يمكن أن تعادلا فترة التهذنة أو التهدين اللازمة لاستقرار الأمور بالنسبة لولى العهد المؤمنى الأول، تماماً كما كانت فترة غيبة ابن تومرت، بين وفاته وإعلان «خلافة عبد المؤمن (للإمام المعصوم: المهدي المعلوم)، والتي يقدرها ابن خلدون هي الأخرى بسنتين. فكان أخبار ابن تومرت كانت مازال تشير الحنين فى قلوب الموحدين، وخاصة السابقين الأولين منهم، حتى العقد الرابع من وفاة ابن تومرت.

وهكذا فكان الغيبة قد أصبحت واحدة من أسس نظم الحكم عند الموحدين، وهذا ما سوف يظهر بشكل أوضح فى نهاية حكم الثالث من خلفاء المؤمنين: يعقوب المنصور الذى إختلفت الآراء فى وفاته أو فى غيبته.^(٢)

والمهم أن الظروف السياسية والعسكرية كانت قد تحسنت فى الدولة الموحدية، فى نهاية السنوات الخمس التى حمل فيها أبو يعقوب يوسف لقب الأمير فقط، وكانت بشارة انفراج الأزمة هو عودة علاقات المحبة الأخوية بين الشقيقين: يوسف وعمر، إعتباراً من سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م (مما يأتى)، ومن ثم الإنتصارات الكبيرة التى حققها الشيخ أبو عبد الله بن أبى إبراهيم، والى غرناطة الذى استمر فى ولايته هذه حتى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م (مما يأتى)، والتى كانت من العوامل المشجعة، من غيبته.

(١) المن بالإمامة، ص ٢٧٦

(٢) انظر للمؤلف، العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٥٣ (المستخرج، ص ١٥-١٧.



شك بترفيع يوسف ومبايعته بإمرة المؤمنين فى سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م^(١) والتي أقيمت فيها الاحتفالات العظيمة بالمناسبة السعيدة، كما كانت فرصة لتأكيد إمارة المؤمنين بشعاراتها المميزة، من إتخاذ العلامة الخلافية لترتيب الرسائل الرسمية (مما يأتى)، وتزيين المجلس الخلافى بالرمح ذى السنانين الأثنين (مما يأتى)، والذي يذكر بذى الفقار: سيف الإمام على، والذي يذكر أيضا بالإمام المعصوم، المهدي المعلوم: محمد (بن عبد الله: ابن تومرت) - أول من اتخذ الحمدة علامة لرسائله الموحدة.

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٢٢ .

شخصية يوسف: أبو يعقوب

من الأمور التي تستلفت النظر أن أبناء عبد المؤمن بن علي الذين كونوا أسرة ملوكية أصبحت من أشهر الأسر الحاكمة في تاريخ المغرب والأندلس، هي: الأسرة المؤمنية أو أسرة بنى عبد المؤمن الموحدية.

والحقيقة أنه إذا كان عبد المؤمن بن علي الكومي هو المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية الأمبراطورية، فإن ذلك يجعله من كبار رجال دول الإسلام، ليس في المغرب والأندلس فقط، بل في كل مكان وزمان. فالرجل سياسى بارع، وهو قائد شجاع، ينطبق عليه مقولة: «ألف ثعلب يقودهم أسد، خير من ألف أسد يقودهم ثعلب». وهو أيضاً بناء كبير يبنى المدن والقلاع والمساجد العظمى والمنائر الشاهقة. وهو في النهاية مثقف مرموق: يجيد علوم الدين واللغة، من حيث هو تلميذ المهدي المعلوم: ابتداء، ومن ثم خليفته: إنتهاء. وهو في النهاية رب السيف والقلم، تعرفه ساحات الوغى حيث تجرى الدماء أنهاراً، وتزهو به محافل العلم والأدب، حيث الحكمة والخطابة والشعر - وحيث فتوحاته أيضاً في تقييم أهداف النشر والنظم وتثمين المقاصد الفنية لمادحيه من الشعراء (كما سبق).

وإذا كانت النقلة الحادة من البساطة الشعبية إلى الرفعة الملوكية قد سهّل على عبد المؤمن إجتناها كفايته وقوة شخصيته، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لأبنائه الذين ناهزوا الـ ١٨ (ثمانية عشر) ولداً، إذ لم يستطع بعضهم مقاومة مغريات حياة الرفاهية الملوكية، وخاصة أن بلاد الأندلس كانت مدرستهم المفضلة، فضلاً عن مغريات بلاد السوس، مهد الحركة الموحدية بكرمها وعسلها.

والحقيقة أنه إذا كان عبد المؤمن قد نحى إبنه محمد المخلوع عن ولاية العهد لما أصابه من الجرح بالشرب والسكر، فإن ذلك «الكشف» كان متأخراً، فلقد سبق للوزير عبد السلام الكومي، «قريبهم» أن اكتشف هذا الخلل الذي اعتري بعض أبناء الخليفة السادة، وذلك خلال حملة أفريقية،

بل وحاول تقويمه فكان جزاؤه الإتهام بخيانة الأمانة، ومن ثم السجن والإغتيال بالسّم (مما سبق). وهنا يمكن إتهام عبد المؤمن- الذى كان لا يهاب إقامة محاكم التمييز الدموية أو التفتيش- بالضعف إزاء عاطفة الأبوة العارمة، وهو الأمر المفهوم- فالحقيقة أن عجلة التحضر بالنسبة للمغاربة من الوحدين، لم يكن من الممكن إيقافها، وهى واقعة بين مشهيات بلاد الأندلس ومغريات بلاد السوس.

هذا عن عبد المؤمن: «سراج الموحدين» الذى أصبح بعد معاناة الجهد والعمل لمدة تقرب من النصف قرن رأساً لأسرة ملكية تحمل كلا من اسمه وتوحيد ابن تومرت. هذا عن أول الدولة المؤمنية، أما عن أول بنيه، وهو أبو يعقوب يوسف، فهو ثالث المؤسسين الكبار للدولة بعد المنظر الأول (ابن تومرت) والقائد الثانى (عبد المؤمن) الذى يستحق أيضاً لقب البناء بجدارة، ولو أننا نود أن نخص الثالث (يوسف) بالعالم البناء رغم براعته وشجاعته فى القيادة التى أهلته لولاية العهد، الأمر الذى لا يعفيه من مسئولية الكبوة الشنيعة أمام شنترين، والتى وضعت نهاية مأساوية لولايته.

فيوسف بن عبد المؤمن عرف بين ملوك بنى عبد المؤمن «بالبناء الكبير»، وعلى نهجه هذا سار ابنه المنصور الذى رفع راية التوحيد خفاقة فى سماء الأندلس. ومن ثم كان آخر السلاطين العظام، وهو الناصر محمد الذى تم اغتيال إمبراطورية الموحدين بين يديه فى الأندلس، فى غفلة منه، وهى فى أوج ازدهارها، وذلك فى واحد من أيام النحس التى عرفها الإسلام المغربى- الإسباني، وهو يوم العقاب (سنة ٥٦٩ هـ/ ١٢١٢م).

صفات أبى يعقوب يوسف :

يعطى عبد الواحد المراكشى صورة شخصية طبيعية وبالألوان ليوسف، قريبة الشبه من صورة عبد المؤمن الوالد، فأبو يعقوب: أبيض البشرة تعلوه حمرة، فهو خمري اللون كما يقال، شديد سواد الشعر. وهو مستدير الوجه فكأنه قريب الشبه بجنس الترك الآسيوى القمري، وهو من ثم كبير الفم والعينين. أعنى القامة فهو أقرب إلى الطول منه إلى الوسط، وفيما يتعلق بالكلام فقد كان مع جهازة صوته، رقيق خوش اللسان، حلو الألفاظ، حسن الحديث، طيب المجالسة.^(١)

أما عن ثقافة يوسف، فقد كان أعرف الناس باللغة العربية، كما كان أحفظهم لأيام العرب ومآثرها، وجميع أخبارهم، سواء فى الجاهلية أو فى الإسلام. ومن المهم هنا التركيز على أنه مدين بثقافته تلك إلى أشبيلية بخاصة والأندلس بعامة، حيث كان تعليمه منذ الصغر، قبل ولايته هناك- التى كانت تمهيداً. الولاية العهد.

ففى أشبيلية وجهاتها لقى الكثير من أهل العلم، فى شتى المجالات العروبية، من: علم اللغة والنحو والقرآن وغيرها. وهناك لقى مشاهير أساتذة العصر، مثل: ابن ملكون، وهو: أبو إسحق إبراهيم بن عبد الملك، اللغوى المتقن، فأخذ عنهم، وبرع فى كثير مما أخذ عنهم.^(٢)

وفى علوم الدين كان ليوسف بن عبد المؤمن، كما عرف عنه عبد الواحد المراكشى سماعاً عن أبنائه، «إشار للعلم شديد، وتعطش مفرط إليه» حتى «صح عنه أنه كان يحفظ أحد الصحيحين، أغلب الظن أنه البخارى،

(١) المعجب، ص ٣٧، وقارن ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٧ ص ١٣٤- حيث نفس الرواية.

(٢) عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص ٢٣٧- وفى ذلك يخبرنا عبد الواحد، قائلاً: أخبرنى من لقيته، وشافهته منهم، أنه كان: أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن وأسرعهم نفوذ خاطر فى غامض مسائل النحو والعربية.

وذلك في حياة أبيه مع جمل من الفقه»^(١).

والى جانب مشاركته في علوم العربية «طمح به سمو نفسه- كما يقول عبد الواحد- وعلو همته إلى تعلم الفلسفة، الأمر الذى يسمح بالقول أنه كان مكتشف ابن رشد الفيلسوف (Averroes)، أشهر المعلقين على فلسفة أرسطو طاليس»^(٢) ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها... قريباً مما إجتمع للحكم المستنصر^(٣). وهنا يشير عبد الواحد إلى أن الكتب الفلسفية المتعلقة بالطب وأحكام النجوم كانت من بقايا كتب قصور قرطبة التى وقعت أثناء الفتنة بالأندلس إلى رجل من أهل أشبيلية يكنى بأبى الحجاج، ويعرف بالمرانى، كانت عنده جملة كبيرة وقعت إلى أبيه أيام الفتنة- وإن المرانى كان يعيرها فى الغرائر إلى أحد الشباب العاملين بديوان أشبيلية، والذى يعرف بأبى محمد الشذونى، والذى يوصف بأنه أحد المحققين فى صناعة «الأحكام»- جمع حكمة.

والمهم أنه عندما أنهى خبرها إلى أمير المؤمنين (أبى يعقوب يوسف) خبير تلك الكتب أرسل إلى دار الشذونى، وهو بالديوان، تابعه كافور الخصى «وأمره ألا يروّع أحداً من أهل الدار، ولا يأخذ إلا الكتب». وفعلاً أخرجت كتب الحكمة من خزائنها، وحملت إلى مقر الأمير بأشبيلية، وكانت مكافأة الشذونى، أن «لوه عقب أخذهم الكتب ولاية ضخمة»^(٤).

وكانت تلك البداية فى أشبيلية مقدمة لإهتمام أبى يعقوب يوسف بجمع كتب الحكمة التى لم يزل يجمعها، ليس من أقطار الأندلس فقط، بل ومن بلاد المغرب أيضاً. هذا، كما وسع دائرة البحث فى علوم هذه

(١) المعجب، ص ٢٣٨.

(٢) المعجب، ص ٢٣٨- حيث النص على أنه جمع كثيراً من أجزاء علم الفلسفة، وأنه «بدأ فى ذلك بعلم الطب، فاستظهر من الكتاب المعزوف بالملكى (أكثره)، مما يتعلق بالعلم (النظرى) خاصة دون العمل.

(٣) المعجب، ص ٢٣٨-٢٣٩- تعظيماً لأمرنا، ولدولة الموحدى من غير شك.

(٤) المعجب، ص ٢٣٨-٢٣٩.

الفلسفة إلى البحث عن العلماء أيضاً، وخاصة أهل الفكر والنظر «إلى أن
اجتمع منهم ما لم يجتمع للملك قبله من ملوك المغرب»^(١).

وهكذا كان من المترددين على القصر والداخلين في صحبة الأمير، من
أهل العلوم العقلية: أبو بكر محمد بن طفيل، أحد فلاسفة المسلمين،
والعارفين بجميع أجزاء الفلسفة وذلك ما يتضح من تصانيفه التي شاهدها
عبد الواحد المراكشي، في أنواع الفلسفة «من الطبيعيات والإلهيات»^(٢).
وكان أبو يعقوب يوسف شديد الشغف بابن طفيل والحب له، حتى كان
يقيم في القصر - كما بلغ عبد الواحد المراكشي - عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا
يظهر^(٣).

أما عن اكتشاف ابن رشد الحفيد من قبل ابن طفيل، وتقديمه للخليفة
أبى يعقوب يوسف فيعتبر من أهم الأعمال المضيئة في تاريخ دولة
الموحدين، بل وفي تاريخ الفكر العقلاني في العصر الأوروبي الوسيط، ولا
شك أن هذا الحدث الحضاري هو الذي دعا عبد الواحد إلى القول: أنه «لم
يكن في بني عبد المؤمن فيمن تقدم منهم وتأخر ملك بالحقيقة غير أبى
يعقوب هذا»^(٤).

(١) المعجب، ص ٢٣٩.

(٢) انظر المعجب، ص ٢٣٩-٢٤٠، حيث يقدم عبد الواحد المراكشي معلومات تفصيلية
عن أبى بكر بن طفيل الذي تتلمذ على ابن باجه (ابن الصائغ)، والذي كتب في
الطبيعيات: رسالة «حي ابن يقظان التي يصفها بأنها «مبدأ النوع الإنساني على
مذهبهم»، وأنها «لطيفة الجرم، كبيرة الفائدة في ذلك الفن. كما كتب في الإلهيات
التي «صرف عنايته في آخر عمره إليها». وفي ذلك يشير عبد الواحد إلى أن ابن
طفيل «كان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشرعة، معظماً لأم النبوات ظاهراً
وباطناً... مع إتساع في العلوم الإسلامية.

(٣) المعجب، ص ٢١٠-٢٤١- حيث يقول عبد الواحد: «وكان أبو بكر هذا أحد حسنة
الدهر في ذاته وأدواته. ومن شعره الذي قرأه ابنه على عبد الواحد، مما نظم في
الزهد.

يا باكباً فرقة الأحباب عن شحط هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تتردد «في طين إلى أجل فإنجاز علواً وخلقاً الطين للكفن

(٤) المعجب، ص ٢٤٣.

فكان تقرير عبد الواحد المراكشي هذا يعنى أن أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن هو أعظم ملوك بنى عبد المؤمن دون منازع. فهو بفضل نزعته الإنسانية، يرقى إلى مرتبة الرئيس الفاضل، الذى تعتبر صناعته فى مدينته الفاضلة أفضل الصناعات. وكل ذلك بفضل صحبة أبى بكر بن طفيل الذى وقف من الأمير أبى يعقوب يوسف، موقف الأستاذ أو الأتابك (المربى الوالد)، كما كان الحال فى نظم المشرق التركية الطابع فى ذلك العصر.

ويمثل هذا ما ختم به ابن صاحب الصلاة قضية إستحقاق يوسف للخلافة التومرتية وإمارة المؤمنين فى شوال سنة ٥٦٣ هـ من أعمال البر التى قام بها، والتى أصبحت علامة مميزة لعهد. فلقد أعفى من العقوبة المسجونين والمدينين ممن انكسرت عليهم مستحققات الدولة من دافعى الضرائب أو من الجباة المتهمين بالخيانة فى الأموال، «وأمنهم عن المخاوف فيما تقيد عليهم فى الدواوين».

وهكذا زاد الانبساط والنشاط عند الناس، بفضل صفحه وعدله... وزاد المخازن... ونمت الأرزاق، وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرباحة... واغتبط العالم به وبيعته، وكثر المال بالأيدى... وزاد فضله على من كرمه فى جميع العدو والأندلس، واعتمل الحب فى جميع القلوب. (١)

(١) المن بالإمامة، ص ٣٤٧-٣٥٠، حيث الختام بقول أبى قام:

ولقد أراك فهل أراك بفبطة والعيش عفو الزمان غلام
أعوام وصل كساد ينسى طولها ذكر الهوى فكانها أيام
هذا كما مدحه ابن حزمون عندما دعى أمير المؤمنين، قائلاً:

جاءتك تسحب ذيلها للموعد زهراء طابعت سعيد الأسعد
تهنى الخلافة أن لبست رداها وقعدت منها اليوم أشرف موعد
ان الذى قد قمت تنصردينه أعطاك ميراث النبى محمد!
عمرت قلوب المؤمنين بحبه واستمسكوا بعرى التين المخصد

هذا، كما ينص ابن صاحب الصلاة على أن الأمير يوسف أجزل العطاء، وأمر «ببركة» تعم الناس بحضرة مراكش... واستوى بهذا الإنعام المبارك سعده، ونمت الجبايات والخراجات... وعزمت النفوس على الغزو وحرب المحاربين في الحضر لهم والبدو وأتصلت الغبطة بالبيعة الرضوائية والأمان، وقيل للزمان: «أنت خير زمان...».

أحوال الدولة الموحدية عند ولاية يوسف بن عبد المؤمن

توفي عبد المؤمن بن علي في منتصف سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٦م، في منطقة رباط الفتح بسلا، وفي نيته تأكيد الوجود الموحدى بالأندلس الذي كانت قد بدأت تبشيره هناك من نهاية العقد الرابع وبداية العقد الخامس من القرن الـ١٢هـ / ١٢م، بفضل حركة المريدن، وعدد من الثوار الأندلسيين (أهل الحراية مما سبقت الإشارة إليه، الأمر الذي أدى إلى الإهتمام ببناء رباط الفتح على ساحل سلا، وإعادة الحياة إلى منطقة جبل طارق الذي سمي بجبل الفتح (الفتح الموحدى الجديد).

وفي منطقة المجاز هذه كان بناء مدينة جبل الفتح الجديدة، الأمر الذي كان مناسبة لعقد لقاءات واحتفالات كبرى في المنطقة، ضمت جموع أعيان كل من المغرب والأندلس على نفس الصعيد، حيث بدأ توثيق الروابط المتينة بين العدوتين، مما زاد في التواصل بين شطرى المغرب الأقصى الجديد بعدوته: الأندلسية بشرقها وغربها والسوسية (بشقيها: الفاسى الأدنى والمراكشى الأقصى)، إلى جانب توابعهما في المغرب الأوسط من أرض بربر صنهاجة، وفي إفريقية من مسارح عرب الهلالية المتمددين حتى طرابلس وبرقة.

هذا، ولو أن المناطق التى استهدفها عبد المؤمن هناك، وضمها إلى دولة التوحيد، وخاصة في إفريقية وطرابلس، والتى لم تكن ضمن التركة المرابطية، ظلت أطرافاً بعيدة عن مراكش، الأمر الذى سمح للناشطين من بقايا الملتزمين إلى استغلالها لصالحهم، حيث كانوا بمثابة الشوكة فى حلق الدولة الموحدية الناشئة.

وهكذا وقع على عاتق الخلفاء من بنى عبد المؤمن عبء مواصلة الحراية
ضد اللمبٲونيين الملتهمين فى مشرق دولتهم بين إفريقية وطرابلس، إلى
جانب الجهاد فى الأندلس فيما وراء العدو والمجاز، الأمر الذى كان يمثل
نزيفاً دموياً للدولة الموحدية الفتية، لم تتمكن طويلاً من مواجهة عواقبه
الوخيمة بما يتناسب وأعمال الدول التاريخية الكبرى.

A S R

الخريطة السياسية العسكرية للأندلس عند ولاية يوسف

كان من الطبيعي أن يزداد موقف المرابطين سوءاً في الأندلس مع نجاح الثورة الموحدية الفتية في المغرب، حيث انتهى الأمر باقتطاع المغرب قبل سقوط العاصمة مراكش. وبذلك ازدادت نيران الفتنة في الأندلس، ومن ثم التشرذم ما بين التطلع ما وراء المضيق حيث كان عبد المؤمن المظفر، أو محاولة الإستئثار بالسلطة وإعلان الاستقلال الطائفي، ومن ثم الإرقاء في أحضان ملك قشتالة الذي كان يحمل لقب الإمبراطور بعد ألفونس المحارب ملك ليون، وإن كانت قشتالة قد بدأت تضعف منذ حين تحت رايات الملوك القصر أو وصاية كبار أمراء الأرستقراطية ما بين آل لارا وآل كاسترو، في الوقت الذي كان ملك البرتغال «الفونسو هنريكيذ يفتتق بلاد المسلمين بمعاونة جماعات الإخوان من الفرسان»^(١).

والحقيقة أن شبه جزيرة إيبيريا التي كانت مقسمة على عهد خلافة قرطبة- بشكل تقريبي إلى نصفين: شمالي وجنوبي تحدهما في الوسط مدينة طليطلة وتوابعها، حيث منطقة الشجر الأوسط، ما بين أسبانيا المسيحية شمالاً والأندلس الإسلامية جنوباً، لم تعد على ذلك الحال.

فبينما كان خط الحدود ينخفض من الشمال الشرقي- في منطقة الشجر الأعلى- بعيداً عن سرقسطة نحو الجنوب الغربي، كان ذلك الخط ينخفض عند منحنى وادي آنة، في منطقة الشجر الأدنى على سمت لشبونة وشنترين على شاطئ المحيط الجنوبي، الأمر الذي جعل خط التقسيم

(١) أنظر أشباخ، المرابطون والموحدون، ترجمة عنان، ج ٢ ص ٥ عن ملك قشتالة سانشو ٣

الذي إتخذ لقب قيصر، والابن الطفل الذي إتخذ لقب الفونسو النبيل، ص ١٨/١٧- حيث قيام ملك البرتغال الفونسو هنريكيذ مع بعض جماعات الغرب بالإستيلاء على يابرة (١١٦٦م/٥٦١هـ)، وإنشائه في السنة التالية (١١٦٧/٥٦٢) جماعة القديس ميخائيل- مع الإشارة إلى عزم ملوك النصارى على الإتحاد بعد ظهور الخطر الموحدى.

الحقيقى بين المسيحيين شمالاً والمسلمين جنوباً ينكسر من حدّ طليطة- حيث قشتالة الجديدة- نحو أسافل نهر الإبرو، وجنوباً بغرب نحو مصبات نهر التاجه، وبذلك أصبحت المنطقة شمال وادى أنه، منطقة أرض حرام (nomans' land)، وبالتالي مسرحاً لتجوال القوات المسيحية (لكل من ليون وقشتالة والبرتغال)، وذلك حتى التخوم الشمالية للوادي الكبير في منطقة الوسط، وحتى تخوم قرطبة وأشبيلية في ذلك الزمن الصعب- زمان الطوائف، ومن ثم عصرى المرابطين والموحدين- الأمر الذى كان يزيد من صعوبة عملية الإنقاذ المغربية.

فحدود الخلافة أو جليقية (غاليسيا) وليون المسيحية تقدمت جنوباً مع قيام (دولة البرتغال حتى مصبات تاجه عند لشبونة وشنترين اللتين أصبحتا في منطقة الأرض الحرام، حيث كان يتم تبادلها في منطقة الثغر الأدنى ما بين المسلمين والمسيحيين في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الأندلس، فترة إضمحلال المرابطين وقيام الموحدين بالأندلس. أما الثغر الأعلى بعد ضياع سرقسطة (٥١٢ هـ/١١١٨ م) الذى يعادل في خطورته ضياع طليطة من قبل (٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م)، فقد هبط هو الآخر جنوباً إلى طرطوشة أو بالأحرى إلى شمال بلنسية التى أصبحت مهددة هي الأخرى أو متبادلة ما بين الاسترداد والاسترجاع.

والحقيقة أن حالة الاضطراب وعدم الاستقرار على الحدود الأسبانية المسيحية والإسلامية كانت نتيجة لافتقاد التوازن السياسى والأمنى في كل من الجانبين شمالاً وجنوباً. ففي الوقت الذى كانت تتفاقم فيه أحوال الطوائف الأندلسية مع تدخل المرابطين والموحدين في المغرب، كانت أسبانياً المسيحية تمر بمرحلة شبيهة بالطوائف الإسلامية، من حيث صراعات وحروب ملوك وفرسان النظام الإقطاعى الذى عرفته أوروبا الغربية في تلك الفترة المبكرة من العصور الوسطى، قبل قيام الملكيات الأوروبية الجديدة بانتهاء الصراع بين الأمباطورية المقدسة والبابوية- وهو

الأمر الذي كانت له نتائج واضحة في أسبانيا الشمالية المسيحية، وما يتاخمها من أراضي جنوب فرنسا في الروسيون واللانجدوك إلى جانب قطلونة والبروفانس وكونتية قرقشون وتولوز.

ما بين الجهاد وحرابة الثوار في العدوتين؛

موقف ترقيب في الأندلس

فيما يتعلق بالحرب في الأندلس ينص ابن أبي زرع في قرطاسه على أن الأمير أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن هو: «أول ملك من ملوك الموحدين جاز إلى الجهاد، فغزا بنفسه، وواظب عليه، واقتنى الزخيرة، واستكثر من الجيوش والجنود». هذا، كما أن ملكه (امتد في الأندلس) من مدينة تطيلة، قاصية شرق الأندلس، إلى مدينة شنترين من بلاد غرب الأندلس»^(١)، فكانه صاحب الفضل في إقرار سلطان الموحدين في بلاد الأندلس من مشرقها إلى مغربها، بعد أن كانت بداية التمدد الموحد في الأندلس مقتصرة على مغرب الأندلس فقط، بفضل حركة المرينيين، على عهد عبد المؤمن (ج ٥). وهنا تشير رواية القرطاس إلى أنه كان «يجبى إليه (يوسف) خراج ذلك كله دون مكس ولا جور، فكثرت الأموال في أيامه، وتمهدت البلاد، وتأمنت الطرق، وصلاح أمر الناس في البادية والحاضرة»^(٢) كناية عن أن عهد أبي يعقوب يوسف يعتبر بداية عهد الذروة بالنسبة لدولة بني عبد المؤمن الموحدية.^(٣)

وفيما يتعلق بالأندلس كان يوسف عند وفاة والده عبد المؤمن بسلا، على الشاطئ الآخر للعدوة الأندلسية، مستقراً في ولاية أشبيلية، عاصمة الأندلس، والتي كانت ولايتها من العلامات المميزة لولاية العهد، منذ أيام المرابطين (ج ٥).

(١) روض القرطاس، ص ٢٠٦.

(٢) القرطاس، ص ٢٠٦.

(٣) نفس المصدر - حيث: صلاح أمر الناس في البادية والحاضرة لحسن سيرته وعدله.

وهنا نشير إلى ملاحظة هوشى ميراندا الذكية، حيث يشير إلى أن يوسف الذى كان يبلغ من العمر ٢٥ (خمسة وعشرين) عند ولايته، كان قد قضى ٧ (سبع) سنوات فى ولايته من الـ ١٨ (ثمانية عشر) عاماً التى أقامها فى أشبيلية، حيث تلقى ثقافته العالية.^(١)

(١) هوشى، إمبراطورية الموحدين، ج ١ ص ٢٢٢ .

ثورة قبائل غمارة على الجانب المغربي من العدوة تهديد أكيد للطريق إلى الأندلس

والمهم أنه ما كان يمكن للأمير يوسف أن يتفرغ لأمر الأندلس قبل أن يتخلص مما أحاط بولايته، من مشاكل عائلية- بعضها في عقر داره بالأندلس، مما حدث في قرطبة، وأخرى، من نزاعات عرقية وقومية، مما كان يجرى في كل من الأندلس والمغرب، الأمر الذي تطلب في كثير من الأحيان معالجة الموقف في العدوتين معاً، مما كان يسبب نوعاً من النزيف للطاقة الموحدة على كل مستوياتها.

ثورة صنهاجة مفتاح (الغمارية: الريفية) بقيادة مزيزدغ (مرزدغ)

وهكذا، وقبل التفرغ للجهاد في الأندلس أو الحاربة، كان على الأمير الشاب (يوسف) في مستهل إمارته، في سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م أن يواجه اضطراب قبائل غمارة وغيرها من قبائل بلاد الريف من صنهاجة. وقائد الثورة رجل من زعماء تلك القبائل الريفية أو الغمارية العريقة إسمه مفتاح (إسم التفائل والاستبشار الدارج في بلاد المغرب الشرقية حتى عصرنا الحديث) ^(١)، والذي كان قد وُحِدَ ودخل في الطاعة منذ سنوات، على عهد عبد المؤمن، أيام النضال مع تاشفين والبربر، في المغرب الأوسط، ما بين سنة ٥٣٥هـ/ أغسطس ١١٤٠ وسنة ٥٣٩هـ/ يولييه ١١٤٤م. ^(٢) والذي نراه أن مفتاح هذا هو الذي أعطى اسمه لذلك الفرع (١) انظر ابن الأثير، ج ١١ سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م، والنوري، الدار البيضاء (أبو ضيف)، ص ٤٣١ حيث ابن عمرو.

(٢) انظر البيدق، ص ٧٨-٧٩ حيث «فوحّد غمارة، منهم: مفتاح ابن عمر، وجزنا إليهم، ونزلنا عند مفتاح بن عمر في صنهاجة غدو، وقطع تاشفين... فقلعنا من صنهاجة غُدو» وقلع أيضاً تاشفين مع الإبربر إلى بني تاودا، فنزلوا بها، وكان بيننا وبينهم الوادي متاع ورغة، وإنظر ج ٥ ص ٢٢٠- حيث حملة جبال الريف، وص ٢٢٠- حيث توحيد الزعيم الصنهاجي: مفتاح بن عمر.

من صنهاجة غمارة فى ذلك الحين، حيث أصبح «صنهاجة مفتاح»، كما عند ابن أبى زرع.^(١)

ولما كنا نعتد رواية ابن الأثير، كما هو الحال بالنسبة للنويرى، فنحن نرى أن مفتاح ابن عمر، أول ثوار جبال غمارة على عهد يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، هو نفسه مزبدغ (أو مَزْرَدَغ)، وهو ثائر بلاد غمارة فى نفس السنة عند غير ابن الأثير من الكتّاب. والذى نراه لتبرير ذلك هو أن يكون مفتاح هو الإسم العربى للثائر، ومزبدغ أو مَزْرَدَغ هو الإسم القومى البربرى (المغربى)، كما الدارج عند بربر المغرب، وكما هو الحال عند الأتراك بالشرق. وأهم النماذج هنا هو ابن تومرت: محمد بالعربية أو أسنفو بالبربرية.

وهكذا، ولما كانت ثورة مزبدغ (أو مرزدغ) لا تتعدى تاريخياً سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، كما هو الدارج عند المؤرخين غير ابن الأثير بينما تنص رواية الكامل على أن ثورة مفتاح إمتدت إلى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م، يكون من الواضح أنه حدث خلط بين ثورة مفتاح وثورة غمارة التالية التى قام بها سبع بن منغفاد. وبذلك يكون ما يخص ثورة مزبدغ فى رواية ابن الأثير هو أن «مفتاح بن عمر» «كان مقدماً كبيراً فيهم (صنهاجة غمارة)، وبابعوهم بأجمعهم، وامتنعوا به فى جبالهم».^(٢) وأمام النجاح السريع الذى حققه «مرزدغ» (من صنهاجة مفتاح)، فإنه ضرب السكة، وكتب فيها «مرزدغ الغرب، نصر الله قريب».^(٣)

والمهم فى نهاية مرزدغ (أو مفتاح)، فى منطقة واجران، هو أن القائد الموحدى يوسف بن سليمان نجح فى إرغامه على التوحيد مرة ثانية سنة

(١) القوطاس، ص ٢٠٩.

(٢) ابن الأثير، ج ١١ سنة ٥٥٩هـ/ أواخر ١١٦٣م، ص ٣١٢-٣١٣، وقارن النويرى، نهاية الأرب، الدار البيضاء، (أبو ضيف) ص ٤٣١.

(٣) القوطاس، ص ٢٠٩.

٥٥٩هـ/١١٦٣-١١٦٤م، وأنه سيره منفيماً إلى قرطبة حيث حددت إقامته^(١)، وبطبيعة الحال يكون ذلك في نفس سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م، حسب رواية القرطاس.^(٢)

والظاهر أن النجاح الذي حققته ثورة مرزدغ في صنهاجة مفتاح شجع الغماريين حقيقة - أي المصامدة أصلاً (ج ١ ص ٨٦، ٩٧) - هذه المرة على مواصلة تجربة التحرر من سلطان الموحيدين في المغرب، وذلك في الوقت الذي كانت ثورة ابن مردنيش يشتد أوارها في الأندلس سنة ٥٦٠هـ/١١٥٤م التالية، الأمر الذي يؤدي بالتالي أن تشابك الأحداث فيما بين الحراية المتزامنة في كل من العدوتين.^(٣)

الموقف في الأندلس: مدافعة حراية ابن مردنيش

إن نفى الشائر الغماري مزبدغ (مفتاح) بعد قهره وإعلانه الخضوع، إلى قرطبة بالأندلس، يعني أن حكومة الأندلس «المركية» في أشبيلية كانت المسئولة عن شئون بلاد الريف، عسكرياً على الأقل، من حيث كانت تمثل عمق المجاز في العدو المغربية. وهكذا لا تكاد تنتهي ثورة ٥٥٩هـ/٤-١١٦٣م في غمارة حتى تترى أنباء الكفاح ضد ابن مردنيش الشائر في شرق الأندلس، وضد من كان يحالفهم من الروم.

وبطبيعة الحال كان انشغال الموحيدين بالثورة الغمارية فرصة انتهزها

(١) البندق، ص ١٢٣.

(٢) ابن أبي زرع، ص ٢٠٩.

(٣) انظر ابن الأثير، ج ١١ سنة ٥٥٩هـ/ أواخر ١١٦٣م، ص ٣١٢-٣١٣، وقارن النويري، نهاية الأرب، الدار البيضاء، ص ٤٣١- حيث مقتل مفتاح بن عمر (مرزدغ) في سنة ٥٦١هـ/ ٦-١١٦٥م على يد الأمير يوسف نفسه، وبصحبة أخويه أبو حفص عمر (الوزير الشريك) وأبو سعيد عثمان (صاحب قرطبة) على رأس جيش من الموحيدين وحلفائهم العرب الهلالية، وإرسال رأس الشائر إلى العاصمة مراكش.

الأعداء في الأندلس، من ملك البرتغال وأعوانه في الغرب^(١)، وابسن مردنيش الثائر المتغلب في الشرق، لكي يدعموا مراكزهم على حساب الموحدين الذين كانوا حتى ذلك الحين، لم يجمعوا على خلافة أبي يعقوب يوسف لأبيه عبد المؤمن، إذ كان لا يزال يحمل لقب الأمير، وليس أمير المؤمنين، الأمر الذي لم يكن يسمح له بحرية الحركة في مدافعة الشوار والمعارضين.

واستمر الحال على هذا المنوال حتى سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م التالية حيث بدأ الإنفراج بالنسبة ليوسف، وذلك ب وفاة أخيه المعارض له في بجاية، وهو السيد أبو محمد عبد الله^(٢)، ومن ثم خضوع أخيه السيد أبي سعيد عثمان صاحب قرطبة بعد لأي. فعندما وفد عليه الحفاظ من مراكش «تعارض عند وصولهم واعتل، وأطال الالتواء واختل، وارتبط لهم ثم انحل، فرحلوا من عنده إلى الأمير بمراكش بمواعيد»^(٣). ولم تستقم حال أبي سعيد إلا عندما قرر أخوه المستبد بالوزارة في مراكش، وهو أبو حفص عمر المسير إلى الأندلس، على رأس القوات الموحدية، فعندئذ عبر السيد / أبو سعيد عن الاعتذار، الأمر الذي أدى إلى استدعائه بالتأنيس

(١) حيث إستعانة ملك البرتغال وقتئذ بالمغامر الجليقي جرانده (Garlido Sem الذي تصفه الرواية الإسلامية بالكلب، والذي كان يعيد سيرة) (Pavor el Galago السيد الكامبيا دور في الشرق، من حيث تسلله في الليالي المطرة للغدر بالحارس الليلى (السامر) ومن ثم دخوله المدينة الحصن دون قتال، كما فعل بمدينة ترچالة في نفس السنة ومن ثم (Evora) سنة ٥٦٠هـ/نوفمبر ١١٦٤م وبابرة (Trujello) حصنى منتاحس (Mantanchez) وجمانية (Jurumeina) في سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦م- انظر ابن عذارى (هوشى) ص ٧٨-٧٩، وانظر عنان، الموحدون، ج ٢ ص ٢٦-٢٧.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٣٩، ابن عذارى، البيان المغرب، تطوان (هوشى - قسم ٣)، ص ٦٠.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٣٩-٢٤٠، وقارن ابن عذارى، (تحقيق هوشى)، قسم ٣، ص ٦٠- حيث ذكر إثنين من الحفاظ الثلاثة فقط، وهما: أبو عبد الله بن أبي إبراهيم، أبو يحيى بن أبي حفص، دون ذكر أبي الربيع سليمان بن داود.

إلى لقاء قريب بمدينة جبل الفتح (جبل طارق).^(١)

وهكذا كان على السيد الوزير «أبو حفص» أن يتحرك من حضرة مراكش في أول ربيع الأول، الموافق بقية أيام من شهر ينّير (يناير) العجمي (١٦ يناير ١١٦٥م) من عام ٥٦٠ هـ، في جملة من أعيان رجال الموحدين... وأبناء الجماعة- كأبي يحيى بن الشيخ المرحوم أبي حفص، ويوسف بن يمجيت، وإسحق بن جامع. هذا، وكان في معيته عدد من أشياخ ثوار الأندلس المختصين به، مثل: أبي محمد سيد رأى بن وزير، وأخيه أبي الحسن على، وعلى الفخار (صاحب لبلة)^(٢)

وينص ابن صاحب الصلاة على أنه كان في صحبة السيد أبي حفص عدد من أشياخ المرابطين، من مسوفة وملتونة، «اجتمع فيهم نخبة من الناس كبيرة القدر، متوسطة العدد والذكر عددهم نحو الـ ٤٠٠ (أربعمائة) فارس.^(٣)

وإلى جانب هؤلاء كان العرب الهلالية الذين دخلوا المغرب الأقصى على عهد عبد المؤمن، قد بدأوا الدخول إلى الأندلس من أجل الرباط والجهاد. فقد «كان في صحبة السيد الأعلى: أبي حفص عدد من كبار القادة الشيوخ منهم: أبو سعيد يخلف بن الحسين، وأبو عبد الله بن يوسف بن وانودين، وبصحبته «عسكر مختار من أعيان العرب وأنجادهم، مثل: على بن محرز بن زياد، وأخويه المبادرين للغزو بالتكاثر والازدياد، ومن قبلية وشيعه: رجال وفرسان أبطال، زهاء ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فارس».

(١) ابن صاحب الصلاة، ص ٢٤٠.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٥٠- حيث الإشارة إلى زيد بن محبوب، ومحمد بن مروان بن سعيد الغرناطي، وقارن، ابن عذارى، قسم ٣ نشر هوشى، ص ٦٠- حيث يضيف إلى أعيان الموحدين: يوسف بن وانودين، وينقص من أشياخ ثوار الأندلس أخا ابن وزير، كما يضيف من أشياخ العرب على بن محرز بن زياد إلى ذكر أشياخ ملتونة ومسوفة.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٥١.

وكانت الخطة المرسومة: أن يتقدم أخوا على بن محرز (سيد قبيلة رياح الهلالية) أمام السيد أبى حفص إلى أشبيلية وقرطبة، بغرض «حماية صيفتها في مواسطها وثغورها، ودفع الأعداء الروم والأشقياء المنافقين عن معمرهما»^(١).

وكان هدف الحملة الأول هو التجمع في مدينة سَلا (سلى: (رباط الفتح) التي كانت قد بنيت أصلاً لحرب برغواطية، فأصبحت بالتالي قاعدة لتجمّع الحملات الموحدية الموجهة إلى الأندلس. وهكذا وصل السيد الأعلى: أبو حفص إلى مدينة سَلا (الرباط) بجميع العسكر، حيث أقام مدة شهر، ينظر في ترتيب شئون الحملة. وفي أثناء هذه الإقامة خاطب أخاه السيد «أبو سعيد» بقرطبة يعلمه بالمشى إلى لقائه، وأن يكون المجتمع بجبل الفتح (جبل طارق).

وهنا بدأ الإعداد لجواز العساكر فكان من «الشيخ أبى سعيد وأبى عبد الله محمد بن يوسف التقدم بالعرب إلى البحر للإجازة حسبما كان الاتفاق معهما».

ومن ثم كان على السيد الأعلى «أبو حفص» أن يسير بخاصته ومنهم كاتبه ابن عياش، من سلى (سلا) إلى طنجة، حيث كان عليه كشف المجاز على طول بحر الزقاق. وهنا يظهر ابن صاحب الصلاة، صاحب المن بالإمامة، بنفسه ليصف لنا نشاط أبى حفص، وكان الكاتب المؤرخ قد حضر مع طلبة الحضر - خصيصاً - للتبرك بالسيد «أبو حفص». فقد شاهد ركوبه (أبو حفص) في غراب طيار عبّر بحر الزقاق من طنجة إلى سبتة (نقطة العبور). بعد أن «أمر بمشى الناس على خيلهم على البر إلى قصر مصمودة (القصر الكبير) ثم إلى سبتة، فنزلوا بها تحت أمره بخير منزل». وهناك «انسابت عليهم الأرزاق والضيافات والمواساة بكل بر

مستعجل»^(٢).

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٥١.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٥٢-٢٥٣، وقارن ابن عذارى، القسم ٣

(هوشى)، ص ٤٨.

اجتماع قمة جبل الفتح

وفى اليوم التالى وصلت الأخبار من الجزيرة الخضراء، عن طريق البريد السريع بالغراب الطيار، تعلم من بسبته بحلول السيد أبى سعيد خاصته وأشياخه بجبل الفتح (جبل طارق). وفى نفس اليوم عبر السيد الأعلى (أبو حفص) البحر، ومعه جملة من الناس فى القطائع المعدة للعبور، وذلك فى «هيئة عظيمة من نشر البنود وقرع الطبول والسرور بالورود... وكان يوماً مشهوداً كله سرور». ويمثل هذا الإحتفال خرج السيد أبو سعيد فى قطائعه يستقبل أخاه الوزير. « واجتمعا خيرا اجتماع، وارتفع الارجاف، وعم الخير والحبور بجميع الجهات»^(١).

وهكذا تمت قمة المصالحة فى جبل الفتح بين السادة (الأمرء) بحضور كبار رجال الدولة من الطلبة والحفاظ، ومشايخ القبائل والأعيان، وكان الهدف من الاجتماع بطبيعة الحال هو تجديد البيعة للأمير يوسف، وكان من الطبيعى أن يحضر الشعراء بقصائدهم للتهنئة بالإنسابة السعيدة. وكانت قصيدة الافتتاح هى التى ألقاها أبو الوليد إسماعيل بن عمر الشلبى، والتى بلغ عدد أبياتها ١٩ (تسع عشرة)، ومطلعها:

عهد أناربه الهدى والدين واستظهر التأيد والتمكين
بشرى الخلافة إذ تقلد عهدا البرا لنقى الطاهر الميمون
نجل الإمام ونشأة الخلق الرضى تبدوعلى هدى وبين
«الناصر» المنصور» وأوضح نهجه فى الصالحات فنجمه مضمون^(٢)

والى جانب تهنئة الأمير يوسف بمراكش بتجديد البيعة، كان موضوع الجهاد فى الأندلس فى الماضى، والتحريض عليه فى الحاضر والمستقبل من الموضوعات التى ركز عليها الشعراء، فى حضرة السيد الأعلى (وزير

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٥٣، وقارن ابن عذارى (هوشى)،

ص ٦٠-٦١.

(٢) المن بالإمامة، ص ٢٤٠.

الدولة الأول: أبو حفص عمر)، والذي كان يجلس للناس في «القصر المشيد البنيان، الرفيع الشأن»، في ذلك الحفل الذي استمر بجبل الفتاح مدة ١٥ (خمسة عشر) يوماً، في مسرات متصلة، ما بين «إطعام الطعام، وإنشاد الشعراء، وكرم السيد الأعلى الذي غمر الجميع بالأعطيات والبركات، والكسا على أتم الخيرات»^(١).

فلقد عالج أبو بكر الشلبى في شعره موضوع كفاح بلده شلب ضد الأعداء، فمما أنشده في ذلك:

إن الأعداء لا تزال كعهدها توري بشلب مغسارها وكفاها
كلفت بها أعداؤها حتى لقد أخذوا عليها نجدها ويطاحها
ما ضرنا أن غلقوا ما حولها إن كان سيفك بعدها مفتاحها^(٢)
أما أبو عمر بن حريون الذي كان في «كتائب ابن نقسى: زعيم المريدن، ثم في جملة كتّاب السيد أبي حفص وطلبة الحضرة، إلى أن منى بالحرمان»^(٣)، فقد عالج في شعره إلى جانب التهنية بالبيعة السعيدة، ذكر الواقعة التي كانت على ابن همّشك وابن مردّنيش بجبل السبيكة بأغرناطة سنة ٥٥٧هـ، فمما يقوله في البيعة:

لكم بعد حمد الله تهدي المحامدُ وفي وصف علياكم تُصاغ القلائدُ
إليكم سرى من شلب ركب كأنهم تطارد أدهم للخطوب طرائد
سروا فوق أفاق الشدائد نحوكم وفي طلب العلياء قبلة وافد
فإن لم أكن من شاهدي بيعة الرضا فإني بإخلاص الضمير لشاهد
إليه انتهى النور المبين الذي به تبصّر ظليل وأذن من مارد
لقد ورث شليل منها مقانِبُ لما انحدرت من رأس رضى الجلامدُ

(١) المن بالإمامة، ص ٢٥٣، وقارن ابن عذارى (هويش)، ص ٦١.

(٢) المن بالإمامة، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٥ و٤٦ للمحقق د/ عبد الهادي التازي.

تجلجل منها المردنيش خزبة تناعى بها بين البيوت الولائد
وما يصغ السيف المصمم فى الوغى إذا لم تساعده على الضرب ساعد^(١)
وهو فى ابن همشك وابن مردنيش يقول:

قد حصّص الحق لا ريب ولا فند هذى الفتوح التى كانوا بها وعدوا
خذوا بخططهم يا أهل أندلس منها فما لنا وبها من بعدها رشد
اليوم صمّ صدى الغاوى بأرضكم والكلب ينبج ما لم يزار الأسد
والآن قل لذوى الإلحاد شأنكم وبشر فما لكم دون هذا الأمر ملتحد
وبشر العجم إن العرب قد دلفت على العراب وإن الملتقى صدّد
فوالدين جزلان قد عزّت جوانبه والكفر خزبان ما ينفك يظطهد^(٢)

وهكذا كان يفهم من هذا الاحتفال الذى أقامه السيد الأعلى أبو
حفص- نيابة عن الأمير يوسف- أن الأمر لم يكن مناسبة للبيع والمصاحبة
بين السادة الإخوة، وخاصة من قبل السيد أبى سعيد صاحب قرطبة فقط،
بل أن الأمر يتعلق بإعلان من قبل الدولة الموحدية على عهد يوسف
بالقيام بواجب الدفاع عن الأراضى الإسلامية التى حاول الأعداء والشوار
إنتهاز الفرصة لانتهاك حرمتها أو التغلب عليها.

نتائج مؤتمر جبل الفتح:

إنتهى مؤتمر جبل الفتح الذى رأسه كل من السيد الأعلى (وزير الدولة)
والسيد بو سعيد عثمان (الوالى- الأمير بقرطبة) بالتفاهم على تجديد
البيعة للأمير يوسف، وعلى أن يصحب أبو سعيد أخاه الوزير فى رحلة
العودة إلى العاصمة مراكش، من أجل تجديد البيعة.

وينص ابن صاحب الصلاة على أن آخر ما تم الاستماع إليه قبل
الرحيل عن مدينة جبل الفتح، هى قصيدة مديح الشاعر (الكاتب) أبى

(١) المن بالإمامة، ص ٢٤٥-٢٥٠.

(٢) المن بالإمامة، ص ٢٥٣-٢٥٦، حيث عدد أبيات القصيدة ٣٩ بيتاً.

عمر بن حريون للسيد أبى حفص، وفيها ينشد قائلاً:
تجشمت هول البحر فى طلب البحر ولم أشك صرف الدهر إلا إلى الدهر
لعمرك ما ألقى أبا حفص الرضى وأشكو الليالى ما يطاول من عمري
همام إذا هم نال مراده ولو أنه أمسى على قمة النسر
هو ابن أمير المؤمنين وشبهه وحسبك من فرع وحسبك من بحر
وبعد استحسان هذه الأبيات «نفذ أمره (أبو حفص) الكريم
بالانصراف، وعبور البحر إلى العدو (المغربية) والانعطاف»، بعد أن
سرح أشياخ بلاد الأندلس الواقدين، وكذلك العمال والأجناد القاصدين
الجهاد والرباط فى الأندلس، ممن سبقت الإشارة إليهم، من: فرسان
المرابطين من مسوفة وملتونة أو العرب الرياحيين من قبائل ابن محرز، الذى
وقع على عاتقهم الدفاع على حمى بلاد أشبيلية وقرطبة، وما كانت تجود
به من خيرات فصل الصيف (مما سبق).

العبور إلى مراكش؛

وعبر السيدان ومعهما أكثر الحملة المغربية الوافدة. وتطلب العبور
ثقلتين بالمراكب والقطائع، إستغرقتا ٣ (ثلاثة) أيام قضاهما السيد أبو
حفص فى سبته، حسبما يقرر ابن صاحب الصلاة الذى صحب الحملة إلى
مراكش- حيث كان يحاول العودة إلى الكتابة فى الديوان الأميرى، ولكن
اختيار السيد أبى حفص وقع على كل من: أبى عمر بن حريون، وأبى
الحسن الهوزنى (كاتب محمد بن المعلم: رئيس الكتاب).

وكان الطريق من سبته مباشرة إلى فاس حيث كان الأمير يوسف بنفسه
فى استقبال شقيقه الوزير أبى حفص، وبصحبه أخيه السيد أبى سعيد،
خارج المدينة، فى احتفال كبير، من: قرع الطبول، خفق البنود، واجتماع
النظارة.

ودخل المحتفى بهم إلى العاصمة مراكش فى أول رجب سنة
٥٦٠ هـ/ ١٤ مايه ١١٦٥ م، وأقيم بالمناسبة إحتفال كبير، أطعم الموجدون

فيه الطعام، وأنشد الشعراء بالتهاني والمدائح، وخطب الخطباء.
ومدح الأستاذ أبو الوليد السوسي الشلبي الأمير يوسف بقصيدة-
إقتدى فيها بابن هاني الأندلسي، كما نرى- فقال:

وضحت بأنوار الهدى قسماته ويانت الهدى القويم سماته
ملك الملوك ~~مؤيد~~ كنه غلبت عليه من التقى ملكاته
دانت له الدنيا وكافة أهلها فعفا وعفّ وسامحت عفافته^(١)

أما عن ابن حريون الذي دخل كاتباً في خدمة أبي حفص، فقد قال
مهنتاً بالإياب من جبل الفتح، ومدح الأمير يوسف وأخاه الوزير أبا حفص:
بأيمن طائر كـان بالإياب وأنجح مطلب يبلغ الطلاب
دلفتمها لأسود إلى بلاد ثوت حجّجا تعيث بها الذئاب
جمعتم من بني قيس بيوتاً تسل بها المحاني والشباب
ولى العهد أنجحت المساعي بيمينكم أصحاب الصعاب
نصرتهم من أبي حفص أخيكم بماضى الجدد تعرفه الرقاب
وقبلكم إصطفى موسى أخاه فشأنهم لو شأنكم أعجاب
أسيّدنا أبا حفص رضاكم به يرجى لدى الله الثواب^(٢)

وفى ذلك ينص ابن صاحب الصلاة على أن أبا عمر بن حريون قال يمدح
السيد الأعلى أبا حفص، بعد أن استكتبه، ويهنيه (مبالغاً) بزورة كعبة
(قصر) أخيه (يوسف) ويحثه:

حشوا المطى فقد قضت أوطارها وأجدوا إلى باب الأمير قطارها
حتى تزورا كعبة الفضل التي قد أحسنت بركاتها في زوارها

(١) المن بالإمامة، ص ٢٦٠-٢٦١، وعدد الأبيات ٣٦- وقارن ابن عذارى (قسم ٣-
هريش)، ص ٦١-٦٢ حيث نهاية البيت الثالث «وما محت» بدلاً من «سامحت
عطفاته.

(٢) المن بالإمامة، ص ٢٦٢-٢٦٤، وعدد الأبيات ٣٦.

فإذا استلتمت بالسلامة ركنها فأرموا بأخفاف المطى جمارها
بلغت رباط الفتح عوجاً ظُلماً قد كان يستوى السرى أمارها؟
واستقدمت للعرب كل كتيبة شنت بأرض المشركين مُغارها
فكان أرض الملحمدين لباسكم ثكلى تمزق صَدْرُها وجرارها
فتهنئوه دولة «مهدية» رفعت لأبصار العباد منارها. (١)

وهكذا سجل الشعراء الكتاب- إلى جانب ابن صاحب الصلاة- أحداث تلك الفترة من تاريخ الموحدين بالشعر، وأظهروا بوضوح خفايا ذلك الخلاف العائلي الذي أحاط بالأسرة المؤمنية الناشئة، وألقوا الكثير من الأضواء على خبايا ذلك الخلاف بين الإخوة على بداية عهد يوسف، وذلك في الأندلس بخاصة. فكان الأندلس أصبحت مركز الثقل فعلاً في الدولة الموحدية بدءاً من ولاية يوسف، وبذلك تصبح الدولة الموحدية، من ذلك الحين: أندلسية- مغربية أو أسبانية- بربرية (Hispano- Mauresque)، كما يقال في المصطلح الفرنسي. وعن هذا الطريق أصبح الكاتب الموحدي ابن صاحب الصلاة أهم شاهد عيان بالنسبة لتاريخ الفترة، وأصبحت روايته في المن بالإمامة، وهي الموثقة بطبيعة الحال بالرسائل الرسمية، أهم وثيقة تاريخية لتلك الفترة (وفي هذا المقام نشير إلى شعر الكاتب أبي عبد الله الشاطبي، حيث يقول:

لتهنأ أبا يعقوب غبطة أوية بصنوبه وافسته لحين إنتظاره
أميران سلّ الملك سبفيه منهما على ثقة يرجوهما لإنتصاره
بحيث أبو حفص وعثمان بعده تلقاهما للبلش شرحين داره
عميداً سناه بل شهاباً سيادة وملك أبا يعقوب قطب مداره
خلف بيعة الرضوان بيعته التي بها غزى الأتجاد في عقرداره
هو الملك الميمون طائره إنتمى إلى الشرف الأعلى كريم بجاره

(١) المن بالإمامة، ص ٢٦٤-٢٦٥، وعدد الأبيات ٢٦.

له كعبية منكم يطوف بها المنى وحيث منى الإنشاد مرمى جهازه^(١)

والحقيقة أنه إذا كان الوثام قد استقر بين الإخوة فى جبل الفتح، فإن ذلك كان يعنى إمكانية عودة حكومة مراكش الموحدية إلى الاهتمام بشئون الأندلس، التى وقع عبء إقرار الأمور فيها، بل وحمايتها مما كان يهددها من أخطار الإسترداد. وهذا ما وقع فى التوالى واللحظة على طلائع الحلفاء (الأعداء) من المرابطين، من: لمتونة ومسوفة، والعرب الهلالية، من: الرياحيين من قبائل بنى محرز- والعاملين جميعاً تحت رايات الموحدين

موقعة لُكْ (Luque):

والمهم أن المتاعب فى الأندلس كانت تأتى، وقتئذ، من قبل مملكة البرتغال الناشئة فى الغرب، ومن قبل ابن مردنيش وحلفائه من «الروم» فى الشرق، وهكذا كان أول ذكر لعمليات عسكرية بعد رحيل السيد أبى حفص إلى مراكش، كانت تجرى بين الجند العربى (من الهلالية) الذين استقروا فى منطقة أشبيلية. فلقد انتخب منهم القائدان: أبو سعيد بن الحسن، وأبو عبد الله بن يوسف نحواً من ٥٠٠ (خمسمائة) فارس، وتقدما بهم إلى «مدينة بطليوس لحماية صيفيتها» (بواكر زراعاتها الصيفية). وهناك التقوا «بشرذمة كبيرة من النصارى» «أهل شنترين»، وتمكنوا من هزيمتهم، بل واستئصالهم قتلاً وسبياً، فكان ذلك بشير خير بالنسبة للمسلمين.^(٢)

ثم إن أباً سعيد وأباً عبد الله خرجا من أشبيلية بالعسكر الميمون إلى مدينة غرناطة لدفع المحاربين الأشقياء بعداً عن جهاتها، وحماية الحاصلات الصيفية فى منطقتها. فعند خروجهم من قرطبة إلى جهاتها

(١) المن بالإمامة، ص ٢٦٦-٢٦٨، عدد الآيات ٣٢.

(٢) ابن عذارى، قسم ٣ (هوى)، ص ٦٣، وقارن ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(أشبيلية) التقوا مصادفة بعسكر لابن مردنيش، مجتمع بحصن لكّ (Luque)، فكانت بينهم مدافعات وكرات عظيمة، أظهر فيها أبو عبد الله بن يوسف وغيره من أعيان العرب والعسكر من الصبر والدفاع والقراع، ما لم يعرف له نظير إلا في زمان الأبطال الأبرار، ومن ذلك ما وقع بينهم من الصراع على شرب الماء في وادي لكّ، والذي كان الشفوف فيه للموحدين على أهل الحراية المنافقين.^(١)

ومن الواضح أن معركة لكّ لم تكن سهلة بالنسبة لجماعات فرسان العرب وحدهم، دون قطاعات الجيش الرئيسية الأخرى من الرجالة والرماة، اللازمين لاحتلال الأرض والاستحواذ عليها، على عكس جماعات الخيالة التي تشبه قوات الصاعقة. وهذا ما يفسر إستغاثة كل من ابن سعيد يخلف بن الحسين، وأبى عبيد الله بن يوسف، بالسيد الأعلى الوزير أتبى حفص، حيث وصله كتابهما بهذا الشأن، وفي أول رمضان سنة ٥٦٠هـ/ يونية ١١٦٥م، والذي عرفاه فيه «بهيئة حربهم ومدافعتهم في طعنهم وضربهم».

مـ ا ب ن ح ر ا ب ت ج ن م ر د ن د ن ش ف ي الأندلس

وثورة قبائل الريف من صنهاجة وغمارة (مصمودة)

وكان للموقف الصعب في مدافعة ثوار الأندلس، ردّ فعله السريع في نفس السيد أبى حفص. وفي ذلك تقول رواية ابن صاحب الصلاة أنه «غار غيرة عظيمة، وعسكر في يومه، وأمر بالنفير إليه والإسراع بالموحدين من الصابرين، ونخبة الفرسان الأبطال من العرب الرياحيين، والأثبجيين، والزغبين، ورجلهم».^(٢)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٦٩-٢٧٠، ابن عذارى، الموحدون، قسم ٣ (هوشي)، ص ٦٣- حيث الإشارة عند حرب السقيا في لكّ إلى أنها إنتهت بينهم مكافأة (بالتكافؤ): لا غالب ولا مغلوب.

(١) المن بالإمامة، ص ٢٧٠، ابن عذارى (هوشي)، ص ٦٣.

والظاهر أن السيد أبا حفص كان على دراية بحرج الموقف العسكري ليس في الأندلس فحسب، بل وفي العدو المغربية أيضاً. فرواية ابن الأثير جعلت من ثورة مفتاح بن عمر (أو مرزدغ) مستمرة في بلاد غمارة إلى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٦ م، فكأنها استمرت إلى ثورة سبع بن منغفاد. هذا، بينما يجعل عيد الواحد المراكشي في معجبه، سبع بن منغفاد: الثائر بعد مرزدغ، أخاً لهذا الأخير، فكأن ثورته عاصرت سنة ٥٦٠ هـ/١١٦٥ م التالية، وكأنها استمرت إلى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٦ م التي بعدها، الأمر الذي يبرر سرعة خروج السيد أبي حفص على رأس القوات الموحدية، وبصحبه أخيه السيد/ أبي سعيد عثمان في نفس شهر رمضان (إن لم يكن في العشر الأول منه، كما تقول الرواية).

مسار الحملة وفتح أندوجر (Andujar):

والمهم هنا هو أن مسيرة الحملة كانت من السرعة بحيث لا توجد إشارة إلى محطات مسارها. فابن صاحب الصلاة يكتفي بالقول أن السيد أبا حفص «أزعج السير حتى أجاز البحر- أى دون توقف في بلاد غمارة أو في غيرها، الأمر الذي يعنى أنها لم تكن ثائرة في ذلك الوقت- ووصل إلى مدينة أشبيلية... واجتمع بالموحدين المذكورين بها». وبعد التشاور في الأمر، خرجوا في أول ذي القعدة سنة ٥٦٠ هـ/٢ نوفمبر ١١٦٥ م، من أشبيلية قاصدين بلاد ابن مردنيش.

وكانت الخطة الحربية ترمى إلى تحرير منطقة قرطبة من إعتداءات الأعداء، وتمثل ذلك في مهاجمة مدينة أندوجر في مقاطعة جيان والتي كانت بمثابة شوكة في حلق قرطبة التي كانت مشتركة معها في «تربها، وسائطها ومحارثها»، ومن حيث كان المرور على قنطرة عالية بسبب إرتفاع ضفتي الوادي الكبير هناك. ومن المهم أنه لا ذكر لمقاومة من قبل حامية أندوجر أو أهلها، الأمر الذي ترتب عليه أنهم «فتحوها في يوم نزولهم، عنوة» فكان على أهل الحصون المجاورة أن يدينوا بالطاعة

للموحدين، الذين خرجوا من المنطقة «بالكثير من الفئ والسبي»، الذي كان لهم منه النصيب الوافر، تشجيعاً لهم على مواصلة الجهاد وحسن الاستعداد. (١)

حرب ابن مردنیش: مقدمات موقعة الجلاب :

وهكذا كان فتح أندوچر (شمال شرق قرطبة) الذي حقق الأمن لمنطقة قرطبة تمهيداً جيداً لمواجهة ابن مردنیش في عقر داره من شرق الأندلس. واستعد الشائر الأندلسي العتيد لمواجهة الإغصار الموحدى الوافد من مراكش، فحشد حسب رواية ابن صاحب الصلاة، جميع أهل شرق الأندلس، وكل جنده النظامى إلى جانب شيعته من الأحرار والموالى، كما إستدعى «أحلافه النصارى من طليطلة وأنظارها، كما استعان بأهل الحراية من العصاة والجناة». وعندما احتشد جمعه الكبير هذا، والذي يوصف بالذميم، وبأنه من أنصار الشيطان، خرج بهم من مرسية، ونفذ بهم لاعتراض المسلمين (الموحدين) الذين كانوا قد وصلوا إلى حيز مدينة لورقة (Lurcu)، جنوب غرب مرسية، وأقبل بجمعه النهم فى منطقة وعرة، وسدّ عليهم الطريق. وهنا اضطر الموحدون إلى العدول عن ذلك

(١) المن بالإمامة، ص ٢٧١، وقارن ابن عذارى (هويش)، ص ٦٣- حيث النص منقيباً أيضاً على فضل السيد أبى حفص فى هذا النصر الذى لم يسبقه لمثله منذ قديم العمر، «فإنه نهض بنية لله صافية، وعساكر النص ضافية، وأجناد من الله معه متلاقية...» فكأنه: منصور عامرى جديد! وعن فتح أندوچر انظر رسالة السيدين عمرو عثمان فى من ابن صاحب الصلاة والمواجهة إلى الأمير يوسف عن الحملة- ص ٢٧٦-٢٧٧ حيث القول أن الرسالة وصلت من الأندلس إلى مراكش فى ١٦ ستة عشر يوماً، فكأنها تعبر عن نظام البريد السريع الذى عرفته الدولة الموحدية، الأمر الذى يذكر ببريد الأمبراطورية الرومانية السريع بفضل طرقها المبلطة وعرياتها السريعة الحركة. أما عن الرسالة فقد دخل بها الفرسان الراصلون باليشرى، وبأيديهم علامات بن مردنیش ومن ثم أمر الأمير يعقوب إدخال الطلبة والناس، وقرأ الكتاب الفقيه أبو محمد المالقى ثم قرئ بعد ذلك فى الجامع على كافة الناس. ومن المهم فى تلك الرسالة ما تشير إليه من المقارنة بين فتح «أندوچر وما لازمه من توحيد الحصون القريبة، بيوم «ذى قار» إذ إنتصف فيه الموحدون والعرب من العجم.

المضيق، والنزول بفحص (بسهل) «الفندون» فى أوسع طريق، وأتوا لورقة من غربها. (١)

وأمام حصانة موقع ابن مردنیش رأى أبو حفص أن يقلع من منزله الصعب هذا، نحو مرسية، وبالتالي أقلع ابن مردنیش، وسار الجيشان الواحد بحداء الآخر، والموحدون أيمن الجبل وابن مردنیش على يسار الطريق فى الجبل الآخر طول يومهم هذا. وفى اليوم التالى وهو الجمعة ٧ من ذى الحجة من العام ٥٦٠هـ / ١٥ أكتوبر ١١٦٥م، وصلوا قرب زوال الشمس إلى الموضع المعروف لعامة القواد، بفحص الجلاب، على مسافة ١٠ (عشرة) أميال من مرسية. (٢)

فتح الفتوح: انتصار فحص الجلاب بمعركة صلاة الجمعة

ووقف العسكران كل أمام الآخر فى فحص الجلاب فعسكر ابن مردنیش فى موقف استعداد للهجوم، والموحدون فى خطة قتالهم المعهودة:

(١) المن بالإمامة، الرسالة الرسمية، ص ٢٧٩، وقارن المن بالإمامة (الرسالة الرسمية)، ص ٢٧٧-٢٧٩ حيث التوغل فى أرجاء البلاد الشرقية، التجاء الأتقياء بها كالثعالب، وعدم قتال أهل تلك الحصون إحتكاراً لهم، بينما سعد الموحدون بأطابيها من سائر الأطعمة والفاكهة. وفى بسطة جنوب غرب لورقة توقفت الحملة الموحدية لبضعة أيام إنتظاراً للمعونة الوافدة إليها من غرناطة. ومن: العسكر والرماة والحشد. وفى تلك الأثناء، لم يركن أفراد الحملة إلى الهدوء وفى تلك الجهات، بل إذ سار الموحدون والعرب بشن الغارة يميناً ويساراً، وهم يستاقون المغانم من بسائط حصون: غليرة وقرتابقة وبسطة وجبال شقورة، من: الأعداد الكبيرة من الدواب، وآلاف الأغنام.

وعندما وصل العسكر المنتظر من غرناطة وسعت الحملة دائرة نشاطها، حيث كان حصار حصن قلبة الذى أنزل أهله على الطاعة والتوحيد، كما وطأ الموحدون جهة بلش العامرة بالحصون حيث استاء من أصحابها. وفى تلك الأثناء إنقلب أهل مرسية على ابن مردنیش، فهيرع إلى الخروج منها إلى «لورقة زانغاً عليها، بعد أن إستوثق من خروج أهلها عليه وشيوخها كما تقول الرواية التى توضح أيضاً أن الموقع الوعر كان يمكن ابن مردنیش من قطع طريق مرسية أمام الموحدين.

(٢) المن بالإمامة، ص ٢٧٢-٢٧٣، الرسالة الموحدية، ص ٢٨١ حيث توقيت المعركة: صلاة الجمعة.

قد «عبأوا عساكرهم ورفعوا راياتهم، وتصففوا صفوفاً، وقمّزوا أجناساً وصنوفاً»، كل قبيل فى موضعه، من: أهل هرغة، وأهل تينمل، وهنتاتة، وجدميوه (كدميوى، قدميوه)، وجنفيسة، وجميع القبائل على مراتبهم. أما عن قبائل العرب الهلاليين، فقد اجتمع منهم الرياحيون والجشميون والزغبسيون، ومعهم «عبيد الأمر العالى» المرتسمون (أى النظاميون المسجلون فى الديوان: ديوان الجند).

واستعد المعسكر الموحدى بجناحيه المغربى والعربى للقاء، وتعاهدوا على الثبات والصبر فى دفاع الأعداء. وبدأ ابن مردنيس الهجوم بعسكره فدفع فيهم بأصحابه النصارى أولاً: ٣ (ثلاث) دفعات: دفعة أولى فى العرب، ودفعتين إثنين بعدها فى الموحدين، وثبت الموحدون، واشتد القتال، وثار الغبار حتى أظلم النهار، وهنا: تماشت الركب بالركب، وعظم الطعن بالرماح المداعس، والضرب بسيف القصب المشارف: المحربة عند العرب.^(١)

وهكذا انتهى القتال بانتصار الموحدين، وفرار الأعداء الذين قتلوا قتلاً ذريعاً، وفرّ ابن مردنيس مهزوماً إلى جبل قريب من أرض المعركة، حيث: «ضرب فيه قبّة خباء على معنى خدعة الحرب، أقام فيه مع فله المهزوم، ساعة من بقية اليوم إلى أن ستره الليل، وركب فى حينه، وفرّ إلى مرسية، وأنحجز فيها مهزوماً.^(٢)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٧٤، وانظر الرسالة الرسمية، ص ٢٨٠-٢٨١ حيث النص على أن الموحدين أخذوا الثنايا التى تحول بينهم (فى الجبل) وبين مدينة مرسية، وحيث تردد بسفح الجبل ٨٠٠٠ فارس أرغونى ضربوا أخبية فى الجبل... لإيواء الفلّ، وحيث صمود الغرب وثبات الموحدين وهزيمة الكفرة ثم النزول بفناء مرسية واحتلال البلد، والتعبيد بها، وانظر روض القرطاس، ص ٢١٠ عن وقعة الجلاب.

(١) ابن صاحب الصلاة المن بالإمامة، ص ٢٧٢-٢٧٤، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هريشى)، ص ٦٣-٦٤، وانظر الرسالة الرسمية التى يعرضها ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ٢٧٥- حيث تفاؤل ابن صاحب الصلاة بالانتصار عندما رأى فوق سطح القصر الأمير قطا بفترس فرخ حمام، ص ٢٧٧- حيث التذكير بالرسالة =

ويعد أن نفل الله من خيلهم ومطاياهم وأدراعهم وسائر أسلحتهم...
وسلب قتلاهم من ملابسهم بكل واد ومسيل، بادر الموحدون في غدهم
على مهلهم إلى فناء مرسية فضربوا بساحتها المضارب والأبنية بإزاء
حدائقها المعروشة... ونقرت الطبول تصكّ أسماعهم... واحتل البلد...
وانبسط أتباع الموحدين على تلك الحدائق محصلين لأنواع الفواكه..

وأقام الموحدون للتعبيد: عيد الأضحى بمحلتهم بظاهر مرسية وكتبوا
إلى الأمير بمراكش بهذه البشارة العظمى وذلك في العشر الوسط من ذي
الحجة ٥٦٠هـ / العشر الوسط من أكتوبر ١١٦٥م.^(١)

ومن المهم الإشارة إلى أن الرسالة تشير في نهايتها إلى أن هذا لنصر
«هو فتح الأندلس» وإذلال لعدوها المتمرد، مُسلّط الروم على أهل
الإسلام، وأنه بُهِت محصوراً، ودهش مذموماً مدحوراً، ولم ينس السيد
الأعلى أن يبعث مع الرسالة مدرجاً فيها قصيدة شعر تعبر عن واقع الحال،
ومنها:

لقبلت جيادكم مداها ونالت ما أرادت من عداها
تهيم بحب طاعتكم فتطوى بساط القفر حتى قد طواها
ولقد شئت بأرض الشرق حتى أباحت بعد منعتها حماها
فإن ينسج اللعين لغير منجى لقد فغرت شعوب عليه فاها
أبايعقوب إن بنا إليك كما الحائمات يرى صداها^(٢)

= الخاصة بفتح «أندوچر»، وحيث تسمية انتصار مرسية بـ «فتح الفتوح» إقتباساً
من أبي تمام الذي يقول في فتح عمورية:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب

هذا إلى جانب وصف ذلك النصر بيوم «ذى قار»، (ص ١٩ وهـ ٢٠) مما سبقت الإشارة
إليه.

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٨٢.

(٢) عدد الأبيات ١٨، انظر ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٨٢-٢٨٥، وقارن
إبن عذارى، قسم ٣ (هويش)، ص ٦٥ حيث النص على أن الكتاب من إنشاء إبن
عباش، «وقد ذكر نصه إبن صاحب الصلاة في تاريخه، وأغنى ذلك عن ذكره هنا»،
وإن ذكر البيتين ٣١ وما ذكرناه هنا.

وهكذا، ومع نهاية ٥٦٠ هـ واستهلال سنة ٥٦١ هـ (نوفمبر ١١٦٥ م) كان السيدان أبو حفص وأبو سعيد يغادران البلاد المفتوحة بشرق الأندلس، وقد تركا بها من الموحدين والأمناء من يثقها ويضبطها لحساب حكومة مراکش الموحدية. ولما وصلا إلى قرطبة أقام السيد أبو سعيد فيها على حالته الأولى بالأمر الأميري، بينما انفصل أبو حفص إلى أشبيلية، منصرفاً إلى الحضرة (مراكش)، «وهو يجرّ الدنيا خلفه جرّاً» حسب تعبير ابن صاحب الصلاة، وأجاز البحر مستعجلاً من سلا إلى مكول (مكون حالياً) ومن هناك سار بريده السريع يسبقه متشوقاً لأخيه الأمير (يعقوب)، وذلك بشعر من إنشاء ابن حريون، يقول فيه:

علّو العيش يا قتراب الديار وانظروا هل بدا لها من منار
هذه كعبته العتيق فاهلّوا وأقرنوا بين حجة واعتمار^(١)

استقبال السيد الأعلى أبي حفص في مراکش استقبال كبار الفاتحين

وكان وصول السيد أبي حفص - الذي كان يجرّ الدنيا خلفه جرّاً - يوم عيد رسمي وشعبي في الحضرة المراكشية. فلقد خرج الأمير أبو يعقوب يوسف بنفسه للقاء أخيه «الوزير الخطير» بعد: «أن كتّبت الكتاب، وكسى العبيد بالثياب المصبغة بالألوان، وصفف الفرسان الكمل المدرعين من الموحدين وغيرهم، ومن الرجال بالدرق والرماح صفوفاً، كما جعل الرايات والعلامات خلف ركابه، والطبالين مع خاصة أصحابه، وهو ووزيره (الكاتب) أبو العلاء إدريس بن جامع راجلاً لصق ركابه... وعلى عاتق (١) عدد الأبيات ٢٦ - انظر ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٨٦-٢٨٧، وقارن ابن غذارى، هوishi (الموحدون)، ص ٦٦ - حيث وضع تعييد السيدين بظاهر مرسية، ثم إنعطافهما آخذين في الإنصراف إلى «الحضرة»، وإقامة السيد أبي سعيد في قرطبة وإنصراف السيد أبي حفص إلى «الحضرة» في سنة ١١٦٦/٥٦١ م - وفي النهاية يكون وصول أبي حفص إلى مراكش في ١٢ ربيع الثاني سنة ٥٦١ هـ / ١٦ فبراير ١١٦٦ م.

الأمير رمح طويل قد غشى سنامه...»
والتقى بأخيه السيد الأعلى المنصور المذكور في البراح في باب
الشرية.
ووقف العسكر مع السيد القادم أبى حفص بإزاء الشريعة (مصلى
العيد).

ووقف عسكر الإمام معه في أول البراح المذكور.
وتجاوزت الخيل من فرسان العسكر بالجري واللعب والدفاع بالحملة
والكرات.

والطبول تضرب من ضحوة النهار إلى أذان الظهر من اليوم المذكور.
حتى حمل الأمير بنفسه في تلك الدفعات سروراً، وأظهر من ركوبه
وفروسيته أمراً عجباً.

ثم كان نزول الأمير عن فرسه، ونزول السيد الواصل، والتقىا وتصافحا
وسلما، ثم كان سلام الناس الواصلين.

وبعد صلاة العصر كان دخول السيد أبى حفص وحاشيته إلى القصر
العتيق المعروف بدار الحجر، حيث كان الاجتماع بالأمير يوسف في «أعظم
بروز وأحفل تمييز».

وفي اليوم الثانى صنع للموحدين والعرب ولجميع المقيمين من جميع
الأصناف: الأطعمة الدارة، و«الأشربة الحلال». واستمرت الضيافة مدة
١٥ (خمس عشرة) يوماً. كانت عيداً عظيماً نعم فيه الضيوف، إلى جانب
الأطعمة والأشربة الفاخرة على نقر الطبول، بالهدايا من: الأكسية التامة
بالعمائم والغفائر والبرانس والقباطى، كما أدررت عليهم البركات من
الدنانير، حسب طبقاتهم، من: كبار الأشياخ من الموحدين والعرب (١٠٠
دينار)، أو فرسان العساكر (٢٠ دينار).

وانتهى ذلك «الفرح» الملكى السعيد- بعد الـ ١٥ (خمس عشرة) يوماً
الحافلة- بعودة الغازين إلى قبائلهم للإستقرار.

والمهم فى النهاية هو تتويج الفرخ الكبير بالهدنة بين الدولة الموحدية وابن مردنيش- الذى دخل فى الطاعة- طالت إلى خمس سنوات (إلى ٥٦٦هـ/١١٧١م).^(١)

إضطراب العدو الغمارية مع نهاية ثورة ابن مردنيش سُبُع بن منخفاد: ثائر جبل الكواكب

لم يكن من الغريب أن تنتفض بلاد غمارة القلقة، نتيجة طبيعية لا تنفاضة العدو الأندلسية المقابلة فى بلاد الشرق.^(٢) وواضح مما سبق أن الثورة فى بلاد غمارة كانت شبه مستمرة منذ سنة ٥٥٩هـ/١١٦٥م إلى سنة ٥٦١هـ/١١٦٧م. وثائر غمارة الثانى بعد: مزيردغ (مفتاح أو مَرَزْدَغ)، وهو: سُبُع بن منخفاد (أو منغفاد) الذى ربما كان أخاً أو قريباً لمزيردغ الثائر الأول فى أواخر سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م (مما حيق). كما كان لسبع أخ هو عمر بن منخفاد (مما يأتى) فكأن الأمر يتعلق بأسرة (أو أسر) ملكية محلية فى جبال الريف فى بلاد الشرق من المغرب الأقصى، أشبه ما تكون بالأسرة الثائرة أبدأ، فى قبائل برغواطة فى تامسنا من بلاد الغرب من المغرب الأقصى التى يصفها البعض بملكمة برغواطة.^(٣)

وهكذا لا يكاد ابن صاحب الصلاة ينتهى من ثورة ابن مردنيش فى مرسية حتى يردف فى ذلك ببقية أحداث تلك السنة (٥٦٠هـ/١١٦٥م) أو

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٩٢؛ وانظر ابن عذارى، قسم ٣ (هوشى)، ص ٦٧.

(٢) المعروف عن جبل غمارة، فى تلك العصور، تتابع نفاقه على المثلثين. كما عرف بأنه من أخصب بلاد المغرب، وأن قبائله أُمم لا تحصى. فطوله ٦ أيام وعرضه نحو ٣ أيام. وفيه جبال قد لحقت بأعنان السماء علواً، وحصون كثيرة تمتنع فيها غمارة على الولاة، وبذلك عرفوا حتى كسر الأمر العزيز (خليفة الموحدين) شوكتهم، وأباد شرارهم، واستأصل شأفتهم، هذا، كما كان لأهل هذا الجبل مذاهب شتى وسير مختلفة فانظر كتاب الإستبصار، تحقيق المؤلف، ص ١٩٠-١٩١.

(٣) عن برغواطة انظر ج ٤ ص ٢١٨ وما بعدها، وعن الاتجاهات الانفصالية فى غمارة منذ بداية فتح المغرب انظر ج ١ ص ٢٩٨.

التي تليها، وذلك فى جبل صنهاجة (غمارة) الذين توقفوا عن الطاعة وكذلك من جاورهم (من قبائل الريف).^(١)

ولما كان الأمير أبو يعقوب يوسف قد سَير لقتال الشوار الغماريين الشيخ أبا حفص (أنيتما والهناتى) لما عرف من «عزم وفائه، وصحة إخوانه»، على رأس «عسكر من الموحدين، أنجدهم الله لقتالهم ونزالهم»، وفى موضع آخر من أخبار سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م، والمجمعة فيما يشبه الذيل لأخبار تلك السنة، تأخذ الرواية التي يقصها ابن صاحب الصلاة على لسان رئيس المريدن السابق: أبى محمد سيد رأي بن وزير، عن ثورة غمارة، شكلاً منقبياً بالنسبة للأمير أبى يعقوب يوسف، إذ تقول: أنه عندما توقفت صنهاجة (غمارة) ومن جاورهم عن الطاعة، وأنه قيل له (الأمير يوسف الورع): «أدع الله عليهم»، فتوقف ثم قال: «الله تعالى يهديهم، ويصرفهم عن تعديهم، فما كان إلا قليل من الأيام، ووصلت البشري بهزيمة ابن مردنيش، واتصل خبر البشري بالفتح فى الجبال، ووجهوا فى الحين بالتوبة راغبين ضارعين».

وهنا، نرى أنه لما كان الأمر يتعلق بحملة الشيخ أبى حفص وبأحداث سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م، يكون من الواضح أن المقصود بتلك الحملة ثورة مفتاح صنهاجة أو مرزدغ (كما سبق) وهذا ما تؤكد الرواية عندما تنتهى بالقول «وانصرف الشيخ المرحوم أبو حفص، وهم (غمارة) فى طوعه وتبعه بإسم النجح، واتصل الفتح (فتح ابن مردنيش) بالفتح (فتح غمارة)، وأنشد الشعراء الحاضرون بالحضرة فى وصول الفتح البعيد (الأندلس) والقريب (الغمارى).^(٢)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٨٥-٢٨٦ حيث إضطراب فى تلك الوراقات التي تحوى موضوعات متنوعة إلى جانب إنتفاضات غمارة، من: أعمال البر ونشر العدل وجمع الزكاة، الأمور التي تسجل دون عناية بتحديد تواريخها.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٨٥-٢٨٦.

تقييم الثورة المنخفاذية:

وهكذا تستمر ثورة غُمارة أو دولتها الانفصالية (سياسياً وثقافياً) بعد سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م، ممثلة في حركة سُبُع بن منخفاذ بصفتها نائراً جبال قمم الثلج وسمت الكواكب. وإذا كانت رواية ابن أبي زرع تكتفى بتحديد زمن الثورة بسنة ٥٦١ هـ / ٧-١١٦٦ م، ومكانها بجبل تيزران (أعلى جبل بقبيلة غُمارة^(١))، فإن المصدر الأول لتاريخ تلك الثورة هو ابن صاحب الصلاة الذي يدعم روايته التاريخية المفصلة - نسبياً - ببعض الرسائل الرسمية الخاصة بتلك الثورة. فصاحب المن بالإمامة يجعل ثورة سُبُع بن منغفاذ في سنة ٥٦٢ هـ / ٧-١١٦٦ م من حيث أنه يبدأ من تلك السنة محاولة السير على نهج الطبري في سرده الحولى للأحداث، ويصف حركة سُبُع بأنها فتنة ضلال من قبل بربر جهال مفسدين، فالثائر شق عصا الطاعة، وفارق الجماعة، وهو قاطع الطريق الذي يسبى الرفاق (التجار)، ويدخل الرعب في قلوب الناس القاطنين بقصر كتامة المعروف بقصر مصودة (القصر الكبير حالياً) - فكانها شوكة في حلق المجاز.

والمهم أن الحركة التي كانت تهدد المضيق إنتهت بالامتناع في جبل الكواكب الشاهق الإرتفاع والمسامت للسحاب.^(٢)

وأمام استشرَاء الثورة وخطورتها بالنسبة للمجاز في منطقة سبتة، إتفق الرأي في الحضرة مراکش على اتخاذ الإجراءات اللازمة لقمع الثورة، بتجهيز العساكر من الموحدين إلى بلاد صنهاجة في منطقة القلعة (قلعة مهدى بن توالى)، وتم إسناد قيادة الحملة إلى الشيخ أبى سعيد يخلف بن الحسين.

(١) روض القرطاس، ص ٢١٠.

(٢) المن بالإمامة، ص ٣٠٧-٣٠٨، وقارن ابن عذارى، قسم ٣ (هوى) ص ٦٩- حيث النص على أن الفتنة تحركت في جبال غُمارة وغيرها، بمعنى أنها كانت ثورة عارمة، وهو يصف ابن منغفاذ في منطقة سبتة بأنه كان أعظم الشوار، والمصدر هو ابن صاحب الصلاة - حيث إختصار الرواية بالإكتفاء بالمفيد منها.

وإذا كانت الحملة الأولى التى قام بها الشيخ أبو حفص (الهناتى) قد انتهت بالقضاء على مفتاح الصنهاجى أو مرزوع. فالظاهر أن حملة الشيخ أبى سعيد بخلف لم تحقق ما كان يرجى منها، إن لم تكن قد انتهت بالفشل. فهذا ما يظهر فى المرور عليها «مرور الكرام»، دون إشارة إلى إنجازات إيجابية أو سلبية، إكتفاء بالنص على أن الأمر تطلب المسير من الأمير أبى يعقوب بنفسه إلى سُبُع بن منخفاد، وكان خروجه بطبيعة الحال بصحبة أخيه السيد الأعلى أبى حفص (الوزير الخطير)، كما تطلب الأمر استدعاء الأخ الثالث أبى سعيد صاحب قرطبة للمشاركة فى الحملة، الأمر الذى يعنى خطورة الفتنة فعلاً، من حيث تهديدها الخطير لطريق المجاز بين العدوتين. بمعنى أن الأمر كان يتطلب العمل المشترك بين القطرين من ناحية، والظهور بتماسك كبار المسئولين من الأخوة أفراد الأسرة المؤمنة الحاكمة، من: «الأمير ولى العهد» (يعقوب)، ومساعديه (ولا نقول مساعديه): السيد الأعلى (الوزير) أبى حفص، وأمير قرطبة (أبى سعيد)، من ناحية أخرى.

هذا، وخرج الثالث الأميرى برئاسة أبى يعقوب يوسف على رأس الموحدين مباشرة إلى جبال غمارة لمنازلة سُبُع بن منخفاد حيث «تمت الإحاطة بالأعداء فى ذراها»، مع النص على: سبيهم، وإستئصالهم، وإجلائهم عن جبالهم، وعلى الجملة: وغزوهم غزواً شافياً- دون تفصيلات شافية، إذ يكتفى بقتل الشقى مع القول: «واتصل لهم وبهم (الموحدون) الفتح فى جبال صنهاجة بالطوع من أهلها والمثاب»^(١).

أما عن الرسالة التى أمر الأمير يعقوب بمخاطبة جميع الموحدين والطلبة والأشباخ بها فى كل من بلاد العدو والأندلس، عن «كيفية الغزوة والفتح الشامل»، فهى من كتابة ابن عياش، من «منزل الموحدين

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٠٩، وقارن ابن عذارى (هوى)، ص ٢٧٠

وانظر ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٩ .

بداخل جبل الكواكب». وهى تنص على أن هدف الحملة هو: «حسم الأدواء النازلة بهذا المغرب، فى هذه الفرق التى فارقت الجماعة، فتفرقت بها السبل والأهواء... فظلت على عدم الفهم: كسائمة البُهْم»^(١).

والمهم أنه بعد نزول أبى يعقوب يوسف وسط بلادهم، وإجلاء من كانوا بالأوعار وقتن الجبال والشعاب، وبعد الدعوة إلى الإذعان كان قصد معقل الثائر الصعب المنال فى جبل «بوتلة»، حيث الثلج ودخان البركان، والذي تم إقتحامه دفعة واحدة، ومن ثم إعلان التوحيد على شواهقه، مع «جمع الأنفال وضم المغانم والأموال». وينص الكتاب على بقاء الموحدين فى الجبل مدة يومين، إعتباراً من ٣ رمضان سنة ٥٦٢هـ/ ٢٣ يوليه ١١٧٠م. تقرر بعدها توقف الأعمال الحربية إلى ما بعد عيد الفطر، على أن يكون إستئنافها «على قوة وفرة ونشاط متمكن». وفى أثناء ذلك كانت قبائل منهم تظهر المثاب... «وتلوز بأكتاف العفو...»، فتقابل بالتشجيع.

هذا عن القبائل المنتشرة فى الجبال بعامه، أما عن قائد الثورة سُبَّع بن منخفاد فهو ينتسب إلى قبائل بنى أنال وهم المختصون بملكة جبل الكواكب أشهر الجبال منعة، وكانوا قد «إستحكم فيهم الفساد، وتمكن منهم الارتداد». ومع ذلك فعندما تحققوا من دنونا إليهم... «أقبلوا يخلطون الكدر بالصفو... ويرفعون أسباب المراوغة ليحوزوا بها مأمولهم من الاستبداد»، الأمر الذى لا يجوز على أهل العصمة.

وتفيد تلك الرسالة بخبر إنفرد به ابن صاحب الصلاة- كما لاحظ د. عبد الهادى التازى- وهو: أنه كان لسُبَّع بن منخفاد أخ إسمه عمران أظهر للموحدين أنه يرغب فى التوحيد والطاعة، مناورة منه لا أساس لها من الصحة، وذلك أنه لم يحضر إجتماع عيد الفطر، وذلك فى الفترة التى

(١) المن بالإمامة، ص ٣١١-٣١٢- حيث الإشارة إلى الحملتين السابقتين بقيادة كل من الشيخ أبى حفص والشيخ أبى سعيد يخلف، ومن ثم العودة إلى الحملة الأميرية- فكان أحداث جبال غمارة مترابطة فى سلسلة متواصلة من الأحداث بتواصل الزمن أو التاريخ.

أعلن الموحدون فيها الهدنة توطئة للسلم والمصالحة.^(١)

وهكذا كان على الأمير يعقوب أن يوجه أخويه أبا حفص وأبا سعيد لغزوهم في جبلهم الشاهق. فساروا إليهم في اليوم الخامس من شوال/ عبر مسالك حرجة، من: الغياض والأحراش الملتفة الأشجار في السفح بينما اعتصم الثوار في عاليه... «ساذين لانتقابه، معولين على الإنقضا ض من علاه». والأمر المستغرب أن الله أمدّ الموحدين «بروح من عنده»... «فصارت الخيل فيها أنفذ من الرجل، بل من الطير، فأصبحوا قلاتد في أجيادها، وأطواقاً في أجسادها. وأخذهم الله أخذاً تنوع فيه العذاب، فمن مضرج بدمه، ومرتد في منزلة قدمه، وفار إلى حيث لا معتصم ولا ملجأ».

واستولى الموحدون على الجبل كله، وضربت به خيامهم، واقتفوا أثر الفارين، وأخذوا منهم الأموال والحريم.^(٢)

وفي اليوم التالي أخذ الموحدون متابعة التفتيش عن بقايا المهزومين في «زواياهم والتنقيب عن خباياهم، فكان الجبل خلا من أهله، وأضحى يباباً بلقعا»، «قد خلت من الظالمين ربوعه، وهم مقدموا غمارة ومستتبعوها. وعن قائدهم سُبْع بن منخفاد فقد فرّ بفِرسه ناجياً من ذلك المأزق بنفسه، بعد أن استبيح أهله وماله. والمهم أن الباقيين في الجبل «رغبوا في الإقالة وأعلنوا التوبة... وفتح لهم هذا الباب» فكان ذلك مدخلاً لأن وثب على سُبْع بطانته ممن آووه واستوثقوا منه، ووصلوا به مشهراً بفضيحته.

وبذلك كمل الفتح، وأحصيت المغانم، فكانت: ١٢,٠٠٠ بقرة، ٢٧,٣٠٠ من الغنم، ومن السبي ٣٦٤٧، أما الدواب فكان عددها ٦١٧. وسجل كل ذلك في الرسالة الرسمية المكتوبة في ١٤ شوال ٥٦٢ هـ/

(١) المن بالإمامة، ص ٣١٥-٣١٧.

(٢) المن بالإمامة، ص ٣١٧-٣١٨.

أغسطس ١١٦٧م^(١)، وبعد تهديدين جبل غمارة، عهد الأمير يوسف بولاية سبتة وسائر بلادهم إلى أخيه السيد أبي على الحسن.^(٢) فكانه صاحب المجاز.

منازلة حصن لبسة بمنطقة غرناطة:

وفى الوقت الذى كان الأمير يوسف وأخواه يقومون بتهديدن بلاد الريف فى منطقتى سبتة وجبل الكواكب، كان والى غرناطة الحافظ الشيخ أبو عبد الله بن أبى إبراهيم، يحقق عملاً مشابهاً بالقضاء على إذابة الروم من بقايا حلفاء ابن مرنديش فى حصن لبسة المتوسط ما بين غرناطة ووادى آش، والذى صار وكأنه شوكة فى حلقه. وهكذا: عزم الشيخ أبو عبد الله عزيمة، وطرق بعسكر غرناطة ورجالها ذلك الحصن، وفتح غلبة على النصرارى الطاغين، فى يومه... وهدمه، وخرّبه فى ساعة من زمانه... وانصرف إلى غرناطة مجاهداً.^(٣)

وكتب الشيخ أبو عبد الله إلى الأمير يوسف يعرفه بجهاده هذا، فرد عليه بالرسالة التى يسجلها ابن صاحب الصلاة، بعد عودته من جبال غمارة إلى مراكش، وهى بتاريخ ٩ من ذى الحجة ٥٦٢هـ/ ٣١ يولييه ١١٦٧م وملخص تلك الرسالة هو حمد الأمير لوالى غرناطة استبشاره بما من الله من الفتح والنصر (فى غمارة). وفى غزو المجسمين واستنقاذ ما كانوا

(١) المن بالإمامة، ص ٣١٩-٣٢١، وقارن الرسالة التى كتبها السيد الأعلى أبو حفص عن نفسه بهذا الفتح إلى الشيخ الحافظ الأجل (المرحوم) أبى عبد الله بن الشيخ أبى إبراهيم، وفيها الدعاء للأمير يوسف بصفته الأمير الأجل ولي عهد أمير المؤمنين عبد المؤمن، ويصفه أيضاً الملك الأسعد. وفى الموضوع فإن الله يسر للموحدين هذه الجبال الصعبة، والمعاقل الأشعبة... وأن الموحدين مازالوا يستنزلونهم من حصونهم ويستخرجونهم من شعابهم... وأن رأس غوايتهم وعميد ضلالتهم سُبَّحَ بن متخفاد، الشقى مرار قومه...، والذى جئ به أسيراً موثقاً، فغزى فيه ورفع خداعه، وعفى أثره، وهى نعمة عظى وفتح عظيم- وتاريخه ١٤ شوال ٥٦٢هـ/ ٥ أغسطس ١١٦٧م.

(٢) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٩.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٢٣-٣٢٤.

غنموه مع التأكيد على ما ذكره الشيخ أبو عبد الله من اختلال أمر
المجسمين الشرقيين وتبدد شملهم... والله ينجز فيهم وعده لا رب
غيره. (١)

أما عن انتصارات جبل الكواكب في غمارة فقد تغنى بها أبو عمر بن
حريون، في قصيدة حسنة يمدح فيها الأمير يوسف، ويهنيه بالإستيلاء على
أعدائه، وقتله لهم، ومنها:

بلغت بكم حُجج الكتاب المنزل ونصرتم نصر النبی المرسل
لما أتى الجبل المقدس منكم حرّت لسطوته رواسى الأجل
فرقيتم منها مراقى لم تكدرقى بها قدم الصبا والشمال
ووطأتم جبل الكواكب ووطأة هُدّت لصعقتها مناكبُ يذبل
فتبرأت تلك المعازل منهم والعقل لورزقوه لأمنع معقل
وغار غويهم برأس منيفّة يهوى إلى درك الجحيم الأسفل
جاءوا به باب الرواق يقاد من بُرد الهوان مقادة المسترذل
نور أضأ بمغرب يوم شرق لم تعم عنه غير عين مضلل
إن الخليفة إن تأخر عصره فقد احتوى خلق الزمان الأول
شرح الزمان ودولة قد أقبلت يا حسنه من مقبل في مقبل
هنئت مولانا أبا يعقوب بما خولت من فتح أغرّ مُحجّل
قد جاءت الدنيا إليك بوقرها واستقبلتك بوجهها المتهلل (٢)

تهديد الأندلس الشرقية وجبال غمارة العدوية

أول تأكيدات لامارة يوسف التجريبية

وهكذا، كان انتصار جبل غمارة على الخوارج المرتدين هناك من قبائل
صنهاجة، وغمارة (مصمودة) موضوع الاحتفالات الرسمية والشعبية، كما

(١) المن بالإمامة، ص ٣٢٤-٣٢٥.

(٢) الأصل ٤١ بيتاً- أنظر ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٢٥-٣٢٦.

كان الحال بالنسبة لاحتفالات جبل الفتح، على عهد عبد المؤمن، والتي كانت تكرّس فتح الأندلس، أو بالأحرى إنضمامه للدولة الموحدية، بصفته عدّوتها الشمالية. وهذا ما يفسر كيف كان النصر الموحدى فى غمارة مناسبة أحيائها شعراء البلاد فى مراكش، وعلى رأسهم أبو عمر بن حرون الشلبى.

فإلى جانب اللامية السابقة عن حرب جبل الكواكب، جادت قريحة ابن حرون بقصائد أخرى تخلّد جهاد الموحدين فى تهدين جبال غمارة، وإدخال قبائلها الثائرة فى طاعة الأمير أبى يعقوب يوسف الذى يوصف منذ ذلك الحين بالأمير العادل، والعدالة (بمعنى الاستقامة) هى المصطلح الذى يعبر فى النظم الإسلامية عن شريعة المُلْك (أى الحكم).

وهكذا كان يبدأ الإعداد لاستكمال الأمير يوسف لحقوقه المنقوصة سياسياً، من حيث حملته للقب الأمير فقط، وكأنه مازال ولياً للعهد، كما يظهر وصفه بذلك اللقب فى بعض الرسائل الرسمية (مما سبق). والحقيقة إن الوسيلة لاستكمال يوسف لحقوق السيادة الكاملة كانت تتمثل بطبيعة الحال فى إمكانية فرض سيادة الدولة الموحدية، بعد الخليفة الوالد: أمير المؤمنين، على كامل تراب العدوتين: الأندلسية والمغربية.

القضاء على الأعداء فى حصن لبسة:

وهكذا كان على القوات الموحدية المتواجدة فى الأندلس أن تقوم، عقب إطفاء نيران الفتنة فى غمارة، بقيادة الشيخ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم بتهدين منطقة غرناطة، وذلك بغزو حصن لبسة الذى يقع فى مكان متوسط ما بين غرناطة ووادى آش، فقد كان ذلك الحصن محل إقامة جماعة من النصارى، من أحلاف محمد بن مردنيش السابقين، والذين أمروا- وقتئذ- أن يقاتلوا منه (لبسة) فحصد مدينة غرناطة، ويوالوا الإذاية منه عليها، «فكانت شجى فى حلقها، أذاقتها من الإذاية مرّ ذوقها»، كما كان حال «أندوچر» بالنسبة لقرطبة (مما سبق).

والمهم أن الشيخ أبا عبد الله طرق بقوات غرناطة بعزم صادق، ونجح في نفس اليوم في فتحه عنوة على من كان فيه من النصاري، حلفاء ابن مردنيش السابقين. ولم يغادر المكان إلا بعد إخراج جميع من كان بداخله من الأعداء، ومن ثم تخريبه وهدمه.^(١) حتى لا يستفيد منه الأعداء.

وأخبر والي غرناطة النشيط الأمير أبا يعقوب يوسف في مراكش بما حققه من القضاء على ما كان يهدد غرناطة من جانب الأعداء، وكان ذلك عملاً يستحق التقدير من جانب الأمير يوسف، إذ كان يثبت قدميه في دست الحكم، وبالتالي يرفع من شأنه، وفي أحقيته الأكيدة في الإمارة، واستحقاقه الكامل لخلافة الوالد عبد المؤمن أي في حمل لقب أمير المؤمنين- وبالتالي توطيد أقدام أسرة الخلفاء من بني عبد المؤمن.

وهذا ما يظهر في ردّ الأمير يوسف، في رسالته إلى الشيخ أبي عبد الله والطلبة الموحدين بأغرناطة، والمؤرخة في ٩ من ذي الحجة سنة ٥٦٢هـ/٣١ يولييه ١١٦٧م.

وفي موضوع الرسالة الأميرية، تعتبر غزوة لبسة غزو البقايا المجسمين من المرابطين في شرق الأندلس، وأنه بشارة بتبديد شملهم، «وتلكم عادة الله تعالى فيمن ناوى أمره وأعرض عن جانبه، والله ينجز فيهم وعده، لا رب غيره».^(٢)

والربط ظاهر عند ابن صاحب الصلاة بين أهمية الانتصارات التي تحققت في كل من العدوتين، وخاصة بالنسبة لتقوية مركز الأمير يوسف وتثبيت حكومته، بمعنى نجاحه في إمارته، وأهليته في خلافة والده: أميراً للمؤمنين.

ويظهر ذلك في أشعار أبي عمر بن حريون، شاعر السيد الأعلى أبي حفص، وكاتبه ومعاونه في وزارته حيث أعقب قصائده الحماسية السابقة،

(١) المن بالإمامة، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) المن بالإمامة، ص ٣٢٤-٣٢٥.

بأشعاره الرقيقة فى التهانى وجميل الصفات، وفى مقدمتها العدالة (الإستقامة) والعدل (أساس الملك)، ومنها:

وجداً النسيم ثناءكم فتعطرا ورأى الوشيع مضاءكم فتأطرا
وجرى ملك السعادة بالتالى جثمت على كسرى وفلت قيصر
سلطان وضاح الجبين متوج وثقى نقى الجنب أشعث أغبر
ملك تضعضعت الهضاب لبأسه وغدا له الزمن العنود مسخرا
لما دعاه الدين دَعْوَةً مُرْهَقَ لباه منصور اللواء مُظْفَرا
فإليك عن صنهاجة ما قدرها من مُلك مَنْ يغزو المسيح الأعورا
صُمِّمُوا عن الداعى إلى أن أسمعوا لوقوع بأسك فى غمارة جَرَجَرا
يا من تواضعت الملوك لأمره وكفى لها عزاً بذاك ومفخرا
أشبهت والدك الرضى فى هديه فقرنت بالقزوالعراة والقرا
أبشرف كل صباح يوم إنما يأتيك بالفتح المعين مبشرا
وصح لذكر «اليوسفية» إنها منعت مغانى الشعب من أن تذكرا
دبجت هـامن خلقكجنة وسقيتها من جود كفك كنوثا^(١)

وفهم من القصيدة الميمية التى أنشدها ابن حربون، بناء على طلب السيد الأعلى أبى حفص فى معنى تشوقه لأخيه الأمير يوسف، بعد مشاركته فى غزوة جبل غمارة سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م، أن ذلك كان بمثابة تأييد من جانب السيد أبى حفص لأخيه الأمير أبى يعقوب يوسف، وإن ذلك كان من الأمور الحاسمة التى سعد لها الأمير يوسف، فكانها كانت المرجحة لظفره (يوسف) فى السنة التالية (٥٦٣هـ/١١٦٨م) بلقب أمير المؤمنين. فمن هذه القصيدة:

١- سلام أيها الملك الهمام علانا ديك دام له السلام

٢- ولولا دولة أيدتموها لما عرف الحلال ولا الحرام

- ٣- وحكمت الأمور على رضاكم وتم لكم على الزمن إحسانكم
- ٤- وسيم الخسف كل أخى عناد ودان لأمركم حاسماً
- ٥- سل الجبل المكرم حيث ضاهت عباب البحر أنعمك الجسم
- ٦- تلقى تناباً شواق إليكم مشاهد للقدس للعظام
- ٧- تطلع نحوكم رحباً ووداً كما يتطلع البلدان الحرام
- ٨- جنبناها بيمينكم كراماً على صهواتها عرب كرام
- ٩- إذا قادتهم أبناء قيس فلا تجتمع لولا جدام
- ١٠- يطول بنا الزمان فكل يوم يمر ولا تراكم فهو عام
- ١١- تبسم عنكم هذه الليالي كما ابتسمت عن الزهر الكمام^(١)

والذى نراه، هو أن الشاعر الكاتب المقرب من السيد الأعلى أبى حفص، كان يعبر فى تلك القصيدة عن المعانى التى أرادها سيده الوزير الخطير تعبيراً جميلاً، كما فى تعبير السلام (فى البيت رقم ١)، وتأيد الدولة الحاسم، والتحكم الموفق فى مسار أمورهما، وإخضاع المخالفين مما حدث فى جبل غماره (الأبيات (٢، ٣، ٤، ٥). أما عن الشوق إلى رؤيا الأخ الأمير، فتعبير عظيم يجمع بين حنين الأخوة والإحترام الذى يصل إلى مبلغ التقديس (انظر البيتين ٦، ٧). أما عن تأيد العرب من قيسية ومنية فهو أمر أصبح له أهميته البالغة فى اتخاذ القرارات العظيمة، مما يختص بولاية العهد واختيار الأمير المستجد (انظر البيتين ٨، ٩). هذا، ويبلغ التوفيق مداه فى الربط بين الشوق والزمان، وبين الفرج وابتسام الأزهار (انظر البيتين ١٠، ١١)

وهكذا، حق لابن صاحب الصلاة- أول مصدر تاريخى لفترتنا هذه- الذى كان حاضراً فى ذلك المجلس أن يقول: إنه «لما أنشدت هذه القصيدة... المبينة عن صفاء الضمائر وخلوص الإخاء فى السراء من

(١) المن بالإمامة، ص ٣٣٥-٣٣٨، وقارن ابن عذارى، قسم ٣ (هوشى)، ص ٧٢- حيث مراعاة التباين بين النسختين.

السيد الأعلى أبى حفص إلى الحضرة العلية، رأينا وجه الأمير قد انشرح
محياء... وتهلل سروراً وبشراً... فقام كل من فى مجلسه العالى من
الموحدين، من طلبه الحضر، وقبلوا يده وباعوه، فأجزل العطاء...
والبركات... وانصرف السيد الأعلى ظافراً، سالماً، ناصراً.^(١)

والذى نخرج به من كل ذلك أن نجاح الأمير أبى يعقوب يوسف،
بمعاودة أخيه السيد الأعلى أبى حفص، فى إقرار الأمور فى كل من
العدوتين: الأندلسية والمغربية، وذلك بتوحيد ابن مردنيش فى الأندلس،
وخضوع غمارة وصنهاجة فى جبال الريف - بمعاونة العرب الهلالية - كان
كافياً لكى يعطى أول أمراء أسرة بنى عبد المؤمن الشرعية فى خلافة
والده العظيم، تماماً كما فعل الخليفة الوالد من قبل فى الإيعاز للعرب
باختيار محمد المخلوع، لولاية العهد. والحقيقة ان اتفاق زعماء الموحدين،
من مصامدة سوسيين، وملثمين صحراويين، وعرب إفريقيين، وأنصار
أندلسيين، كل ذلك كان يعنى استتباب الوحدة بين عناصر دولة بنى عبد
المؤمن الموحيده، والتى وقع على عاتق أمير المؤمنين فيها، من ذلك
الوقت، مسئولية تقرير مصير دولة الغرب الإسلامى: الأندلسية المغربية.

(١) المن بالإمامة، ص. ٣٣٨، وقارن ابن عذارى (هوشى)، ص ٧٢ .



فى تراتيب الإدارة ونظام الديوان (ديوان الإنشاء)

ولاية الأقاليم :

وكان تحقيق الونام بين الأخوة بعد تهديدن البلاد فرصة انتهزها الأمير يوسف لإجراء التعديلات المناسبة فى إدارة البلاد بمعرفة الولاة والحكام، من: السادة الإخوة، وغيرهم من كبار الطلبة والحفاظ ومشايخ البلاد، إلى جانب استكمال النظم الديوانية فى الدولة الموحدة المؤمنية التى كانت تزداد تحضراً ورقياً مع مرور الوقت، إضافة إلى زيادة توثيق علاقاتها بالبلاد الأندلسية بنظمها العريقة، وحضارتها الفريدة.

هكذا كانت الفرصة مواتية لإجراء حركة تنقلات- كما يقال الآن- بين حكام الولايات المتطرفة فى المغرب والأندلس، حسب مقتضى الحال.

بجاية:

ولما كانت ولاية بجاية الإفريقية شاغرة بأقطارها الواسعة دون وال، فقد نظر الأمير يوسف فى أمر شغلها، وذلك بالتشاور مع أخيه (الوزير الحاجب) أبى حفص. وانتهى الأمر بوقوع الاختيار لولايتها على أخيهما السيد / أبى زكريا يحيى (بن عبد المؤمن). وبذلك كان توجهه من حضرة مراکش إليها فى أول شهر جمادى الأولى سنة ٥٦١هـ/ ٥ مارس سنة ١١٦٦م، وفى معيته بطانة من أبناء الحفاظ وأبناء المشايخ والموحدين.^(١)

أشبيلية:

ولما كانت ولاية أشبيلية هى الأخرى شاغرة بعد عودة السيد الأعلى

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٩٣، ابن عذارى، الموحدون (هوى) ص ٦٧، ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ٢٣٩ .

أبى حفص إلى الحضرة مراکش، فقد ناقشه أخوه الأمير يعقوب فى أمر من يقوم بنظر عسكرها وأجنادها وثغرها، ووقع الاختيار على الشيخ الحافظ: أبى عبد الله ابن أبى إبراهيم (اسماعيل إيجيج: صاحب المهدي)، فأحضروه، وقدموه عليها يوم الجمعة (بعد الصلاة) ٢١ من جمادى الأول سنة ٥٦١هـ/ ٢٥ مارس ١١٦٦م.

ونظراً لما كان للشيخ أبى عبد الله من المقام السامى بين جماعة الموحدين، فقد خصّ بكثير من رموز التكريم المناسبة للحال، من: عقد رايتين فى مجلسه الكريم، كما خصّ أيضاً ببطانة وافرة من الحفاظ، إلى جانب تعيين وزير خاص به، هو: الشيخ الحافظ أبو يحيى بن سنان الذى يوصف بأنه ظهر عليه النجابة فى العلم، من «شبابه إلى فتوته، وما وصل الأربعين... ولعقله الراجح، وبما حباه الله به من عفاف الجوارح، والإقتناع بالكفاف، وسياسة النظر فى المصالح».

ونظراً لأهمية ولاية أشبيلية التى تكاد تكون «نيابة» للحضرة الأميرية، خرج مع أبى عبد الله العديد من مشاهير الحفاظ، من مختلف القبائل، من: جديوة، وكومية، وصنهاجة. هذا كما وجهوا معه عسكراً من العرب لحماية أشبيلية وأنظارها. وزيادة فى الحفاوة بصاحب أشبيلية الجديد (حفيد إيجيج العتييد) «أمروا بأربعة من الطبول بأربعة من الفرسان يضرّبونها عند خروجه، إعلاماً برفعته عندهم...» وكان خروجه من الحضرة نحو أشبيلية فى غرة جمادى الأخيرة من سنة ٥٦١هـ/ ١٤ أبريل ١١٦١م تتقدمه الرايتان، رمز مقامه السامى. وكان جوازه البحر إلى الأندلس من قصر مصمودة (القصر الكبير حديثاً) فى معية أمير البحر: أبى محمد عبد الله بن إسحاق بن جامع (أحد أخوة إدريس)، وصاحب سبتة، إلى حيث النزول فى مرفأ جزيرة طريفة. وكانت المسيرة إلى العاصمة الأندلسية: أشبيلية مصحوبة بما يليق بها، من الإلتزام «بالصلاة، والأذان، والتشويب... إلى أن بات على مقربة من

أشبيلية، فخرج إليه حفاظها وأجنادها... ودخلوا فى أول رجب سنة ٥٦١هـ/٣مايه ١١٦٦م، معه مسرورين بقدمه... شاكرين الله تعالى والأمير الأجل أبا يعقوب أن خصهم به، وكرمهم بتكريمه»^(١).

والمهم أن ولاية الشيخ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم لأشبيلية لم تدم طويلاً، إذ انتهى الأمر بانقطاعها فى شهر ذى الحجة من سنة ٥٦١هـ «أى بعد حوالى ٦ (ستة) أشهر» ، حيث آلت ولايتها- وهو الأمر المبرر- إلى أحد أفراد الأسرة المؤمنية، وهو السيد أبو إبراهيم (إسماعيل بن عبد المؤمن)، مما يمكن أن يعنى نقلة من الحكم الدينى أو الديمقراطى التيقراطى- كما يقال- إلى الحكم الكلى (المؤمنى) المباشر. وهذا الأمر يتأكد فعلاً بتحول أبى عبد الله بن أبى إبراهيم من أمير لأشبيلية، إلى وزير (أو كاتب) فى خدمة السيد/ أبى إبراهيم، نائب الأمير الحقيقى لعاصمة الأندلس الموحدية،^(٢) هذا، ولو أنه سيتم نقله والياً لغرناطة عما قريب، وذلك فى العشر الأواخر من شعبان سنة ٥٦٢هـ/مايه ١١٦٧م، بعد حوالى نصف سنة فقط، إذ كان وصوله إلى ولايته الجديدة (غرناطة) فى ١٠ رمضان سنة ٥٦٢هـ/٢يونيه ١١٦٧م.

والمهم أن الشيخ أبا عبد الله بن أبى إبراهيم استمر فى ولاية أغرناطة إلى شهر جمادى الأولى من سنة ٥٦٤هـ/يوليه- أغسطس ١١٦٩م- أى حوالى سنتين. وفى تلك الأثناء كان أبو عبد الله يؤدى واجباته العسكرية، كما كان العهد به. فقد نازل حصن لبسة (Labas) قرب وادى آش، ففتحه وأنزل جميع من كانوا فيه من النصارى، وعرف الأمير الأعدل يوسف بذلك، ونال شكره على اجتهاده هذا.^(٣)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٥٩٣-٥٩٥، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ٦٧، ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ٢٣٩ .

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٩٦، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ٩٧-٩٨، ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ٢٣٩ .

(٣) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٩٦-٢٩٧؛ وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوشى) ص ٩٨ .

هذا، كما نجحت قواته في مطاردة البرتغاليين المقيمين في مدينة شنترين، والذين أغاروا على نظر طلياطة (من غرب شَرْف أشبيلية)، وأدركتهم، وأنقذت الغنائم من بين أيديهم، بل «وساقوا من سبيهم مائة فارس، وجملة أعلاج»، الأمر الذي إعترف به الأمير يوسف، وشكر لأبى عبد الله بالمناسبة جهاده واجتهاده.^(١)

ويتضح من رواية ابن صاحب الصلاة التى يقتبسها ابن عذارى، أن الأمير يوسف الذى كان مقبلاً على تثبيت عرشه، بالإعلان عن اتخاذ لقب أمير المؤمنين فى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، كان يهدف بذلك أيضاً، للقيام بعملية تنقلات شاملة فى عواصم الدولة الموحدية بالأندلس. وكان ذلك يتم فعلاً تحت مظلة الوثام بينه وبين شقيقه السيد الأعلى أبى حفص، إعتباراً من سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، حيث تم استدعاء جميع الولاة بالأندلس، وعلى رأسهم الشيخ أبو عبد الله بن أبى إبراهيم والى غرناطة، والسيد أبو إبراهيم (إسماعيل) والى أشبيلية، وأبو إسحق إبراهيم صاحب قرطبة إلى الحضرة مراكش.

والحقيقة أيضاً أن الاستقرار بين الأخوة: بنى عبد المؤمن وقتنذ، كانت تتأكد أركانه بذلك الحلف العائلى والمصاهرة بين الشيخ أبى عبد الله وبين السيد الأعلى أبى حفص الذى وافق على أن تكون إبنته المصونة قرينة لورث شيخ الدولة العتيد (إسماعيل إيجيج). هذا، ولقد تطلب هذا الزواج السامى أن «تتمادى إقامة الشيخ (السيد) بمراكش الحاضرة إلى أول ذى القعدة سنة ٥٦٥هـ/١٧ يوليئه ١١٧٠م، عندما تطلب الحال أن يغادر والى الأندلس بصحبة السيد الأعلى أبى حفص لحرب إبن مردنيش، وبرفقتهم والبا كل من أشبيلية، وقرطبة: السيدان أبو إبراهيم وأبو

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٩٦، وابن عذارى، الموحدون (هروثى)،

ص ٦٨- حيث إضطراب النص بعض الشئ.

إسحق إبراهيم^(١).

وأهم أعمال الشيخ أبي عبد الله بن أبي إبراهيم العسكرية فى الأندلس فى تلك الحملة، هى فتح بسطة، ومعاونه السيد / أبو إبراهيم (إسماعيل) صاحب أشبيلية، حيث كان فى إستقبال أمير المؤمنين يوسف عند جوازه إلى الأندلس سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م، ومن ثم استقراره فى المعبة الأميرية، وليس فى ولايته بغرناطة حيث كانت «تحت حكمه ويده، فيها رجاله وعياله»^(٢).

والظاهر أن الأمير يوسف تنبه إلى حال غرناطة المبهمة هذا، فما كان منه إلا أن عهد بولايتها إلى أخيه السيد الأسنى: أبو سعيد (عثمان) عوضاً عن ابن أبي إبراهيم الذى كان له وضع المستشار الخاص بالنسبة لأمير المؤمنين الخليفة يوسف. هذا، كما زاد يوسف فى تشريفه بالإشراف على تمييز الحفاظ أجمع فى أول شهر ربيع ٥٦٧هـ / ٢ نوفمبر ١١٧١م. هذا، كما حضر مع الأمير يوسف غزوة وبذة الكبرى، كما حضر غزوة أبي برذعه (الرومى)، وانتهى (شيخ الدولة العتيد) وهو فى عنفوان عمره، فى سن ٣٦ (السادسة والثلاثين)، بعد أن لازمه المرض مدة سنة ونصف سنة، إذ توفى فى ٢٧ رمضان سنة ٥٦٩هـ / ٣ مايو ١١٧٤م، ودفن خارج باب جهور بأشبيلية^(٣).

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٩٧، وقارن ابن عذارى الموحدون (هوشى) ص ٦٨ حيث إضطراب المتن ما بين الإستدعاء إلى الحضرة لوالى قرطبة السيد أبي سعيد وإنصراف الشيخ أبي عبد الله بن أبي إبراهيم إلى جزيرة طريف حيث اللقاء بالسيد أبي إبراهيم والانصراف إلى أشبيلية.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٩٨- حيث الإشارة أيضاً إلى أن نائبه فى غرناطة كان قائد الحامية بالقصبة، وهو أبو محمد كوكان، الذى كان ينظر فى أشغال الموحدين بها على أحسن حال.

(٣) المن بالإمامة، ص ٢٩٨-٢٩٩- حيث تقييم ابن أبي إبراهيم، بأنه: كان من عليّة أبناء الجماعة فى الرياسة والسياسة، أما عن ثقافته، فهو: حافظ للقرآن برواياته المختلفة، وكذلك موطأ المهدي، وعقائده، مع مشاركة فى الأدب، ومطالعة على كتب التواريخ، وهمة عالية فى جمع الكتب وإقتنائها وإنتساخها حتى إجمعت له =

إدارة الدعاية

استقرار نهج ابن تومرت في الإعلام الديواني الموحدى

إذا كانت وزارات الدعاية والإعلام تعتبر من ابتكارات عصرنا الحديث، فإنه يمكن القول أن الدعاية هي الوسيلة التي استخدمها المصلحون الإجماعيون منذ أقدم العصور في نشر أفكارهم الخيرية على كل المستويات الحياتية، وخاصة الثقافية منها، والدينية على وجه الخصوص.

= منها خزانة عظيمة عالية الفنون.. هذا، مع وفائه لأصحابه... «والتزامه بالطهارة، والصلاة، ويدار لدفع الواجب من الزكاة في حين وجوبها، دون تأخير». ويختتم ابن صاحب الصلاة سيرة الشيخ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم (إسماعيل إبيحج) ببعض مشاهد من مجالسه الترفيهية أثناء ولاية غرناطة، حيث كان يخرج مع أصحابه الحفاظ إليها من الموحدين، ومن خاصته، وينزل على ساقية بضفة نهر أحسن من «شاهد مهر» (بنيسابور من خراسان). حيث الجداول والظلال، وقد أحضر ما يكفى الجميع من الشراب والطعام، فيستريح ويؤانسهم ثم ينصرفون، وقد حازوا فيه من المجالسة والمؤانسة خير حرمة وذمام.

وفى ذلك المجلس قال ابن صاحب الصلاة- أثناء غيابه (الشيخ)- وهو شعره (ابن صاحب الصلاة) الوحيد فى المن بالإمامة. ومنه:

عهدناك ياذا المنزل الرحب منزلاً لسيدنا بل أفضل العصر أجمعاً
تخطبك الأمال من كل جانب ويقرب منك الأتس مثنى ومربعاً
فها أنت هذا اليوم أوحش منزل رأيناك بيدها عوقصراً وبلقعا
طمعت بنفس أن أرد دموعها فمهما زجرت العين أسبلت معاً
وكان بعد ذلك رجوعه إلى غرناطة على ما دعوت وزجرت. وكانت عودته إليها أثناء غزوة السيد الأعلى المجاهد المرحوم أبى حفص بن الخليفة- رضه- فى عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م.

وفى ولايته اشيلية كتب له الكاتب أبو القاسم المواعينى مهنتاً ثراً ونظماً... وكيف لا وهو شيخ الموحدين... محل الشيخ الأجل، الحبيب المبارك الأفضل..

محمد بن إسماعيل أنتم لهذا الأمر قطب أوعمداد
أخ لبنى الخلافة صفو صدق ولو سكت الورى نطق الجماد
من ملتزم أمرهم، ومنظم حقهم، رهين شكرهم: محمد بن إبراهيم.

وفي هذا المقام نرى أن الإسلام يحتل مكاناً متميزاً بين الديانات التبشيرية، وأنه من أجل نشره خارج مهده في الحجاز وجزيرة العرب، استخدمت منذ البداية جميع الوسائل المتاحة وقتئذٍ للنشر والإعلام. والحقيقة أنه لما كان يمكن اعتبار الإسلام حركة إصلاح ديني لكل من اليهودية والمسيحية. وهو بدأ فعلاً بالتبشير الذي يعرف عربياً «بالدعوة» إلى الإسلام سلمياً، ولكنه لم يلبث - لظروف ظهوره الخاصة - أن تحول إلى حركة جهادية ذات حدّين: أحدهما نفسى روحى (مجرد) والآخر حسى عقلى (ملموس)، فكأن في الأمر نوعاً من الثنوية ممثلة في الصراع بين الشفافية الروحية والمادية الشهوانية أو ما بين الخير والشر أو المعروف والمنكر - حسب المصطلح الإسلامى الدارج.

والمهم في الدعوى (أو الدعاية) الإسلامية أنها بدأت شكلها العالمى وهى تخرج عن حدود الجزيرة العربية بالتطلع نحو البلاد المجاورة، من: إيران (شرقاً) والشام (شمالاً) ومصر (غرباً) والحبشة أو السودان (جنوباً)، وكانت وسائلها في الخطاب كلا من الخطابات الشفوية، والمكتوبات الديوانية، فيما عرف بالرسائل النبوية من الشفوية أو التحريرية، إلى جانب ما كان يمكن أن يتمخض عنها من إتفاقات السياسية.

وهكذا ظهر الإسلام حضارياً في دعوته منذ نشأته الأولى، واستخدمت الدعاية للدخول فيه منذ بداية الغزوات النبوية ومن ثم الفتوح العربية كعمليات تمهيدية للحلف والمؤاخاة مع أهل البلاد المفتوحة. وتبعاً للنظرية الخلدونية التى تقول إن المغلوب كلف بتقليد الغالب أصبح التعريب من عوامل الربط بين سائر البلاد الداخلة في الإسلام، ومن ثم كان تعريب الدواوين الرسمية من عوامل انتشار الإسلام الأساسية، وإن كان إلى جانب التعريب الشعبى عن طريق الاختلاط بالجوار - وهو التعريب الشامل من غير شك.

هذا ومنذ انتقلت حكومة الأمويين إلى أيدي العباسيين من بنى العمومة من آل البيت في بغداد ، وكذلك الأمر بالنسبة للإدارة العلوية في فاس ومن ثم الفاطميين في المهدية ثم في إمبراطورية القاهرة ، كل ذلك كان يمثل إنتصاراً للتشيع على حساب أهل السنة. وزادت الانقسامات المذهبية بظهور المتكلمين الفلاسفة ، وبعدهم المتصوفة المتوكلين. وأمام هذا التشردم الإسلامي بدأت حركة رأب ذلك الصدع والدعوة لعودة الوحدة ، وتمثل ذلك في حركة الأشاعرة ، ومن ثم حركة الغزالي « لإحياء علوم الدين » ، وعلى نفس هذه الأسس قامت حركة التوحيد التومرتية والوحدة في المغرب والأندلس وذلك على المستويين الديني والسياسي.

والمهم في حركة ابن تومرت أنه اتخذ العلم وسيلة لإحياء التوحيد الإسلامي ، وهي حركة تقديمية ، كما يقال الآن. فهو قد كتب تأليفه في مذهب التوحيد باللغتين العربية الفصحى والبربرية المحلية ، وطالب الجباليين من أهل السوس أن يدرّسوا تعاليمه بالبربرية لمن لا يعرف العربية (ج ٥) وكانت تلك مرحلة أساسية لتعلم العربية وانتشارها بين العامة من البربر ، كما نرى. وبرر ذلك أيضاً الرسائل الرسمية التي كان يصدرها ابن تومرت منذ استقراره في إيجليز هرغة ، ومن ثم في تينمل ، قبل قيام ديوان الإنشاء الرسمي في مراكش ، منذ الاستيلاء عليها سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م.

والمهم هنا هو الرسائل الدعائية التي كان يصورها ابن تومرت في الترغيب في مذهبه التوحيد ، والتنفير من حكومة المرابطين ، على أساس مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي كان ينتشر بين أفراد الشعب في طوال البلاد وعرضها.

وتظهر أهم النماذج الأولى ممثلة في الرسائل المستقاة من العقيدة والمرشدة لابن تومرت نفسه ، كما تظهر في رسالة الفصول على عهد عبد

المؤمن^(١)، كما تظهر على عهد يوسف فى الرسالة التى كتبها ابن عياش (أبو الحسن عبد الملك) إلى أمير شرق الأندلس: محمد بن سعد بن مردنيش، حيث وصف دعاة المسلمين بأنهم «يأخذون بالحجزات عن النار»، ويدعون إلى التمسك بالدين القيم والمنهاج البين...، كما ينص على أن الاسلام «سيعتوره التغيير والتبديل... والتحريف والتحويل... من نشوء البدع وطوائى المحرمات... وإيثار الشهوات وعبادة الأطماع... وفيه: «وإنا... ندعوكم برعاية الله... ونهيب بكم إلى السلوك لطريقه الواضح المستقيم... وتتأملوه تأمل ذوى الاستبصار... لا دين لمن لم يدن بهذه الدعوة...». فكونوا ممن يأخذ لنفسه من نفسه، وأثار ليومه من أمسه.

وهو يشير إلى خطاب سابق (لعبد المؤمن)، قائلاً: «وقد كان سيدنا أمير المؤمنين... خاطبكم بهذه الدعوة... ونحن لأوامره العلية مراعون، وللدعاء إلى ما دعاكم إليه داعون... فاقبلوا نصيحة تحرز لكم حظ السناء... والله تعالى يعينكم على تقبل هذه الوصايا... ويجعلكم ممن تنبه للعظات، مذكّر بالآيات بمنه».

خاطبتناكم بهذه المخاطبة دعاء إلى الله... وما أطلعناكم إلا على خيرة نصح ونخيلة ذكر، لا مقصد لها إلا الوفاء بعهد الله وميثاقه...

وعن تاريخ هذه الرسالة: بعد صلاة الجمعة من أول يوم رمضان المعظم سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م.^(٢)

(١) انظر رسائل موحدية، بروفنسال، الرسالة ٢٣، ص ١٢٦ من إنشاء أبى جعفر بن عطية، حيث التوصية فيها بإقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحق بلزوم الواجبات.

(٢) رسائل موحدية، بروفنسال، الرسالة ٢٥ ص ١٤١-١٤٩، أما عن الخطاب السابق المشار إليه فهو الرسالة العاشرة من نفس المجموع- ص ٣٥-٣٧، حيث نهايته... وأنا لئرجوان يكفكم عن ذلك وأشباهه- إن شاء الله تعالى- نظر موفق، وممتاع محقق، ويجذبكم إلى موالاة هذه الطائفة المباركة جاذب يسعد، وسائق يرشد، والله يمن عليكم بما ينجيكم، ويمكن لكم فى طاعته أسباب تأميلكم وترجيكم بمنه. والسلام...

البريد وترتيب «العلامة» (الأميرية) فى الرسائل الديوانية :

وفى سياق الدعوة إشتهرت الدولة الموحدية بين دول المغرب الإسلامية بترتيب البريد بنوعيه: البرى المعتاد (على ظهور الخيل أو غيرها من الدواب) والبحرى السريع، الذى كانت تحمل فيه الرسائل (فى الغراب الطيار) من بجاية (بالمغرب الأوسط) إلى مالقة (بجنوب شرق الأندلس) بسرعة الريح فى أيام قليلة.^(١) وهكذا كانت الأوامر والمناشير السلطانية متبادلة بين الحضرة مراکش وعواصم الأقاليم فى الأندلس والمغرب، وهى تحمل الأخبار عما يدور فى نواحي الإمبراطورية المترامية الأطراف، وتمكّن القيادة العليا فى مراکش من اتخاذ الاجراءات المناسبة لمواجهة كل الأحداث، من معتادة وطارئة.

وكانت لتلك الرسائل الديوانية تراتيبها الخاصة التى يعرفها الكتاب، والتى تحدد عناصر الرسالة الأساسية، بدءاً من اسم الراسل والمرسل إليه، ومن ثم ما هو متعارف عليه، من: التسليم والتوصية والحمدلة، ومكان الإرسال، قبل تناول موضوع الرسالة التى عادة ما تنتهى بتاريخ الإرسال. هذا، وتتميز الرسائل الموحدية الرسمية بخصائص مميزة، منها: الترضية عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم (محمد بن تومرت: محمد بن عبد الله)، ومن بعد عن «خليفته» (عبد المؤمن) وعن خلفائه (من سلسلة بنى عبد المؤمن: أمراء المؤمنين).

والحقيقة أن الفضل يرجع إلى المهدي محمد بن تومرت فى تنظيم ديوان الرسائل الموحدية بالشكل المشار إليه، كما كان له الفضل فى نشرها فى أرجاء دولة الموحدين الناهضة، كوسيلة للدعاية لحزب التوحيد (حزب الله) على أيامه، ثم على عهد عبيد المؤمن ونبيه. وعلى عهد أبى يعقوب يوسف، ومع زيادة انتشار الرسائل الرسمية فى أغراض الدولة المختلفة، ظهرت أول محاولة فى المغرب لإعطاء الرسائل الأميرية شكلها الرسمى

(١) انظر ج ٥ (عن البريد البرى) و (عن البريد البحرى السريع).

الذى يحدد أصالتها، ويضفى عليها صورتها القانونية، وذلك بما يتمثل في توقيع ولى الأمر (الخليفة) ليس بإسمه ولكن بخطه فقط.

والشارة الخطية تتمثل فى كلمات « الحمد لله وحده » (عبارة التوحيد) والتي ربما كانت النسخ الأولى منها بخط ابن تومرت نفسه. والمهم أن هذه الشارة المعبرة عن مذهب التوحيد التومرتى، عندما تقررت على عهد يوسف، كان ذلك على أن تكون بخط الأمير نفسه، واتخذ لها إسم «العلامة» بمعنى العلامة المميزة للرسالة والدالة على صدورها من ديوان الحضرة ذاته.^(١) - دون غيرها من رسائل الدواوين المحلية فى العواصم الإقليمية.

هذا وتنص رواية ابن عذارى على أن أول رسالة تحمل العلامة بخط أبى يعقوب يوسف، كانت رسالة الأمر بالعدل والنهى عن المنكر، والتي صدرت من الحضرة إلى جميع البلاد، ووصلت إلى قرطبة، بتاريخ ٣ رمضان سنة ٥٦١هـ/ ٣١ يولييه ١١٦٦م ومن ثم إلى أشبيلية وغيرها من العواصم، وأنها تعتبر أول أوامره العلية بصفته أميراً للمؤمنين.^(٢) ومن

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣١٢، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ٦٩، وابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ٢٣٩.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ٦٩ والرسالة: من إنشاء الحسن بن غياش، والمرسل والمرسل إليه من: أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين إلى أخيه السيد أبى سعيد وأصحابه الطلبة بقرطبة والموضوع فى: الإقتداء بالكتاب والسنة، والأمر بالعدل وموازين القسط، والإلتزام بالطرق المؤدية إلى معنى الصدق. ومخاطبة جميع العمال شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً بألا يحكموا فى الدماء حكماً من تلقائهم إلا بعد رفع النازل إلينا على وجهها... وتقيد بالشهود العدول... وتكتب أقوال المظلومين وحججهم وإقرارهم... وحجج الطالبين فى مقالاتهم... ويتوثقون فى المظلومين بالدماء بسجنهم وتشقيفهم ومثل هذا يقال عن جريمة الزنا والحراية والمستهزئين بالدين.

أما عن الجرائم الأصغر فتكون أحكامها دون النفوس، مثل: قتل الخطأ، وديات الشجاج وعقول الأعضاء والسرقاات ومتلبسات المناكحات والسرقاات والمعاملات وما أشبهها... والمهم تقوى الله فى السر والجهر، وخيفته فى الباطن والظاهر.

(كتب فى الـ ٣ من شهر رمضان المعظم سنة ٥٦١هـ/ ٣١ يولييه ١١٦٦م انظر =

المهم الإشارة هنا إلى أنه لما كانت الرسالة صادرة من يوسف وهو يحمل لقب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وتحمل في نفس الوقت تاريخ ٣ رمضان ٥٦١هـ/ ١١٦٤م فإن هذا يشير الشك في تاريخ مسألتى اللقب بأمير المؤمنين وإتخاذ رمز «العلامة» وهل يحتمل أن يكون في سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٤م، بدلاً من ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م التي يقدم ابن صاحب الصلاة نفسه بشكل واضح للقب الخلفي (مما سبق). هذا ولا بأس من الإشارة إلى أن موضع التوقيع بالحمدلة تحول في المشرق المملوكي إلى «بيت العلامة»، كما أن التوقيع بالحمدلة تحول إلى توقيع يكتب السلطان في «بيت العلامة» إسمه من غير زيادة^(١) أي: دون ألقاب، مما هو دارج الآن، هذا، ويقول ابن خلدون أن «العلامة» ظلت دارجة إلى آخر دولة الموحدين.^(٢)

هذا ولا بأس من الإشارة إلى أنه كان من رموز يوسف وعبد المؤمن أيضاً، عندما تمت له البيعة بإمرة المؤمنين، سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م أن صنع له الصناعات سنان رمح بسنانين إثنين، متصلين في سعة السيف كل واحد منهما. وفي وصفهما، مما قاله أبو عمرو بن حربون من شعره:

رمح تمثل للأعداء شكله رأس شجاع أوزاناً عقرب
ماذا إلا ناطران تشوفا نحواً لجهاد تشوفا المتوثب

= ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٠٢-٣٠٧، وكان ذلك إقتداء برسالة والده عبد المؤمن في رسالته في العدل والنهي عن المنكر والمؤرخة في ١٦ من ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م - انظر ابن القطان، نظم الجمان، ١٤٩-١٥١.

١١ انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٠ ص ١٥٢ - عما «يكتبه الخليفة في بيت العلامة»، ص ١٨٨ - عما يكتبه السلطان في بيت العلامة... ويكتب السلطان في بيت العلامة إسمه من غير زيادة، وعن بعض نماذج الرسائل الموحدية، انظر نفس المصدر، ج ٥ ص ١٩١. ج ٦ ص ٤٤٣ (في الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين بالمغرب، وانظر ص ٥٢٦ عن كتاب القاضي الفاضل إلى المنصور الموحدي (سنة ٥٨٥هـ/ ١١٩٨م)

(٢) العبر، ج ٦ ص ٢٣٩ - حيث يبيع ذلك بالتحفظ المنهجي «والله أعلم»

ها إنها بعض العلامات التي قد أطلعوا أنوارها بالمغرب
إن الخلافة لم تبين أسرارها إلا لهذا النجل أو هذا الأب
هذا ويضيف ابن صاحب الصلاة إن أبا يعقوب يوسف أمر أن يكتب
الصناع في سيفه «لأمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين»، وفي ذلك قال ابن
حريون على لسان السيف:

أنا إن جرّدت يوماً كنت بالضرب تمينا
لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين^(١)

التمييز الجديد: تصنيف الناس على طبقاتهم:

إلى جانب المستحدثات التنظيمية في مجالات ديوان الإنشاء، وما
يلحق به من البريد والعلامة على عهد يوسف بن عبد المؤمن، يأتي
التحديث الشامل في تنظيم جماعة الموحدين، حسب مقتضى العصر في
تطور آليات الحكم. وذلك ما حدث في أعقاب الإحتفالات التي أقيمت
بمناسبة المبايعة بلقب «أمير المؤمنين» في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م، فكان
تمييز جماعة الموحدين عصبية الدولة (الموحدية) المؤمنية.

والذي يفهم من تقرير ابن عذارى أن التمييز أو العرض أُحدث بعد
تكريم الحاضرين بموائد الطعام الفاخرة والوافرة (كما كان يسمى بالبريرية
«أسماس»)، ومن ثم «بالبركات»، وهو الجوائز المالية والمخصصات،
والتي كانت تعطى تبعاً لطبقة كل مستحق تبعاً لمكانته في السلم
الوظيفي. وإذا كان النص المختصر يقرر أنه: «مير الناس على جميع
طبقاتهم، وهيئاتهم وخيلهم، ورجلهم، فكتبت أسماؤهم على الإستيفاء،
وخرجت لهم البركات على الذي كتبوه ورتبوه»^(٢).

وفهم من هذا النص أن جماعة الموحدين، عضد الدولة المؤمنية
المستجدة، أصبحت تتكون من طائفتين، إحداها مدينة سياسية، وتمثل

(١) المن بالإمامة، ص ٣٥١-٣٥٢

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هويش) ص ٦٧

فى طبقات المشرعين من أعضاء مجالس: العشرة والخمسين والسبعين، بالإضافة إلى ممثلى القبائل المختلفة حسب ترتيبها تبعاً لسبقها فى التوحيد. أما عن الهيئات فلا بأس أن يكون المقصود بها أصحاب السلك الإدارى من موظفى الدولة فى المخزن أو دواوين الدولة المختلفة، فى مجالات: الإنشاء (الكتابة) والمالية والأشغال (الإعمار) وما يتصل بكل ذلك.

أما المقصود بالخييل والرجالة فهى القوات المسلحة، من: برية وبحرية، ومن ثم سلاح الفرسان (الخيالة الهجومية)، وأسلحة المشاة (الرجالة) الدفاعية، مع حسابان التدرج فى السلم الوظيفى فى جميع الطبقات والهيئات، من مدنية وعسكرية.

وهكذا تكون جماعة الموحدين قد تجددت بتجدد الإمارة من ملكية خاصة إلى إمبراطورية عامة، حيث أصبح أبو يعقوب يوسف «خليفة» و«أميراً للمؤمنين» فى جماعة الموحدين التى تحولت إلى الدولة المؤمنية. وإذا كان يوسف قد حمل رسمياً لقب أمير المؤمنين الخلافى، فإنه فى بعض الرسائل الرسمية التى صدرت من ديوانه، كان يخطر والده الخليفة عبد المؤمن من كتاب الديوان باللقاب المملكة المعروفة منذ خلافة بغداد، من: المنصور، والناصر (والمستنصر)^(١)، والتى سيبدأ استخدامها ألقاباً رسمية إعتباراً من أبى يوسف يعقوب «المنصور».

(١) انظر رسائل موحدية، بروفنسال، الرسالة ٢٦ المؤرخة ٥٧٦هـ ص ١٥١ .



الأندلس موضع إهتمام الخلافة الموحدية على عهد أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن

بنهاية العهد الأميري أو الملكي الذي عرفته الدولة الموحدية سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م، وتقلد أبى يعقوب يوسف لقب الخليفة: أمير المؤمنين (الأمبراطورى)، بدأ اهتمام الدولة الموحدية بصفة خاصة بشئون الأندلس التى أصبحت فعلاً مركز الثقل فى الدولة المراكشية التى انصبغت بالصبغة الأندلسية، فأصبحت أسبانية- مغربية الطابع، كما تعرف فى مصطلح البحث التاريخى الحديث (Hispano-Maurseque). وهذا ما يظهر فى تسمية أهم مصادر تلك الفترة من تاريخ المغرب العربى، ألا وهو كتاب: البيان المغربى فى تلخيص أخبار الأندلس والمغرب، حيث الاعتماد شبه الكامل على مصدرين أساسيين هما: المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة، ونظم الجمان لابن القطان- الأندلسيين. كما يظهر ذلك بشكل واضح فى اعتماد هذين المصدرين على الرسائل الرسمية الصادرة من حاضرة الخلافة مراكش، أو من حواضر الأندلس: أشبيلية، وقرطبة، وغرناطة، والمسطرة بأقلام كتاب من الأندلسيين فى أغلبيتهم- الأمر الذى صبغ حضارة المغرب فى ذلك العصر الموحدى بالصبغة الأسبانية.

والحقيقة أن اهتمام الموحدين بالأندلس بعد المرابطين، كان قد أصبح حتمية تاريخية، منذ أن دخلت الأندلس تحت الحماية المرابطية، حيث أصبحت عملية الإنقاذ أمانة فى عنق المغاربة، منذ تمده الإسترداد جنوباً عند موقع الزلاقة، غير بعيد عن حدود وادى آنة قرب بطليوس. وإذا كان الموحدون قد بسطوا نفوذهم على معظم أراضى الأندلس الإسلامية، فإن تهديد «الاسترداد» كان سيفاً مسلطاً فى شرق الأندلس أو فى الغرب،

وخاصة بعد ظهور مملكة البرتغال، كما كان المرابطون مازالوا متشبثين بالجزر الشرقية المعروفة بجزر ميورقة (البليار حالياً)، والتي كانت تمثل قوة قرصنة بحرية رهيبة، لها مكانتها الدولية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، في كل من جزر: ميورقة (الكبرى) ومينورقة (الصغرى) إلى جانب يابسة (Ibiza) وفورمنتيرا (إلى جانب كبريرا: Cabrera وكونجيرا: Conjera حالياً).

النظر في جزيرة الأندلس:

وهكذا كانت رموز دولة يوسف بن عبد المؤمن المستجدة، من: إمرة «المؤمنين» (من الموحدين) إلى علامة «الحمد لله»: رسم الرسائل، ومن ثم السيف المثني السنان (رمز ثنوية العدوتين)، وكلها علامات فارقة بالنسبة لعهد يوسف والأندلس. وهذا ما يقول به ابن صاحب الصلاة عندما ينص بعد اتصال الغبطة بالبيعة الرضوانية والأمان، قائلاً: «وبتدأ أمير المؤمنين- رضه- بالنظر لجزيرة الأندلس في بعث السيد الأسنى أبى إسحق (إبراهيم) أخيه إلى قرطبة...، بعكسر ضخم من الموحدين لحمايتها من المحاربين وأصحابهم الكفار، مع المقارنة بين بعث السيد أبى إسحق هذا، إلى الأندلس وبين ما «فعله أبو بكر الصديق حين يبعث يزيد بن أبى سفيان إلى الشام».^(١)

وبطبيعة الحال لم يكن هناك إجراء أفضل من مخاطبة شيخ الدولة العتيد: أبى عبد الله ابن أبى إبراهيم، فى شأن الجهاد بالأندلس (فى جمادى الآخر ٥٦٣هـ/أبريل ١١٦٨م). والمهم هنا، هو ان ابن صاحب الصلاة يوثق روايته هذه، بالرسالة الموثقة بدورها بالعلامة الرسمية «الحمد لله وحده»، والموجهة من أمير المؤمنين (يوسف) بن أمير المؤمنين (عبد (١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٥٣-٣٥٤- وحيث قال: «بعد ما تقدم من الخبر (إمارة المؤمنين، وما تلاها من الإنعام بالبركات) إتفق رأى المبارك على النظر السعيد، والإهتمام الحميد، إلى جزيرة الأندلس، بصرف عنان الغزو إلى أعدائها، على قريهم وبعدهم عن أرجائها.

المؤمن) إلى الحافظ أبى عبد الله محمد أبى إبراهيم والموحدين الذين بغرناطة. والمهم فى رسالة التكليف هنا: أنها توصى المسئول (المخاطب) «بالثقة بأن الله ناصر هذا الأمر العزيز، وإنجاز ما وعده من الإستيلاء على الأدنى والأبعد، وأن أمر تلکم الجزيرة (الأندلسية) - مهدها الله - لمن أكد ما يوجه إليه نظرنا... لمصاغبة الأعداء: الروميين (الأسبان) والمجسمين (المرايطين) لبلاد الموحدين بها، وإلحاحهم علي جنبايتها! وهو يعرفه بإرسال أخيه السيد أبى إسحق (إبراهيم) بعسكر من الموحدين والعرب إلى قرطبة، وأنه عليه مؤازرتهم على الجهاد، وحماية البلاد».

وهو يطلب من طلبة أشبيلية أن يعطوا أهل غرناطة من الرواتب مثلما يعطون أهل قرطبة، وأن يستمروا فى النظر فى الآلات والأسلحة التى يحتاجونها للقصبة (حصن حامية المدينة).

وقعة جبل وادى آش:

والمهم أنه فى هذا الوقت كانت تصل هذه الرسالة (المحررة فى ٢٢ جمادى الثانى ٥٦٣هـ/ ١٩ أبريل ١١٦٨م) إلى الشيخ أبى إبراهيم فى غرناطة، كانت حملة ذميمة من خيل جراند (فرسان جيرالدو الجليقى، حليف ابن مردنيش) قد خرجت من مدينة وادى آش مع حلفائهم أهل الحراية (الخوارج) الأندلسيين، فأفسدوا فى المنطقة، واجتاحوا بسائط رنثة (البعيدة جنوباً بغرب)، واكتسحوا ما فيها من الماشية، من الغنم والبقر، ومن الدواب والمتاع.

وعندما وصلت أخبار تلك الحملة إلى الشيخ الحافظ أبى عبد الله بغرناطة، إتخذ الإجراءات المناسبة لردعهم، فبعث جريدة (جملة) مباركة من عسكر غرناطة من الموحدين، والجند الأندلسيين، مع الرماة من الرجال، والتقت حملة غرناطة بالأشقياء المخربين، أهل الحراية، وهم ينصرفون بالمغانم من موضع بين نظر كل من وادى آش وغرناطة، فلدجأوا إلى بعض الجبال الشاهقة. والمهم أن الجبل لم يقف حائلاً أمام - مصامدة الجبال أصلاً - الموحدين، فقد حملوا على الأعداء حملة صادقة بدأت وقت

صلاة الظهر، واستمروا يزعجونهم فى أطراف الجبل، فلم يأت وقت العصر إلا وقد تشتتوا فى أنحاء الجبل ما بين فار بنفسه، ومترد من حافاته، «وقد تكسرت أعضاؤهم وتمزقت أجسادهم».

وهكذا انتهت معركة جبل وادى آش بأن فتك الموحدون من عسكر غرناطة بالأعداء المحاربين، وحازوا أسلابهم ودوابهم، وأسروا من أعلاج النصارى ٥٣ (ثلاثة وخمسين) علجاً، إستاقوهم مع جملة نظام الأخماس، وكان انتصاراً جسيماً أضيف إلى انتصارات الشيخ أبى عبد الله، الذى عرّف الخلافة بهذا الفتح، وتسلم الردّ المناسب، إعترافاً بجده واجتهاده فى ردع «المجرمين»، وبشرى بظهور الموحدين خصومهم المحاربين.^(١)

حصار حصن طبيرة (Tavira) :

فى إطار حوليات ابن صاحب الصلاة الموحدية تعتبر سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م من سنوات الأحداث الجلية فى الأندلس على المستويين السياسى والعسكرى، فإلى جانب أحداث الشرق مما سبقت الإشارة إليه فى غرناطة، كان للموحدين نشاطهم فى مكافحة اعتداءات مملكة البرتغال الناشئة فى الغرب (Algarve). وتمثل ذلك فيما قاموا به من حصار حصن طبيرة البحرى (جنوب شرق شلب) الذى كان موضع إمارة طوائف برية بحرية جديدة (أشبه بإمارة ميورقة فى الشرق Levante). تلك الدولة قامت على أنقاض دويلات المرينيين فى ذلك الصقع الغربى من الأندلس.

والنص الذى يرجع أصلاً إلى «كتاب المرينيين» لابن صاحب الصلاة

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٥٧-٣٥٩ وتاريخ الرسالة ٣ رمضان سنة ٥٦٣هـ/١١ يونيو ١١٦٨م، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ٧٦. وفى ذلك قال ابن حربون:

أليس من الآيات أن بدت فى وادٍ وقبصر قد أمسا لأمرك خادما
هذا ، كما يضيف ابن عذارى: أن الأمير يوسف إستدعى العرب وخاطبهم برسالة فى قصيدة يحرضهم على الجهاد، ويستدعيهم إلى الغزو. هذا، ولا نعرف إن كان ذلك من أجل غزوة سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م هذه أم غيرها.

أيضاً، يشير إلى أن الشائر هناك هو: عبد الله بن عبيد الذي يوصف بأنه «الغادر»، والذي إستقر فى طبيرة، منذ سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م، وهو يمارس أعمال قطع الطريق فى البر، والقرصنة فى البحر، مما قد يعنى فرض الضرائب والإتاوات على الرفقة من التجار فى القوافل البرية والمراكب البحرية. هذا، ولقد حاول يوسف عندما كان والياً لأشبيلية أن ينازلها مرتين دون جدوى.^(١)

والمهم أنه كان على الموحدين لكى ينالوا غرضهم من حصار طبيرة أن يلبجأوا إلى السكن فى حصن قسطلة (Cacelta) فى شمالها الغربى على المحيط، من حيث كان الخروج بعسكرهم «يضرئون عليها ليلاً ونهاراً، وينالون من أعدائهم كل ساعة نيلاً». وأمام تضيق الحصار بالقتال دون هوادة إنتهى الأمر بسقوط طبيرة بين أيدي الموحدين، فى أواخر شهر ذى القعدة سنة ٥٦٣هـ/أوائل سبتمبر ١١٦٨م.

وهكذا تنتهى الرواية بأنها إذا كانت قد عصبت على يوسف من قبل مرتين، فقد إنتهى الأمر بأن «فتحها الله له فى خلافته بسعده ويمنه».^(٢)

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك الملوك فى أبيبيريا

والظاهر أن سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، سنة استقرار عرش الخلافة بالنسبة إلى أبى يعقوب كانت سنة «السعد» فعلا بالنسبة لخلافة الموحدين التى أصبحت وكأنها قيصرية أو إمبراطورية أبيبيرية بشطريها الإسلامى والمسيحى - الأمر الذى يذكر بعهد الناصر المروانى أو المنصور العامرى.

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ص ٣٦٧ - ٣٦٨

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٦٨- حيث: بعدما كان أبعاد النجعة فى نيلها، واليأس من إصلاحها، فيسرها الله بيمين أمير المؤمنين (يوسف) ... (الذى سرَّ بارتفاع شغبها، وإنقطاع نفاقها الطائل فى السنين ونوبها- وقد شرحت حالها ومن نافق واحتلها فى «تاريخ المريدن»؛ وقارن ابن عذارى الموحدون (هوشى)، ص ٧٧.

هكذا يمكن النظر إلى صورة العاهل الموحدي في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م- وإن كان بشئ من اتساع الأفق والخيال، أساس إكتشاف الحقائق المستجدة.

فالمعروف أن قيام دولة البرتغال كان توسعها الأقليمي على حساب الأراضي الإسلامية، كما كان الحال بالنسبة لتوسع قشتالة أو أراجون. ومن الصحيح أيضاً أن تلك الدول الأسبانية المسيحية كانت تتنافس فيما بينها على الاسترداد، حتى انتهى الأمر إلى تقرير ما يمكن أن يسمى «بالقواعد المنظمة» لذلك الاسترداد، تبعاً للإعتبارات الإقليمية، إلى جانب القوى السياسية والعسكرية، وكذلك الاعتبارات الدولية والدينية، وخاصة مع البابوية.

وإذا كانت عملية الإنقاذ المرابطية قد فشلت في استرداد طليطلة^(١)، بينما لم تكن عملية التجديد والإحلال الموحدية قد تم إنجازها بعد، أتت سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، لا لتؤكد استقرار عرش أمير المؤمنين في الأندلس الإسلامية فقط، بل وفي أسبانيا المسيحية أيضاً.

والحقيقة أن أسبانيا المسيحية كانت تعاني مما يشبه نظام الطوائف الإسلامية ألا وهو النظام الإقطاعي السائد في أوروبا العصور الوسطى، حيث التنافس بين الملوك وأمراء الإقطاع، والتحالفات ضد بعضهم البعض- في غياب قيصر أو الإمبراطور- إلى جانب ما يمكن أن يسمى بنمو الروح الوطنية الأسبانية في الجانبين الإسلامي والمسيحي، بشارة إطلالة العصور الحديثة، وهو الأمر الذي سمح فعلاً بظهور طوائف أندلسية أسبانية يمكن أن قتل هامش ربط بين المسيحيين والمسلمين. وذلك ما ظهر في نموذج السيد (El-Cid) في شرق الأندلس، ومن ثم اليريتير

(١) انظر للمؤلف: عملية الإنقاذ المرابطي في الأندلس، بين ملوك الطوائف وجماعات الشعب العامل على عهد يوسف بن تاشفين (٤٧٨هـ/١٠٨٥-٤٩٨هـ/١١٠٤م، ندوة الأندلس: الدرس والتاريخ، من منشورات كلية الآداب جامعة الإسكندرية،

لدى المرابطين، ومن ثم نموذج ابن مردنيش وابن هُمّشك لدى الموحدين. ومثل هؤلاء من ذوى الهوية المزدوجة كانوا يمثلون فى مجتمعات الأندلس الإسبانية نوعاً من عامل الربط بين المجتمعين المتنافسين، رغم أعمالهم السلبية فى كثير من الأحيان.

أحد أمراء قشتالة: فرنانده راييس

لاجئاً سياسياً لدى الموحدين

والأمر الغرب حَقاً فى هذا المقام أن نفس سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، سنة «السعد» بالتسمية «بأمر المؤمنين» بالنسبة ليوسف، أنه وجد نفسه فوق ذلك، وكأنه إمبراطور الجزيرة الأيبيرية أو قيصرها، وهو ما فعله بعض الملوك الأسبان مثل الفونس المحارب (الاراجونى)، أو الفونس السابع المعروف لدى العرب بالسليطين بمعنى الشاب أو الصغير.

ففى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م وصل إلى مدينة أشبيلية وهى النيابة السلطانية للعاصمة مراكش، أحد أمراء قشتالة الإقطاعيين الكبار، وهو فرنانده راييس أو فرناند رودريكيث (Fernando Rodroques) صاحب مدينة ترجالة (Tregilio) العاصمة الواقعة فى غرب طليطلة، شمالاً بشرق. ويصف ابن صاحب الصلاة فرنانده راييس هذا، بأنه شهير النسب والشهامة. والصحيح أنه أحد كبار فرسان أسرة آل كاسترو العريقة. فهو يمت بالنسب والمصاهرة لصاحب طليطلة الفونس السابع الملقب بالإمبراطور (السليطين المتوفى فى رجب سنة ٥٥٢هـ/أغسطس ١١٥٧م).

والمهم أنه لما انتكست أسرته الكبيرة أمام الأسرة الإقطاعية المناقسة: أسرة آل لارا والتى آلت إليها خدمة الملك الطفل الفونس (الثامن)، لم يكن أمام فرنانده راييس إلا اللجوء إلى كنف أمير المؤمنين يوسف بصفته كبير الجزيرة وحكمها.

والمعروف تاريخياً أن فرنانده وصل أشبيلية فى شهر رمضان سنة ٥٦٣هـ/مايه ١١٦٨م، وبصحبته إخوته، وهو يعلن الطاعة للخليفة

الموحدي يوسف بن عبد المؤمن، الأمر الذي يعنى خروجه على الملك القشتالى صاحب طليطلة، وعلى المدير لقصره من آل لارا - رموز الاسترداد.

ومن أشبيلية تمّ الاتصال بالحضرة مراكش، والاستئذان فى قدوم الأمير القشتالى ليؤدى فروض الطاعة والولاء، وإعلان الدخول فى خدمة الموحدين. وفعلاً سار فرنانده رودريجيز، وفى صحبته إخوته وأتباعه إلى مراكش حيث استقبلهم الخليفة أبو يعقوب يوسف بما يليق بأمثالهم من التكريم. ومن الغريب أيضاً أننا نفتقد ما يفيد عن موضوع الزيارة، إكتفاء بالقول أن الزعيم القشتالى «أقام فى الحضرة العلية ٥ (خمسة) أشهر تحت إحسان الأمر العالى، وامتنان وعطاء جزيل، وإسكان كفيل».

وإذا كانت الرواية تعبر عن نجاح زيارة الضيف القشتالى للحضرة مراكش حتى كادت تلك الزيارة تنتهى بدخوله فى الإسلام، فإنها تنص فى النهاية على ما تم الإتفاق عليه مع القشتالى الذى «عاهد الله فى نصح الأمر بالخدمة المجدة، واستسلم وضمن عن نفسه ثغور بلاد الموحدين، وأن يكون رءأ لهم، حليفاً للمسلمين». وهكذا انتهت زيارة صاحب ترجاله القشتالى بأن «إنصرف تحت هذا الإحسان والصلح التام ومنه الأيمان، وأمر له الأمر العالى - أدامه الله وخلّده - بمواساته ومواساة إخوته وأصحابه مع الموحدين فى كل شهر، فكان ذلك». ومعنى ذلك إثبات فرنانده فى ديوان العطاء، وصرف البركة (الراتب) فى كل شهر لهم مع أصناف الموحدين، على أنهم فى الخدمة كبقية عمّال الدولة وعمالئها - وإن كانوا من المعاهدين.^(١)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٦٨-٣٦٩؛ وقارن ابن عذارى، الموحدون (هويشى) ص ٧٨- حيث النص على أن الخليفة «أمر بإثبات أخوته وأصحابه مع الموحدين، فى كل شهر فكان كذلك. وانظر أشباخ (يوسف)، الموابطون والموحدون، ترجمة عنان، ج ٢، ص ٢٤-٢٥، حيث الصراع فى قشتالة بين آل لارا وآل كاسترو إنتهى بانتصار آل لارا الذين استولوا على طليطلة، ونادوا بالملك الطفل الفونسو (١١ سنة). وأمام استنثار آل لارا السلطان اضطر آل كاسترو إلى الخروج إلى أراضى المسلمين. وهنا يقول أشباخ أن الفارين من آل كاسترو، وعلى رأسهم =

ملك ليون: فرنانده الببوج يطلب الهدنة والحلف من الموحدين

لما كان آل كاسترو المهزومين فى طليطلة، حلفاء أصلاً لملكة ليون، لم يكن من المستغرب أن يحذو حذوهم فى التقرب من الموحدين، فرنانده الثانى المعروف بالببوج (كثير اللعاب)، وهو ابن الفونسو السلطين ملك قشتالة أصلاً. والببوج مشهور أيضاً بأنه صاحب مدينة السبباط (التي إبتناها لنفسه)، وهى التى تعرف فى ليون بمدينة رودريجو، وهى تقع شرقى قلمرية (Coimbra) عاصمة البرتغال وغربى أبله- التى يعرف بأنه صاحبها أيضاً إلى جانب السبباط.^(١)

وواضح أن الببوج لم يأت بشخصه، بل أنه أفصح عن رغبته فى الصلح والمهادنة بالمراسلة، ولا بأس أن كان ذلك عن طريق فرنانده راييس وآل كاسترو، وبنفس طريقة تدوين أسمائهم فى ديوان العطاء كجند مرتزقة. والنص يعبر عن أن الببوج طلب بدوره الصلح والمهادنة، وأن يكون مع الموحدين، وعوناً لهم على أعدائهم. كما أخبر أن بينه خلافاً وبين القمط نونيه بيريز دى لارا، الوصى على عرش ملك قشتالة الطفل الفونسو.

والهم أن الببوج عرف بالفتنة التى تعانى منها قشتالة حول الوصية على العرش، وأكد رغبته بناء على الصلح، فى أن يبعث إليه بعسكر من الموحدين إلى مدينة السبباط، «ليقاتل بهم نونيه القمط المنازع له عن ابن أخيه فى بلاده». وفعلاً أمر أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بمسير =فردينان روير (رايس) =علقوا على تحريض الموحدين على غزو قشتالة، وإن انتهى الأمر بأن نجحوا فى إقناع فردينان ملك ليون بأن يؤيهم فى مملكته. هذا ولقد نجح فردينان راييس فى العودة إلى قشتالة بعد أن حقق حربه إنتصاراً كبيراً فى سنة ١١٧٤م/٧-٦٩٥هـ على خصومه. وكان ذلك إيذاناً بوصول آل كاسترو إلى ذروة الحظوة عند فريدنان ملك ليون. ومن ثم ساد الهدوء بين الاسرتين المتنازعتين (كاسترو، لارا) بالحلف والمعاهدة، وبقي فردينان روير (فرنانده راييس) فى الحكم إلى أن توفى سنة ١١٨٥م/٨١-٥٨٠هـ.

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٢٠ وهـ ١ (عن هويشى). وانظر عنان، المرابطون والموحدون ج ٢ ص ٣١.

عسكر أشبيلية من أجل تحقيق هذا الهدف، وأمر على تلك الحملة كلاً من الشيخ أبي العلاء بن عزون، والحافظ أبي علي بن قمصيلت، والحافظ أبي عمران موسى بن حمو.

وفعلاً وصلت القوة الموحدية إلى منطقة السُّبُطاط ما بين نهر دويره شمالاً ونهر قلمرية غرباً. وقاتل الموحدون أعداء الببرج ببلاد قشتيلية، وصعدوا في حملتهم: «ووصلوا إلى أقصى نظرة ببلدة اشتوريش (شمال ليون علي بحر الانقليشين).

وتنص الرواية هنا على أن الموحدين غزوا من حاربه، وسالموا من سالمه، وأنهم أقاموا عنده في تلك الغزوة ٥ (خمسة) أشهر، ثم انصرفوا عنه سالمين. وهكذا تكون حملة السُّبُطاط قد حققت أهدافها، وأن الببوج اغتبط بنصرهم، وارتبط للصالح الذي ربطه بأمرهم. وبذلك تم الاتفاق بين الطرفين على المعاملة بالمثل، «ومتى سمع (الموحدون) بعدو من النصارى يطرق بلاد أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بغدر أو مكر أن يكون لذلك العدو معهم دافعاً، وحامياً لحماهم مانعاً، ويظهر من البدار ما يحوز به في ملته الوفاء في مذاكرة الأخيار، فأجاب إلى ذلك». وتأكد العهد «وحلف في بيعة بلده وبالإيمان عن دينه هنالك، فوفى بما عاهد، وربط بأيمانه ولسانه».

وبذلك تم العقد، وسار الببوج مع القوى الموحدية إلى مدينة بطليوس، وقاتل معهم صهره ابن الرنك (ملك البرتغال) حين تملكها بغدر جرانده اللعين، وهزمه في داخلها، وأخرجه منها حسب ما يذكر بعد هذا - وكان فعله لطفاً من الله تعالى. (١)

سياسة الموحدين في الأندلس ما بين الحرب والحلف :

بلجواء فرنانده راييس (القشتالي)، ومن بعده فرنانده الببوج (الليوني)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٧٠-٣٧٢، وقارن ابن عذاري، الموحدون (هوثي)، ص ٧٨.

إلى الموحدين، ومن ثم تدخل الموحدون عسكرياً إلى جانب قوات ليون في نهدين من بلادهم شمالاً حتى إشتوريش (على خليج بسكاي) كان يعنى انغماس الموحدين فى الفتنة القائمة بين ممالك الاسترداد المسيحية، الأمر الذى كان يعنى المزيد من الأعباء بالنسبة لبلاد المسلمين الأندلسية. وهذا ما ظهر فى ردود الفعل العنيفة من قبل حركة الاسترداد البرتغالية جنوباً فى «الغرب»- مصدر الخطر الحقيقى فى ذلك الحين.

وإذا كان الموحدون قد إستعادوا أخيراً طبرية على المحيط من بين يدي بعض المغامرين المسلمين، فلا ندرى إن كان اقتلاع أمراء الطوائف المحليين من حصونهم كان فى مصلحة الدفاع عن تلك المواضع الإسلامية أم لا. فالحقيقة أن الخطر البرتغالى كان داهماً فى الفترة من سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م، وقت أن كانت الثورة فى غمرة تثير المتاعب لمراكش، وحتى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، عام استقرار الأمور بالنسبة للخليفة أمير المؤمنين يوسف.

والحقيقة أن ابن الرنك ملك البرتغال (الفونس هنريكيز) كان، وبمساعدة بعض الناشطين من أعوانه مثل القائد جراند (جيرالدوسمبادور) الذى يصفه المسلمون بالكلب الغادر، يمثل خطراً داهماً بالنسبة للمسلمين. وهكذا تسجل حويلات ابن صاحب الصلاة سلسلة من أعمال الغدر هذه، إعتباراً من أواخر سنة ٥٥٧هـ/ أواخر سنة ١١٦٢م، حيث كان نصارى شنترين يغدرون مدينة باجة، ويهدمونها بعد أن سكنوها عدة أشهر. ومثل هذا يقال عن غدر جراند (الرهيب) مدينة ترجاله Trujello، فى جمادى الثانى سنة ٥٦٠هـ/ أبريل ١١٦٥م، وبعدها مدينة يابرة (Evora) فى ذى القعدة ٥٦٠هـ/ سبتمبر ١١٦٥م وبيعها للنصارى، ثم قاصرش (Aceres) شمال بطليوس فى صفر ٥٦١هـ/ سبتمبر ١١٦٥م ثم حصن منتانجس (Montanchez) جنوب قاصرش وشمال بطليوس، ثم حصن جلمانية (Jurumenia) جنوب بطليوس. وهكذا إستطاع جراند (جيرالدو) أن

يحاصر بطليوس بتلك الحصون، ويفاتنها، ويؤذى المسلمين فيها.^(١) وواضح أن تحالف الموحيدين مع ملك ليون (الببوج) والحملة العسكرية فى شمال قشتالة (سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م) والتي تبالغ الروايات فى مدى تقدمها حتى إشتوريش، فكأنها نزهة عسكرية، كانت ترفع من شأن الموحيدين فى كل أيبيريا، وخليفتهم أمير المؤمنين يوسف، وهكذا تنص الرواية على سيادة الأمن والرخاء، الأمر الذى يعزز فكرة الإعتماد للحملات العسكرية البعيدة المدى، وخاصة فى الأندلس - هم الخلافة الموحدة.

ما بين حملة الأندلس واضطراب أهل الجبال فى العدو وفى جبل تاسررت

وإذ فسرت رواية ابن صاحب الصلاة الإعداد لغزو الأندلس بأنه كان تأثراً وغيره لله تعالى: إشفاقاً على المسلمين، ودفاعاً عن الدين، فلا شك أن عذر المدن والحصون - وخاصة فى الغرب الأندلسى (قبل سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م - بما سبق)، الأمر الذى كان يؤدى إلى تطويق بطليوس (أرض الزلاقة) كان من الأسباب الأساسية لتلك الغيرة، وذلك الإشفاق. هذا، كما أن ما تشير إليه الرواية فى تلك السنة (سنة ٥٦٣هـ، وهى سنة الهدوء والتهددين، عن اضطرابات وقعت فى جبل يُسمى تاسررت^(١)،

(١) ابن صاحب الصلاة، المنبأ بالإمامة، ص ٣٧٣-٣٧٤؛ وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ٧٨-٧٩. أما عن أسلوب غدر جرانده وهو الساعد الأيمن لإبن الرنك البرتغالى فى مهاجمة تلك الحصون فتتلخص فى التسلل ليلاً فى الليالى المطرة الحالكة والمظلمة الشديدة الريح والثلج، إلى البلاد (الإسلامية)، وقد أعد آلات من السلام من أطول العبدان تعلو سور المدينة التى يؤم ويروم. فإذا نام السامر المسلم فى برج المدينة ألقى تلك السلام إلى جانب البرج، ورقى بنفسه عليها أولاً إلى البرج، وتقبض على السامر، وقال له: «تكلم على ما كانت عادتك ليلاً (حتى) يتشعر الناس به. فإذا استوفى طلوع جملته الذميمة فى أعلى السور، صاحوا بلغاتهم صيحات عظيمة منكرة، ودخلوا المدينة، وقتلوا من وجدوه واستلبوه، وأخذوا كل ما فيها سبياً وفيها.

والذى ترجع الأخبار فى سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م التالية أنه من جبال العدو، فكان المقصود بذلك جبال سبسة، وأن ثوراته من توابع ثورة بلاد غمارة السابقة، حيث النص على أنه «فى أولها (سنة ٥٦٤هـ) هدأت الفتن فى العدو، وصلحت البلدان، وارتفعت الحروب... وانقطعت فتنة الضلال من الجهال أهل الجبال، فتابوا وأنابوا، ودُعوا للجهاد فأجابوا، وعانوا الآيات بنصره المبين». وهكذا تشير رواية ابن صاحب الصلاة الأصلية، إلى العلاقة الجدلية، كما يقال- بين أحداث المغرب الموحدى، ووقائع الأندلس على عهد يوسف.

حملة الأندلس سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م:

فى ضوء ما سبق من أحداث التدخل الموحدى فى الأندلس، لا بأس من الإشارة، إلى جانب تهديد الجبال ودعوة أهلها من الثوار إلى الجهاد فى الأندلس، إلى ما جدّ من التحالف مع الأسبان المسيحيين، وما تحقق بمؤازرتهم من غارات بعيدة تذكر بحملات الناصر المروانى والمنصور العامرى- فكان الفتوحات الإسلامية فى حالة تجدد وانبعاث.

هكذا فكر أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف فى تهديد الأندلس، وفرض النظام الموحدى نظام: «عهد الخلفاء الراشدين المهديين». وفى ضوء فكرة التجدد الإسلامى هذه، أخذ فى إعداد «عسكر مبارك شهم إختاره من الموحدين»، ويعد العرض والتمييز، عهد بالقيادة إلى شيخ الدولة «الأجل: أبو حفص عمر بن يحيى» الهنتاتى، الذى كان عليه أن يسير إلى قرطبة لحماية الأندلس، وذلك كمقدمة للجيش الموحدى الأكبر، الذى يقوده «الخليفة» نفسه، والذى كان يقع على عاتقه إقرار النظام، بترويع المنافقين والكافرين، وتنغيص لذات عيشتهم أسوأ عيش.^(٢)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٦٠.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٧٥، وبهذه المناسبة أرسل ديوان الرسائل (الانشاء) من مراکش، إلى أهل الأندلس رسالة يخبرهم فيها بتلك البشرى الكريمة، وذلك بتاريخ ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/ إبريل ١١٦٩م.

هذا، ويستكمل ابن صاحب الصلاة روايته التى تهتم بالتفصيلات الدقيقة، أكثر من اهتمامها بالأحداث الخطيرة- فكأنها المذكرات الشخصية التى تهتم بالأحداث اليومية، وهى من هذا الوجه تشبه ذلك النوع المبكر من التاريخ الإسلامى المعروف بالأيام، والذى نبغ فيه الواقدي- فيروى قصة شاهد البيان للأحداث، وهو الزعيم الأندلسى (الغربى)، من رؤساء المريدن (ج ٥)، والتى توضح أن السبب فى تعجيل حركة أبى حفص من مراكش إلى الأندلس، هو نجاح القائد الجليقى جرانده (جبرالده سيمبادور) بغدر بطليوس التى كان سقوطها بيد الأسبان المسيحيين يعنى السيطرة على المنطقة المعروفة محلياً باسم الميتيخو (Almetejo) والتى أصبحت من أملاك ابن الرنك (الفونس إنريكيث)، صاحب قلعة (Coimbre): عاصمة البرتغال وقتئذ.

والمهم أنه إذا كان الأعداء الأسبان قد نجحوا فى غدر بطليوس المدينة فى شهر ربيع الآخر ٥٦٤هـ/مارس ١١٦٩م، فإن القصبة (القلعة) التى أحاطوا بها ظلت صامدة بقيادة الحافظ أبى على عمر بن قمصيلت. وعندما وصل هذا النبأ إلى مراكش انزعج الخليفة أبو يعقوب يوسف، وأمر بالتحشد، فضربت الطبول، وخرج بنفسه إلى ضفة وادى (نهر) تنسيفت (القريب من مراكش)، حيث أمر بالتجمع وهو يعلن قرار المسير بنفسه. وبطبيعة الحال كان الهدف من ذلك هو التحريض على الإسراع فى تلبية نداء الجهاد فى الأندلس. وعندما تم اجتماع عسكر مناسب، تقرر أن يكون مقدمة للجيش الكبير الذى يعد بعدئذ، ويكون أمير المؤمنين يوسف على رأسه فى أسرع وقت. واجتمع رأى الموحدين على أن يتقدم الشيخ أبو حفص الهنتاتى على رأس تلك المقدمة، وذلك فى شهر رجب ٥٦٤هـ/أبريل ١١٦٩م- وذلك خلال شهر واحد فقط.^(١)

(١) انظر صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٧٥- حيث غدر بطليوس فى رجب ٥٦٤هـ/أبريل ١١٦٩م، ومسير الشيخ أبى حفص لنجدتها فى ربيع الآخر ٥٦٤هـ/مارس ١١٦٩م. والذى نراه أن الأوفق لتقديم ربيع على رجب إلا أن تكون سنة رجب هى ٥٦٣هـ/١١٦٨م، وليس ٥٦٤هـ- وهو ما لا نرجحه.

سياسة الحلف مع الإسبان وإنقاذ بطليوس :

وصل العسكر الموحدى إلى أشبيلية سالماً ، ومنها سار بقيادة أبى حفص الهنتاتى لغوث المسلمين فى الغرب ، «ودفاع العدو الغادر ابن الرنك» صاحب قلمرية (ملك البرتغال) فى بطليوس ، فك حصار الموحدين فى داخل القصة . وما أن اقترب الموحدون من منطقة بطليوس (المينتيخو) (Almetejo) حتى «وصل البشير معلماً بلطف الله وتأييده لهذا الأمر العزيز بأن فرنانده الببوج ابن اذفنش السليطين ، صاحب مدينة السبباط وآبله (وليسون وزاموره) ، وصل بجمعه ، وحفله من الخيل والرجل حامياً للمسلمين ، دافعاً بصنفة الكافرين ، عن مدينة بطليوس ، طاعة منه إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين» .^(١)

والظاهر أن المسألة كانت مفاجأة للموحدين فى بداية الأمر ، ولكن الببوج لم يلبث أن طمأنهم ، بأنه أتى معاوناً وحليفاً ، دون أطماع شخصية . فهذا ما يظهر فى رواية ابن عذارى التى تضيف إلى رواية ابن صاحب الصلاة شهادة أخرى تقول : «وقيل أنه (الببوج) لما وصل إلى مقربة من بطليوس وجه منها رسوله إلى الحافظ أبى على عمر بن تيمصليت والمحصور بالقلعة مع الموحدين ، وأهل المدينة الأندلسيين ، يقول لهم : أثبتوا فىناى واصل... وانظروا فى معاونتى كيف أدخل إليكم» . وهكذا نقب ابن تيمصليت باباً فى جهة خفية بالقصة . وعندما تحقق الموحدون المحاصرون داخل القصة من اشتباك قوات ليسون مع قوات البرتغال ، فتحوا ذلك النقب ، وخرجوا منه ليفتحوا باب المدينة ، ويدخلون منه العسكر الليونى الحليف . وبذلك تحولت ساحة بطليوس إلى ميدان قتال ، وانضم الموحدون فى القصة إلى أصدقائهم أصحاب فرنانده الببوج مرجحاً لكافة الحلفاء . وكانت الهزيمة على البرتغاليين الذين فروا هاربين .

(١) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ٣٨٠ ، وانظر أيضاً ابن عذارى ، الموحدون

(هوى) ص ٨٠ .

وفى دهشة الفرار أصيب ملك البرتغال فى باب المدينة بكسر بليغ فى فخذه فسقط مغشياً عليه، ورغم إنقاذ أصحابه له، إلا أنه وقع أسيراً بين أيدي رجال البيوج، الذى أطلقه بعد ذلك «برغبة النصرارى له، وسرحه إلى بلاده مهزوماً ذميماً، ولم يركب بعد ذلك إلى أن هلك».

أما عن عميله جرانده الجليقى الموسوم بالغادر فقد فرّ إلى بلده.

وهكذا «فتح الله مدينة بطليوس... وفى البيوج بما عاهد عليه... وكان خروج النصرارى منها فى شعبان ٥٦٤هـ / ١١٦٩م. وبذلك اكتسب الموحدون حليفاً وفيماً هو البيوج ابن السليطين. وقد ألقى الله بينه وبين ابن الرنك العداوة المتصلة، وأورثها الإخوة منهم والأبناء»^(١)

وكانت إستعادة بطليوس بمثابة تمهيد لانتقال الشيخ أبى حفص بعسكره من الموحدين، من أشبيلية إلى قرطبة كسند للسيد أبى إسحق إبراهيم واليها، فى جهاده على إقرار الأمور بالقضاء على تهديدات المحاريين فى

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٨٢- حيث النص: «وفتح الله هذا الفتح الجسيم، وصرف بطليوس إلى الإسلام أحسن صرف... وفى قرنانده البيوج لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين فيما عاهده عليه، وصدق فى أيمانه، ورأى بعد ذلك من الإحسان والإنعام جزاء حسن عهده ما لم يتخيله فى نفسه... حسب ما أذكره بعد فى موضعه: واسلم مدينة بطليوس للحافظ عمر بن قسطلت». وتضيف الرواية: أن البيوج رفض دخول القسبة دون إذن من أمير المؤمنين، وأنه فعل ما أوجبه العهد والود.

ومن أشبيلية أرسل الشيخ أبو حفص الهنتاتى إلى أمير المؤمنين يوسف: بوصف هذا الفتح الإلهى. وفى ذلك الفتح قال أبو عمر بن حربون يمدح أمير المؤمنين (يوسف):

بيمن أمير المؤمنين رفعتم بعزكم تلك الذرى والدعائم
وكيف رأى ابن الرنك مركب بغيه إذا اعتاض من دهم الجياد الأدهام
وانى لأرجو للجزيرة كرامة تعيد عليها عهدها المتقادم
وبنو الملك المهروب فى الأرض كلها ومن ملأ الدنيا الهوى وملاحما
وهم ادبوا الهيجا، فالسيف قد غدا بهم نائراً والرمح قد صار ناظماً
ورثتم عن المهدي نورا وحكمة بها إختارك الرحمن للناس حاكماً

المنطقة. وفي ذلك تقول الرواية أنه باستقرار الشيخ أبي حفص في قرطبة زاد العاصمة العتيقة صلاحاً ونجاحاً، وروع قلوب أهل الحراية هناك، وكان تهدين أمر قرطبة تمهيداً جيداً لدخول ابن همشك في الشرق في التوحيد صراحة وبشكل نهائى.

مشاغبات جراندته في حصن جلمانية :

ولا يبق بعد ذلك إلا ما أنزله جراندته (جيرالدوسيمافور) «اللعين» من الغدر بوالى بطليوس وقائدها أبو يحيى بن الشيخ أبي حفص. ففي أثناء إقامة أبي حفص الهنتاتى في قرطبة صدر الأمر العالى بولاية ابنه الحافظ أبى يحيى بالولاية على بطليوس، مع العهد إليه بحفر بشر في داخل القصبة يؤمن لها الإمداد بالماء فى الظروف الصعبة، الأمر الذى يزيد فى حصانتها، وهذه البئر التى تأتى بالماء من خارج السور هى التى كانت تعرف عند العامة بالقوراجة. والمهم أنه لما كان جراندته يسكن فى حصن جلمانية غير بعيد من بطليوس فقد استمرت الحرب معه، والتى «صبر فيها الحافظ الأسنى أبو يحيى وظهر... إلى أن تحيل العلاج اللعين فى خدعة من الحرب صنعها وأوقعها».

فلقد أغار جراندته على بعض أطراف بطليوس، وعندما تبعه الحافظ أبو يحيى بأصحابه ورجاله فرّ أمامهم مذعوراً وكأنه يطلب النجاة، وهو فى الحقيقة يجرحهم إلى الكمين الذى خرج عليهم، فكانت هزيمتهم بالمفاجأة، والمهم أن جراندته أسر عدد من أصحاب أبى يحيى (القواد). واضطر أبو يحيى أن يشتري فداءهم «من مال نفسه». ومن الطريف هنا ما ينص عليه ابن صاحب الصلاة من أن فداء قريبه- على ما نظن- وهو: على بن صاحب الصلاة بلغ ٣٠٠ دينار، إلى جانب إعطائه «كل ما سلب له من فرس وآلة». وبذلك نال الحافظ المغدور- فى ميدان القتال هذه المرة- شكر أمير المؤمنين يوسف «لجهاده واجتهاده»، ورغبة أصحابه وأجناده.

وبطبيعة الحال كانت هذه توطئة لصرفه عن بطليوس.^(١)

وهكذا انتهت سياسة الحلف مع بعض ممالك الأسبان المسيحية، بانغماس الموحدين تماماً فى الفتنة الإيبيرية بعامة: ما بين الصراعات الداخلية فى الدويلات المسيحية، وحرب الاسترداد مع الأندلس الكلية. هذا ولو أن الشاعر بن حريون يخاطب أبا يعقوب يوسف فى هذا الشأن قائلاً:

بسعدك أضحى الدين جذلان باسمنا وباسمك أمسى الشرك للشرك هادماً
براهين صدق ما تزال ولم تزل تثبت يقظاناً وتوقظ نائمنا^(٢)

أحوال الشرق الأندلسى ما بين ابن همشك وابن مردنيش

من العرض السابق لأحوال الموحدين فى الأندلس يتضح لنا أن أحوال الغرب (Algarve) تعنى أن نظام الطوائف كان قد اختفى هناك منذ ظهور المريدين، الذى هو أصلاً نظام الرباط والمرابطين من المجاهدين فى سبيل الله. هذا، ولا بأس أيضاً أن كانت سيطرة المرابطين على الأندلس بعد الزلافة من الأسباب الحاسمة فى القضاء على نظام الطوائف فى الغرب (الأندلسى). هذا، كما استكمل الموحدون القضاء على ذلك النظام فى نفس الغرب. وهو الأمر الطبيعى من حيث أن الدولة الموحدية كانت قد قامت تحت شعار التوحيد السياسى القائم بدوره على الوحدة المذهبية.

والحقيقة أن الحالة كانت أفضل فى شرق الأندلس عنها فى الغرب، حيث تحول النظام فى الشرق إلى نظام أسباني إسلامى مشترك السمات، يرجع ظهوره إلى تاريخ الأندلس المبكر حيث كان ظهور عمر بن حفصون (مت ٣٠٥هـ/٩١٧م)، ومن ثم تطور على عهد السيد

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ٣٩٢-٣٩٤، وقارن تلخيص ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ٨٣.

(٢) انظر ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ٨٢.

(Ecid ج ٤ ص ٢٨٥) عهد الطوائف والمرابطين، ومن بعد أخذ شكل إستقرار على عهد الموحدين فى نظام ابن مردنيش وصهره ابن همشك، والذي أصبح ملك الشرق (شرق الأندلس). فكأن الموحدين اعترفوا بالأمر الواقع- وإن كان إلى حين، كما تقضى السياسة أو أصول المجابهة. ولاشك أن تحالف الموحدين فى أول الأمر مع المريدين، كانت مرحلة انتهت بالتحالف مع ليون ضد البرتغال، الأمر الذى أوقف إسترداد البرتغال باسترجاع بطليوس، وهى السياسة التى ظل فى إنتهاجها أبو يعقوب يوسف حتى دفع حياته ثمناً لها فى شنترين سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، كما يأتى.

والمهم هنا أن نجاح الموحدين فى استرجاع بطليوس من برائن البرتغال، بمعونة من ملك ليون يمثل مرحلة جديدة بالنسبة للعلاقة مع كل من أميرى شرق الأندلس المحليين: ابن مردنيش، وابن همشك، وكذلك الأمر بالنسبة لبنى غانية، أمراء المرابطين: ميورقة (جزر البليار).

فبعد استعادة بطليوس كان على الشيخ أبى حفص أن يخرج بقواته من أشبيلية إلى قرطبة لمعاونة السيد أبى إسحق إبراهيم، أخى الخليفة، فى جهاد المحاربين. وهكذا انغلقت أبواب «الغرب» أمام غارات ابن مردنيش وحليفه ونسيبه ابن همشك، ومن يتبعهما من الميليشيات المسيحية.

وفيما كان ابن همشك هو الطرف الأضعف فى ذلك التحالف، كان من الطبيعى أن يكون هو البادئ بالتقرب من الموحدين، وخاصة بعد أن أخذت أخلاق صهره ابن مردنيش تتحول من سئ إلى أسوأ.

وفى ذلك تقول الرواية التى ينقلها ابن صاحب الصلاة: أنه «عندما رَوَّع الشيخ أبو حفص قلوب المحاربين المجاورين لقرطبة... تجلَّت لإبراهيم بن همشك فى هذه المدة من نور الهدى ما أسرج له مصباحاً، أبصر به التوحيد صراحاً». أما رواية ابن صاحب الصلاة نفسه، فتقول، إنه «ببركة هذا الأمر العزيز نشأت البغضاء بين ابن همشك، وصهره ابن

مردنیش سرّاً وإعلناً، وخافه ابن همشك على نفسه فانقطع عن مواصلته وزيارته زماناً. وهو يؤكد بعد ذلك أن ما رُوّع منه وفزع، هو ما قام به (ابن مردنیش) من أعمال شيطانية ضد المقرّبين من أصحابه، مثل: وزبريه ابنى الجّداع، والبناء عليهما برأى منه، وقتله لابن صاحب الصلاة الغرناطى بالجوع.

هذا وعندما استشعر ابن مردنیش الوحشة من جانب حميه ابن همشك ردّ عليه بدون رعاية، فطلق ابنته (زوجته هو)، وطردها إلى أبيها مهانة باكية، هذا كما هدده بالحرب. وعندئذ لم يكن أمام ابن همشك إلا الاستنجاد بالشيخ أبى حفص، فأرسل إليه بالتوحيد والتوبة، وإعلان الرغبة فى تمكين الموحدين من بلاده. هذا، وكرّر خطابه بالوصول بنفسه، والانتباز من طاعة ابن مردنیش، وموالة الكفار.

وفعلأ وصل ابن همشك إلى قرطبة حيث الشيخ أبو حفص، والسيدة أبو إسحق إبراهيم، وذلك فى شهر رمضان سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م. وعندما تمّ الاجتماع معه عاهد الله بالتزام الأمر العزيز المطاع، والدخول فى حكم التوحيد. وقت الكتابة إلى الخليفة أبى يعقوب، بمثابة رجاء العفو من الله، وحسن توبته.

وبعد جواب الأمر العالى بتقريبه: «إتصلت البلاد التى كانت بيده ببلاد الموحدين، فأمنت من الفتنة الطرُق والرفاق (التجار). وتمّ نشر هذا الخبر السار فى كل البلاد.»^(١) وكان من الطبيعى أن يشار ابن مردنیش من ابن همشك فأمر قواده وأجناده أن يفاتنوا بلاد ابن همشك ويحاربوهم، ودامت الفتنة بينهما أكثر من سنة كاملة. وكان ابن همشك يستغيث بحلفائه الجدد الموحدين من عدوه ابن مردنیش، ويستنصرهم عليه.^(٢)

(١) ابن صاحب الصلاة المن بالإمامة، ص ٣٨٨-٣٩١، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ٨٢.

(٢) ابن عذارى الموحدون (هوشى)، ص ٨٢-٨٣، وانظر الأصل فى ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٩٤.

المسألة الأندلسية هي الشغل الشاغل لحكومة

أبى يعقوب يوسف منذ سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م

وهكذا، وبعد أن زادت مسئوليات الحكومة الموحدية منذ حمل أبو يعقوب يوسف لقب أمير المؤمنين، بفضل تحالفات سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، وما ترتب عليها من مهام فى «الغرب» (Algarve)، ومن ثم التحالف مع ابن همشك فى «الشرق» (Levant) سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، الأمر الذى زاد من ثقل المسألة الأندلسية التى لم تعد موضوع جهاد أو دفاع، بل قضية ضمٍّ أو استيعاب، كما يستشف من رواية عبد الواحد المراكشى.^(١)

وبذلك كان على الخليفة أبى يعقوب أن يعيد دراسة المسألة الأندلسية فى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م عن طريق الخبراء فى شئونها، من: الولاة الحفاظ والمشايخ القواد، وحسبما طرأ عليها من المستجدات. وبدأ ذلك بأن استدعى إلى الحضرة السيدان: أبو إبراهيم إسماعيل الوالى بأشبيلية، وأبو إسحق إبراهيم الوالى بقرطبة، كما استدعى معهما الشيخ الحافظ أبو عبد الله بن أبى إبراهيم الوالى بأغرناطة، وذلك مع حفاظهم وعمال البلاد. وكان تحركهم فى جمادى الأولى سنة ٥٦٤هـ/ديسمبر ١١٦٩م، وأقاموا فى الحضرة إلى أول عام ٥٦٥هـ/٢٥ سبتمبر، حيث انصرف السيدان بصحبة أخيهما السيد أبى على الحسن كوال لسبته (المجاز)، بينما أقام الحافظ الشيخ أبو عبد الله بن أبى إبراهيم بالحضرة مع بقاء غرناطة تحت حكمه وأمره، وعباله فيها حتى أجاز فى صحبة السيد الأعلى أبى حفص، مما سبقت الإشارة إليه.^(٢)

(١) المعجب، ص ٢٤٨- وذلك بمناسبة دخول بنى مردنيش فى طاعة الموحدين وعندما استوثق الأمر ليوسف فى سنة ٥٦٧هـ/٧٢-١١٧١م- حيث النص على أنه بدأ ليوسف فى ذلك الوقت «أن يعبر إلى جزيرة الأندلس قصد غزو الروم ظاهراً، مبطناً إتمام تملك الجزيرة، والتغلب على ما فى يد محمد بن سعد بن مردنيش منها...».

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٩٤، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ٨٣.

وفيما كانت الاستعدادات قائمة في الحضرة من أجل عملية الإنقاذ الأندلسية، أتت الأقدار بما لا يشتهي الناس. ففي أواخر تلك السنة (٥٦٤هـ)، في صيف سنة ١١٦٩م: «إختلف الهواء بمراكش» بمعنى انتشار الوباء بشكل عام لم يسلم منه الغنى أو الفقير، حتى مات في المرض كثير من السادات أبناء الأسرة المؤمنية، بل ولم يسلم أمير المؤمنين نفسه من المرض، مما يأتي ذكره.

والمهم أنه مع إقبال سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م صدرت الأوامر الخلافية بتعيينات جديدة، مما سبقت الإشارة إليه، حيث آلت «سبنة وأنظارها وجبال غمارة وأقطارها» إلى السيد أبي على الحسن، والذي تحرك إليها، كما عاد معه السيدان أبو إبراهيم إلى أشبيلية، وأبو إسحق إلى قرطبة. هذا، كما صاحبهم بالأمر الخلفي الحافظ الأسنى أبو يحيى زكريا بن يحيى بن سنان: أحد أبناء أشياخ خمسين النبهاء، والياً على حصون: طبيرة (Tavira) وسنت مرية (Santa Maria): «الفارو»، اليوم، على المحيط، والعليا (قرب شلب) - فعلاً ذكره في الحفاظ، وتميّز عند أمير المؤمنين، الأمر الذي سمح ببقائه في تلك الولاية لمدة ١٢ (اثنتي عشرة) سنة، عندما نقل بالأمر العالي إلى أشغال مدينة مرسية، فكانه زاد رفعة - مما يأتي ذكره.^(١)

الأندلس ما بين غضب الطبيعة وتهديدات قشتالة سنة ٥٦٥هـ/٧٠-١١٦٩م

إذا كانت سنة ٥٦٤هـ/٦٥-١١٦٨م هي سنة الخيرات الطبيعية، وبالتالي الظروف السياسية الحسنة بالنسبة للأندلس، فإن سنة (١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٩٦ - حيث الختام بالقول: «وإنما إختار أمير المؤمنين هذا الحافظ النبيه لهذا الحصن (طبيرة) وخضه به من بعد فتنة وحرية لثقتة عنده ويقطته وذكانه، لضبطه وحزامته، ولأنه أحد الطلبة المتفنيين في العلوم على مذاهب الأئمة بالمعقول والمفهوم، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هويش)، ص ٨٣ - حيث التلخيص الدقيق لرواية ابن صاحب الصلاة.

٥٦٥هـ / ٧٠-١١٦٩م الوافدة كانت سنة أحزان الطبيعة، من : إنحباس المطر والزلازل في الأندلس، كما كانت سنة الوباء في مراكش، والذي هدد العائلة المالكة في صميم ساداتها، فهي بالنسبة لدولة أبي يعقوب يوسف من سنى التعاسة والبؤس. فلقد توقف المطر اللازم للحراث والزروع بالأندلس حتى شهر دجنبر (ديسمبر) العجمي (ربيع الأول والثاني) حيث نزل، فكان الحراث بعد الأوان، وفي نفس السنة، في شهر جمادى الأولى (يناير ١١٧٠م)، حدثت زلازل عظيمة: صباحاً عند طلوع الشمس، وظهراً عند الزوال، وخاصة في مدينة أندوچر التي عانت من ذلك الزلزال عدة أيام، حتى كادت تغوص بها الأرض، كما قاست منه عواصم الأندلس الكبرى: قرطبة وأغرناطة وأشبيلية بصفة خاصة.^(١)

حملة كونت قشتالة نونيه (Nuño)

الوصى على العرش

وكانت فرصة انتهزها الخصوم أصحاب الاسترداد الأسبان ليشأروا مما نزل بهم من الضربات الموحدية. فلقد خرج الأمير الإقطاعي: الكونت نونيه، من عائلة لارا المسيطرة على عرش ملك قشتالة (الفونس الثامن) «الصغير: ابن السليطين»، من طليطلة (دمرها الله)، وأغار على أراضى رُنْدة وجبالها في أقصى الجنوب (جنوب غرب انتيقييره، بين جبل الثلج ونهر لكّه على سمت شريش)، ووصل إلى الجزيرة الخضراء وجبالها أيضاً، ليصل إلى البحر، وهو يقتل المسلمين في تلك الأقطار والأنظار، ويأسرهم ويكتسح سائمتهم.

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٩٧- حيث «فكان الرائي بعينه يرى حيطان الديار تضطرب، وتقبل حتى إلى الأرض، ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعالى- وتهدمت من ذلك مواضع ديار كثيرة في البلاد المذكورة، وصوامع مساجدها- هذا ويلاحظ المحقق: عدم تحدث المؤرخين عن هذا الزلزال، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هويش) ص ٨٤- حيث اضطراب النص بعض الشيء.

غدر بطليوس من جديد على يدي جرانده الغادر (جيرالدو سيمبافور)

والى جانب غارة الكونت نونيّه هذه، والتي تذكر بحملة الفونس المحارب الأراجوني حتى المضيق، كانت بطليوس تعاني مرة أخرى من تضيق جرانده الغادر (جيرالدو سيمبافور). ففي شهر رجب من سنة ٥٦٥هـ/مارس-أبريل ١١٧٠م، كان قد أحكم الخناق عليها حتى منع عنها الميرة- الأمر الذي كان يهدد المدينة بالجوع. وهنا فكر الموحدون بأشبيلية في أن يقوموا بحملة إمداد كبرى تكفي المدينة لمدة طويلة، وتقع المغامر الجليقي بعدم جدوى الحصار بعد ذلك. وفعلاً تم جمع ميرة موفورة من الطعام والآلات والمحلات للحمل إليها. وتم حمل ذلك الطعام على نحو ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) دابة، «تقدم عليها للتوصيل الحافظ أبو يحيى زكريا بن علي بعسكر أشبيلية وجهاتها من الموحدين والأجناد الأندلسيين.

وعندما اقتربت القافلة الشهيّة من مدينة بطليوس خرج عليها اللعين جرانده الغادر بجمعه الذميم من النصارى، وأهل شتتين. والمهم أنه لم ينجح المسلمون في الدفاع عن طعامهم، فبعد الحرب مدة طويلة من النهار، إنهمزم المسلمون، وقتلوا وأسروا، وانتهت الميرة وذهبت بكليتها، وذلك يوم الخميس ٢٦ من شعبان سنة ٥٦٥هـ/١٧ مايو ١١٧٠م- حيث أسفر اللقاء عن استشهاد الحافظ أبي يحيى زكريا- وكان للهزيمة صدى حزين بكل من قرطبة حيث الشيخ أبو حفص، وأشبيلية. وأخطرت الحاضرة بذلك.

أوقات صعبة تقربها الحاضرة مراكش الوباء والعائلة المالكة

في ذلك الوقت من سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م كانت مدينة مراكش تعاني من القحط والوباء الذي ضرب عدداً من أفراد الأسرة المؤمينة: الإخوة السادات، وأصاب بالمرض أمير المؤمنين أبا يعقوب يوسف، حتى «ضعف عن الحركة للغزوة التي وعدها جميع الموحدون بالأندلس من الوصول.

إليه، في كتابه الذى وجهه إليه فى صحبة الشيخ أبى عبد الله
(مما سبق) فتأخرت حركته.

والمهم أن أبا يعقوب (الذى حمل بحق لقب أعظم بنى عبد المؤمن) رغم
ما ألم به من المرض ومن ثم الضعف، كان يعد العدة ليبر بالوعد الذى
قطعه على نفسه، من عملية إنقاذ الأندلس التى كانت تدور بخاطره.
فهو «لم يزل فى حال استدعاء للعرب من إفريقيا، والموحدين من كل جهة
(كما) أعطاهم وكساهم»، الأمر الذى سيمكنه حين «يستقل» (يشفى
ويبل من المرض) أن ينجز ما وعد به (سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م- مما يأتى).

الحاضرة مراکش تستجيب لاستغاثة حليفها ابن همشك فى شرق الأندلس

كانت سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م سنة كبيسة، كما يقال بالنسبة للموقف
بالأندلس، حيث انفتحت الجبهات: الغربية والشرقية دفعة واحدة. ففى
الغربية كانت المواجهة مع ابن الرنك: ملك البرتغال، والكونت نونيه
(Nuño) آل لارا الوصى على عرش قشتالة، وفى الشرق كانت مملكة ابن
مردنيش فى مرسية وبلنسية، وشريكه المنشق ابن همشك: حليف الموحدين.
والحقيقة أن كلا من الجبهتين كانت توالى الاستغاثة بالحاضرة مراکش، وكان
الخليفة أبو يعقوب يخطط لعملية الإنقاذ وقتما تسمح له الظروف بابلاله
من المرض. ولما كان الحاج ابن مردنيش بالعدوان على بلاد ابن همشك قد
خرج عن حدود الاتزان، مما سبقت الإشارة إليه، فقد اتفق الرأى فى
مراكش، بمشورة من الشيخ أبى حفص بالأندلس، على إرسال حملة تكون
مقدمة حملة أمير المؤمنين المنتظرة، وتكون وجهتها بلاد الشرق، كعملية
إنقاذ لبلاد ابن همشك الموحدية. وكان من الطبيعى أن يعهد بقيادة تلك
الحملة إلى السيد الأجل شقيق الخليفة وحاجبه، وذلك تحت شعار «تلافى
الخطر عن جزيرة الأندلس، وغزو ابن مردنيش والنصارى معه، وحصاره فى
مرسية قاعدته، ومقارنته فى داره وحاضرتة».^(١)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٩٩، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هروشى)،

وخرج السيد الأعلى أبو حفص، في غزوته لابن مردنيش هذه، من حضرة مراکش في أول شهر ذي القعدة سنة ٥٦٥هـ/١٧ يولييه، مستعجلاً، مسارعاً لنصر جزيرة الأندلس، لمن إستصرخ به ممن وجدوا واستعدوا، لغزو من عاداه». وكان في صحبته «على عادته» أخوه السيد أبو سعيد (عثمان)، وجماعة من عليه أشياخ الجماعة، منهم: أبو عبد الله بن أبي إبراهيم، وأبو يعقوب يوسف بن تيجيت، وممن يليهم من حفاظ أهل خمسين. أما عن الصنف الأندلسي فقد اصطحب منهم الداهية: أبا محمد سيد رأي بن وزير، وأخاه أبا الحسن على، إلى جانب أبطال من فرسانهم الأجناد الساكنين بحضرة مراکش، إنتخبهم واستصحبهم لمعرفة بالآندلس وحروبها، إلى جانب مشاورتهم فيما يتاح إليه من الأمور ومعرفة الثغور.

اللقاء مع ابن همشك والدفاع أولاً عن بطليوس؛

وسار السيد الأعلى أبو حفص تقدمه أعلامه حتى أجاز بعسكره البحر إلى العدو الأندلسية، وكان وصوله إلى أشبيلية في أول عام ٥٦٦هـ/٤ سبتمبر ١١٧٠م. وهناك استراح بعض الوقت من أجل الاجتماع بالشيخ أبي حفص الهنتاتي الذي وصل إليه من قرطبة وفي صحبته إبراهيم بن همشك بأصحابه المختصين به. فاجتمعوا وتشاوروا في الرأي فيما يكون أو الغزو بالمشى، فقرروا الآتي:

- أن يتوجه السيد الأسنى أبو سعيد (عثمان)، في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م، أولاً إلى مدينة بطليوس لإحياء اسمها بعد مماتها، وإخراج النصارى بالدفاع عن جهاتها. وسار إليها السيد أبو سعيد بعسكر من الموحدين والأندلسيين والعرب، ومعه ابن وزير وابن عزون لمعرفة لهما بشفر بطليوس.

ومن حسن الطالع أن وافق وصوله خروج فرنانده الببوج ابن السليطين، في هذا التاريخ قاصداً بطليوس ليسترجع ملكها وأخذها من أيدي المسلمين، لما رأى ابن الرنك عدوه قد قارب التغلب عليها مرة ثانية بالحاح

جرانده (جبرالدو) على أنظارها. وقال لنفسه «إنه أولى بها دفاعاً لعدوه». وصحّت فعلاً مسألة خروجه هذه، وأنه وصل بعسكره وآلات سكنائها بالفحص المعروف بالزلاقة (حيث وقعة سنة ٤٧٩هـ). وهنا بعث إليه السيد أبو سعيد جماعة من أشياخ الأندلس وأشياخ الأجناد العقلاء الأولياء «للقائه وإيلافه على أوله... وهل باق على الصلح المربوط معه أم لا» ورداً على ذلك قال الببوج: «إنما خرجت لحمايتها وإمساكها لأمير المؤمنين». وانتهى الأمر بلقائه بالسيد أبي سعيد، وتجديد الصلح بينهما.

هذا «وتكلم ابن وزير وابن عزون مع ترجمانه بما يصلح من الصلح بينهما حتى كمل الغرض المراد، واتصل العهد والسداد». والمهم أنه إلى جانب تجديد الصلح مع فرنانده الببوج كان على السيد أبي سعيد أن ينهض بعسكره المبارك إلى حصن جلمانية، وينازله، بل ويفتحه ويطرده منه جرانده الغادر (جبرالدو سيمبادور)، ومن ثم يهدمه، بمعنى إعادة الحياة من جديد إلى بطليوس.^(١)

غزو ابن مردنيش في عقرداره بالشرق :

بتأكيد الصلح مع الببوج، وتأمين بطليوس وإحياء نظرها بطرد جرانده الغادر (جبرالدو سيمبادور) من حصن جلمانية وتسويته بالأرض يكون الموحدون قد نجحوا في تهددين الغرب تمهيداً لاسترجاع ما كان قد استرده ابن الرنك (ملك البرتغال) من الأراضي الإسلامية. وهكذا كان علي السيد الأجل أبي حفص أن يتفرغ لبسط السيادة الموحدية على أراضى ابن همشك الموحدية، والعمل على غزو مملكة ابن مردنيش في الشرق، في: مرسية

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٣٩٩-٤٠٢ - حيث وصف ابن وزير للقائه مع الببوج، وكيف أنه أخفى على ترجمانه معرفته الإسبانية العجمية لكي يفهم حقيقة أمره، وكيف لاطفه في الصلح حتى أكمل، وكيف سرق أرذال النصارى المتصرفين في الخبء عمامة رأسه في غفلة منه، وكيف أن السيد /أبا سعيد أخذ عمامة رأسه ودفعها إليه، وطلب لنفسه عمامة أخرى؛ وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوشي) ص ٨٥-٨٦ حيث تلخيص نفس الرواية مع بعض الهنات.

وبلنسية وأنظارهما.

وهكذا تحرك السيد الأعلى أبو حفص من أشبيلية وبصحبتة أخوه السيد الأسنى أبو سعيد، والشيخ أبو حفص الهنتاتى، وفى معيتهم الزعيم الأندلسى إبراهيم بن هـمـشك، وذلك فى أول رجب سنة ٥٦٦ هـ/ ١٥ مارس ١١٧١ م. وبعد إقامة أيام فى قرطبة خرجوا مصممين على الغزو. وكانت أول مدينة ينزلون عليها من مدن ابن مردنيش هى: قيجاطة (أو قيشاطة Quesada)، والواقعة فى شمال شرق جيان. ولم يكن فتح قيشاطة سهلاً، إذ تطلب الأمر القتال والنزال قبل القبض على قائدها الشرقى الذى ضربت رأسه برأى ابن همشك- فكان المسألة ثارات بين الخلفين السابقين.

ومن قيشاطة الفتح طريق الشرق إلى مرسية، حيث اكتسحت بسائط بلاد ابن مردنيش. وقرب مرسية غلبوا على حصن الفرج الذى كان متنزها لابن مردنيش، كما غلبوا على القرى والبساتين، وكل ذلك بإرشاد ابن همشك.

ومنذ بدأ حصار مرسية ظهرت الغلبة على عسكر ابن مردنيش، كما ظهر الخور على كل من كان بصحبته من العسكر الأسباني المسيحي. ويستدل على ذلك من أنه عندما أراد أن يحشد منهم عسكراً يتقوى به على ضبط مدينة لورقة، لم يتيسر له أكثر من ٤٠٠ (أربعمائة) فارس، أرسلهم إلى قائده المقرب إليه هناك، وهو: أبو عثمان بن عيسى الذى أضافهم إلى عسكره الذى كان يضبط به قصبة المدينة.

والظاهر أن وصول العسكر الأسباني المسيحي إلى لورقة كان يثير خواطر أهل المدينة الذين لقوا معاملة جائرة من قبل عمال ابن مردنيش، وتلك المعاملة القاسية كانت تنسب إلى ضيق ابن مردنيش بصعوبة موقفه الذى سبب له الخلل والاعتلال النفسى الذى أمرضه جسدياً وذهنياً.

والهم أن العامة من أهل لورقة قاموا على النصارى، وعلى من معهم

من أصحاب ابن مردنیش، عزادوا بالتوحيد. وبذلك خاطب زعماءهم السيد الأجل أبا حفص، وهو يحاصر مرسية، فسار إليهم بنفسه، «واحتل مدينة لورقة، وملكها واستوطن بعسكره المنصور أرياضها ورياضها ونسائطها». أما عن قصبة لورقة فقد صمدت لبعض الوقت، بل وكانت تحاول مناوشة الموحدين خارج القسبة حتى أن ابن القائد أبى عثمان أخذ أسيراً فى بعض طلعاتهم هذه، ولم تنجح المساومة فى تحريره نظير الاستسلام. مع اشتداد الحصر والجوع والعطش، ومع تدخل ابن همشك نزل أبو عثمان بن عيسى على الأمان عن القسبة مع النصارى وأصحابه، وأجلوها، ودخلها الموحدون، بينما رجع القائد أبو عثمان وأصحابه وإبنه محمد إلى مرسية.

حصار مرسية :

وهكذا لم يبق لابن مردنیش سوى مرسية التى صدرت الأوامر من مراکش بإحكام حصرها. وأثناء حصار مرسية نجح الموحدون فى الاستيلاء على حصن إلج (Elche). كما صدر الأمر للشيخ أبى عبد الله ابن أبى إبراهيم بالمسير إلى مدينة بسطة ففتحها. وبسقوط بسطة بادر أهل جزيرة شقر بالطاعة والتوحيد، وقاموا على النصارى الذين عندهم وأخرجوهم من بلدتهم.

والمهم أنه أثناء حصار مرسية كانت أحوال ابن مردنیش تسير من سئ إلى أسوأ، من: إنقلاب إخوته على طاعته وأصهاره، إلى جانب ظهور التقصير من أخيه يوسف فى منازلة جزيرة شقر، وفى قتال عدوه ابن هلال، الأمر الذى أدى إلى ملازمة العلة المزمته التى كانت سبب منيته.

توحيد محمد بن مردنیش :

وخلال تلك الغزوة وحصار مرسية قام بالمرية (Almeria) محمد بن مردنیش (ابن العم) المعروف بابن صاحب البسيط، وأعاناه على قيامه محمد بن هلال، فوجدوا وخاطبوا السيد الأعلى أبا حفص بالمحلة المؤيدة، فوجه إليهم عسكراً من الموحدين، معيناً لهم^(١)، حيث انتقم ابن مردنیش (١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٠٣-٤٠٧ .

من ابن عمه محمد « فأمر بقتل أخت نفسه: زوج محمد بن عمه (صاحب البسيط) ، بل ويقتل بنيه منها ، وقطع رحمه عنها ، فأخذ ابن الراعي الموكل بالعذاب فأغرقهم في البحيرة قرب بلنسية . « واختل ذهن ابن مردنيش في إثر ذلك ، وعاد صبحه كالليل الخالك ، وفزع من إذايته أهله وقرباته وشيعته وخاصته ، واختلت - بالتالي - جبايته وحالته »^(١).

وبذلك كانت أحوال الغرب والشرق وقد تمهدت ، في الوقت الذي كانت صحة الخليفة أبي يعقوب يوسف قد تحسنت ، فكان جوازه إلى الأندلس ، واهتمامه بأحوالها على كل المستويات ، من داخلية وخارجية ، الأمر الذي سيستطلب بقاءه في الأندلس لمدة حوالى خمس سنوات حافلة بجليل الأعمال ، فكان الدولة الموحدية ، ابتداء من عهده هذا ، قد أصبحت أندلسية الصبغة أكثر منها مغربية ، كما بدأت أصلاً . وهذه طبيعة الأشياء ، فالأمم الوحشية المتغلبة عادة ما تنصبغ بحضارة المغلوب ، رغم كلفه في البداية على الأقل ، بتقليد الغالب في لغته وعاداته - حسب بعض نظريات ابن خلدون .

(١) قارن ابن عذارى ، الموحدون (هوشى) ، ص ٨٧-٨٨ .



جواز أبي يعقوب يوسف إلى الأندلس :

وهكذا كان « اتصال هذا الفتح واليمن الشامل »، من: الإنتصار على الأعداء، وتضييق الخناق عليهم بالحصار بمثابة إشارة الضوء الأخضر لخروج الخليفة نفسه، بصفته القائد الأعلى للجيش الموحدية. وهذا ما كان قد تمّ الإتفاق عليه من البداية، لولا المرض الذي ألمّ به في أوائل سنة ٥٦٥هـ/أواخر ١١٦٩م، والذي استمر يعانى منه خلال ١٤ (أربعة عشر) شهراً طوالاً، لم يتوقف فيها عن العمل بمعونة وزيره أبي العلاء بن جامع.^(١)

استدعاء عرب أفريقية للجهاد :

ومما يذكر لأبي يعقوب يوسف في هذا الشأن: الإعداد لحملة الغزو (١) إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٠٩ - حيث أن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين لم يزل ينظر في الغزوة التي وعد بها الموحدين ... مع ضعفه، فإن مرضه كان في أول سنة ٥٦٥هـ/سبتمبر ١١٦٩م، فكانها « غيبة » ال ١٤ شهراً و ١٥ يوماً. لكنه كان يدخل إليه وزيره أبو العلاء إدريس بن أبي إسحق بن جامع يعلمه بالمخاطبات الواصلة، والأحوال المسلية السارة المتجاملة، ويحضر معه الأطباء الأولياء: أبو مسروان بن قاسم (قسطبى ت ٥٧٥هـ/ ٨٠ - ١١٧٩م، وأبو بكر بن طفيل (ت ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م)، وغيرهما، ينظرون فيما يصلح به من الشراب والغذاء، وجميع الأشياء. هذا، كما كان يدخل معهم الفقيه أبو محمد عبد الله المالقي الذي كان بمثابة الوزير المستشار، الأمين، من حيث مشيخته لطلاب الحضر، وكذلك الأمر بالنسبة لأشياخ الموحدين، كأبي محمد عبد الواحد بن عمر وغيره، ممن كانوا يحققون الدعاء له بالشفاء إذا جلسوا. وواضح من النص الخاص بمدة المرض أنها كانت معتبرة كنوع من « الغيبة ». ويتأكد من ذلك بالنص الذي يقول (ص ٤١): « فمتى طرأت مخاطبة من السيد الأعلى على أخيه (من الأندلس) في معنى الغزو أمر على حاله بالجواب عليها، وإذا وصلت شرح له ما إتصل لديها، وغير ذلك عليه السكوت... » وقارن إبن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ٨٨ - حيث التلخيص المفيد من قبل مؤرخ المغرب الكبير.

الأندلسية، مكاتبته عرب أفريقية في شأن التحريض على الجهاد. فهو « يستدعيهم إلى الغزوة العظمى التي في نيته... ويصفهم فيها بما هم فيه من الشهامة والزعامة»، مما يرد في قصيدة ابن طفيل (الفيلسوف) التي خاطبهم فيها، ومنها:

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب لغزو الأعداء وإقتناء الرغائب
ألقابعثوها همّة عربية تحف بأطراف القنا والقواضب
أفرسان قيس بن هلال بن عامر وما جمعت من طاعن ومضارب
بكم نصر الإسلام بدأ فنصره عليكم وهذا عوده جدد واجب
حذار فإعراض الفتى عن نجاته وتضييعه للحزم إحدى المعايب
وما خلّق الأعراب أخلاف موعدي ولكن صدق الوعد خلّق الأعراب^(١)

هذا وعندما تأخر العرب في الرد قليلاً، خاطبهم يستعجلهم، ويذكر لهم « نيته العازمة على الجهاد، ويسترحلهم بقصيدة من إنشاء كاتبه ابن عباس» وما فيها يقول:

أقيموا إلى العليا عوج الرواحل وقودوا إلى الهيجا جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر وشدوا على الأعداء شدة صائل
بها تفتح الدنيا وتبلغ المنى بها ينصف التحقيق من كل باطل
بجيش يضل الطير في محراته وتحجب عنه الشمس سحب القساطل
ويطلع ليل النقع فيه كواكباً من البيض أم من مرهفات المناصل
فلاتنوا نوافل البدار غنيمه وللمدلج السارى صفاء المناصل^(٢)

وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة: إنه لما وصلت هاتان القصيدتان بنواحي أفريقية والزاب والقيروان وتبينت لهم معانيها، وفصاحتها، ومن (١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤١١-٤١٤، وقارن ابن عذاري، الموحدون (هوشي)، ص ٨٨-٨٩.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤١٥-٤١٧، وقارن ابن عذاري، الموحدون (هوشي)، ص ٨٩-٩٠.

التحريض على الجهاد، «أجابوا إلى الطاعة، على حكم الإستطاعة، بأكمل البدار»، وهنا يشير صاحب «المن» إلى حتمية الخضوع للأمير الموحدى العزيز، ويضرب لذلك مثلاً ينفرد به، ألا وهو محاولة شيخ بنى رياح وزعيمهم جبارة ابن أبي العينين، حينما فرّ بنفسه إلى بلاد مصر والحجاز واليمن فى محاولة لضم العرب هناك إلى جانبه من أجل الصمود أمام الموحدين، «فلم ير فى تلك الأصقاع من يرقد لها رعداً»، فإقتاد راحلته ميمما هذا المغرب الأقصى الذى ظهر فيه نور العدل... ونور خليفة أمير المؤمنين الأعدل، سيدنا الإمام أبى يعقوب-رضه.

والمهم من كل ذلك أن جبارة عندما عاد من رحلته المناهضة لطاعة الموحدين، وجد أكثر أبناء عمه قد بادروا إلى طاعة هذا الأمر العزيز، والحركة إلى الجهاد الكريم. فأسرع إلى خشد قبيلته ولحق بهم أولاً إلى السيد الأسنى أبى زكريا يحيى (أخى يوسف) بمدينة بجاية، حيث طلب منه العفو، فوجد عنده الصفح والعفو ما يجده عند سيد كريم.

ومن المهم أيضاً أن السيد أبا زكريا تحرك إلى الحضرة مراکش، فأقبل العرب تحت لوائه، متبركين بصحبته ودعائه. هذا، كما وصل من أفريقية من العمال (الجباة) والأمناء: أبو محمد عبد الواحد أقوسجور صاحب تونس وأنظارها، وأبو زكريا يحيى ومنصور الهنتاتى، والنعمان... بهؤلاء العرب والأموال، والخييل العرب، العتاق الأحساب، المدرية عند الأعراب.

ولما وصلوا إلى مدينة تلمسان صاحبهم السيد / أبو عمران بن الخليفة (؟) أيضاً بمن عنده من العساكر والعمال بالأموال، مع عاملهم أبى الربيع بن عبد النور، وبالأعداد الوفيرة من الخيل المسومة. وهنا تقول الرواية: «واجتمع الجميع، وصحبهم السامع المطيع» (الذى يقصد به مؤرخنا ابن صاحب الصلاة نفسه). ولما اقتربوا من العاصمة مراکش صدر الأمر بالرفق فى المشى، والوصول فى هيئة وقورة، حفاظاً على الخيل العتاق، فامتثل الجميع للأمر، وكان عدد الخيل الواصلة من أفريقية

٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فرساً، و١٥٠ (مائة وخمسون) جملاً من المال الصامت.^(١)

استقبال حافل لمجاهدى إفريقية والمغرب الأوسط؛

ومن حسن الطالع أن أمير المؤمنين أبا يعقوب كان فى ذلك الوقت قد استقل وشفى من المرض، فتمكن سروره بوفود السيدين والعرب، وعزم بأن يكون خروجه أولاً إلى المسجد الجامع. وكان الخروج إلى الجامع لأداء الفريضة، بعد اتصال المرض، يوماً مشهوداً، وهو يوم الجمعة ١٦ ربيع الأول ٥٦٦هـ/ ٢٨ نوفمبر ١١٧٠م. أما خطيب الجمعة فكان الفقيه أبو محمد المالقى، الذى راعى مقتضى الحال، فأسرع فى الخطبة وفى الصلاة بالتخفيف على الخليفة الذى كان فى دور النقاهة. وفهم الناس واستبشروا بشفائه- وانتظروا على يديه اليمن والخير.

وعندما صاح الناس بظلاماتهم فى الجامع، أمر الخليفة «بكتب مسائلهم، وفهم من عدله قضاء وسائلهم».

وفى يوم السبت التالى (١٧ ربيع الأول) تقرر النظر فى إقامة الحدود على أهل التعدى، كما صدر الأمر إلى القاضى أبى يوسف حجاج بن يوسف بتطلع أحوال المسجونين، وإنصاف المظلومين من أهل الشكايات.

وفى يوم الإثنين (١٩ ربيع الأول) أمر بفتح مجلس بباب القصر الذى كان مغلقاً، وهو المعروف بباب الإسطوان (الإيوان)، والذى كانت تعرف سقائفه بالإسم المحلى «مُنتَقِيمي» (Emin-Tgemmi) أى باب السدار، والذى كانت قد أعدت له كسوة، فتم إعداداه فى حصور العدد الوفير من الموحدين، حيث بسطت فى المكان (السقائف) أحمال الحمصى والرمل، وفرشت وسط صحن الدار الذى يمشى فيه الناس.

وبعد تجهيز الأسطوان (الإيوان) جلس أبو يعقوب، بينما كان الوزير أبو

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤١٧-٤١٩، وقارن ابن عذارى، ص ٩٠.

العلاء إدريس بن أبي إسحق، والأخ السيد/ أبو محمد عبد الله، يقومان بترتيب الناس في الدخول عليه على طبقاتهم، من: أشياخ الموحدين، وأشياخ طلبة الحضرة، فكانوا يسلمون عليه ويدعون له، ويهنئونه على السلامة والعافية. أما أشياخ الناس الذين استدعوا بعد ذلك، من: الأجناد، ورجال الدين والخاصة من الوافدين، فكانوا يدخلون «للسلام دون كلام».

هذا، كما أقيمت الخطب باللغتين الغربية (البربرية للموحدين) والعربية (الرسمية) بالتهنئة وشكر الله على العافية والشفافية، والدعاء بالنصر والتأييد.^(١)

وبمناسبة العافية والشفاء تصدق الخليفة على الضعفاء والوافدين من الغرباء، حيث كان يصيب البعض منهم ما يناهز الـ ٣٠ (ثلاثين) ديناراً. وكان العطف على هؤلاء المساكين يستدر أبتها لهم بالدعاء في دوام الأمر العزيز بالنصر والعافية الشاملة.^(٢)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤١٩-٤٢٠- حيث الإشارة إلى أن خطيب اللسان الغربي هو الشيخ الزاهد: أبو محمد عبد الواحد بن عمر، أما خطيبا العربية فهما: القاضي أبو يوسف حجاج والفقيه أبو محمد المالقى، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ٩٠.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٢١-٤٢٨- حيث التركيز على الشاعر الأندلسى المسن: أبو الحكم بن رضى البنسى الذى تشرّد خارج بلده، وأقام بالحضرة مراكش مدة سنتين فى ضيق شديد، رغم اتصاله بالوزير ابن جامع والفقيه المالقى، الى أن كان شفاء أبى يعقوب واستقلاله فرصة للدخول عليه، وتقبيل اليد المباركة، ومن ثم إنشاده لقصيدة تعبر عن ثقافة العصر، مما يتعلق بالدعوة المهدية (التومرتية) والأسرة المؤمنية كمقدمة لمقام الأمر العزيز العالى، وان لم يعبر عن المناسبة (مناسبة الاستقلال والشفاء)، ومنها:

مسامرى وخبىر القوم مسئول	حدث فقولك مسموع ومقبول
ألت عن سير المهدي تخبرنا	ومن عن الله نبى عنه جبريل
وعن حواريه الأسنى وصفوته	وسيفه حين سيف الدين مغلول
وعن بنيه مصابيح الهدى ظهرت	فى كل داجنة منهم قناديل
وسعد حديث أبى يعقوب عن طرق	ففى مسامعها المأمول والسول
إلى إمام الهدى أسرت بأرجلنا	ريح الشمال والإفالشاميل
ولم تدع مردنيشا عند حولتها	يوم العروبة إلا وهو مذهبول
مولاي لم لى أمنى النفس من سنة	بذا المقام وجدى فيه مطول

البروز لاستقبال العرب الوافدين من إفريقية :

عندما عُرف أن وصول السيدين: أبي زكريا يحيى وأبى عمران مع العرب هو ضحوة السبت، ربيع الآخر ٥٦٦هـ/ ١٤ ديسمبر ١١٧٠م، صدرت الأوامر لجميع الموحدين والعسكر الموجودين بالحضرة أن يكونوا على استعداد للعرض « فى مراكبهم وهياتهم ». وهكذا « قسمت عليهم الدروع والبيضات والرماح والدق والأسلحة والكسوات والعلامات (الشارات) والرايات ».

وفى صبحية السبت المذكور بكرّ الجميع، هن: الحفاظ والطلبة من الموحدين، وجميع القبائل من العسكر إلى السدة العظمى، وهى كما نرى باب الأسطون أو باب السقائف (منتقى)، والذى فرش بالحصى والرمل من أجل اللقاء بين الخليفة والوزير ابن جامع الذى كان يشغل فى نفس الوقت وظيفة الحجابة، فلا يصدر شئ إلا عن رأيه، ولا تنتجز عدة من أمر الخليفة إلا عن شفاعته وسعيه.

وعندما اكتمل ترتيب الاحتفال، من: إحضار الطبول التذكارية المربعة الشكل، والتى ترجع إلى أيام ابن تومرت، وكمل عددها إلى ١٠٠ (مائة) طبل، بعد أن ترادف الموحدون زمراً زمراً حتى كمل الاجتماع، إستوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الأغر، وهى أول ركبة من حين مرضه. وكان الوزير أبو العلاء بن جامع راجلاً على قدميه إلى جواره ليسرع نحو أهل الحاجات أو الشكايات: كتابة أو كلاماً أو إشارة.

=عند إنتهاء إنشاء تلك القصيدة التى بلغت أبياتها ٧٢ بيتاً، حسنَ أشياخ المجلس العالى إنشاء قصولها ومعانيها، وصوبوا أغراضها ومبانيها، فأمر الخليفة بإسهام بمدينة مالقة وزاد، وانصرف الرجل مملوءاً بالحقائب، ويده ظهير كريم بالتنويه به فى البلاد، وبمواساة مستمرة له فى ديوان العمل بالغير المعتاد. ولابأس من الإشارة هنا إلى الظهير الذى أنعم به على مؤرخنا ابن صاحب الصلاة بهذه المناسبة، وهو ظهير كريم ومواساة معها: « أعانتنى على الزمان الذميم وأغنتنى عن

ولى العهد المخلوع:

هذا وكان السيد/ أبو عبد الله محمد المخلوع يقف فى ساقه (مؤخرة موكب) أخيه الخليفة على قرب منه- الأمر الذى يعتبر شهادة حسن ظن فى نظام الأسرة الحاكمة المؤمنية، كما نرى، وهذا لا يمنع من كونه عملاً احترازياً.

وفوق رؤوس أهل الساقه الملكية كانت ترفرف أمام العسكر ١٦ (سته عشر) علماً من البنود الكبار، ويبد كل رجل من أعيان الموحدين علم، وعليه درع تلمع لمعان اللجين الخالص فى الشمس. وكذلك سائر الأجناد، من: الحشم (المرايطين) والروم (النصارى) والعبيد (السودان)- وعلى الجملة كل الناس.

وأما عن مكان اللقاء، فلما كانت المواضع المتصلة بالمدينة قد ضاقت أفنتيتها لسعة البحائر والجنات، فقد إتفق رأى الخليفة أن يكون فيما وراء الشريعة (مصلى العيد)، فى الفحص العريض هناك. وهكذا سار موكبه والطبول قاصفة، والجيوش متكاثفة، إلى الموضع الذى وقع عليه الاختيار، حيث أمر بضرب خباء (خيمة كبيرة) نزل فيه مع إخوته وبنيه.

وعندما اجتمع الوافدون من عرب إفريقية بالخارجين لاستقبالهم (البارزين) من عسكر (الحضرة)، أشار الخليفة بالقيام بعرض تدريبى بين الجانبين. فحملت البعض فيهم على البعض «جرباً ولعباً وفرحاً وطرباً، فرأى الحاضرون والناظرون منهم عجباً». واستمر ذلك العرض العسكرى الترفيهى مدة، والطبول تضرب إلى أن مضى أكثر النهار.

ثم كان على الوافدين النزول للسلام، فتقدمهم الأخوان السيدان: أبو زكريا وأبو عمران، وتبعهما أشياخ الموحدين وأشياخ العرب، وفيهم على بن منتصر شيخ بجاية وأنظارها- وهو الذى ظهر فى تلك الغزوة إلى أن قتل- ثم جميع الوافدين من الناس على بكرة أبيهم.

وبعد السلام أمر الخليفة الجميع بالانصراف إلى مدينة مراکش، فى

منازلهم المعينة لهم. بينما انصرفت عامة العرب إلى محلتهم التي حدّدت لهم. وكان موكب دخول أمير المؤمنين أبى يعقوب إلى داره بالحضرة من المناظر الغريبة العجيبة التي بُهت الناس منها وكأنها «عرساً من الأعراس»^(١).

وفى اليوم الثانى (٣ ربيع الآخر ٥٦٦هـ/ ٥ ديسمبر ١١٧٠م) صدر الأمر بمبايعة أمراء العرب، وتمت تلك البيعة فى اليوم الذى يليه (٤ ربيع الثانى/ ٦ ديسمبر). وقادت بيعتهم إلى الأربعاء ٢٠ ربيع الآخر، فكأنها استمرت ١٧ (سبعة عشر) يوماً- زيادة للطاعة وتأكيداً، على ما نظن.

ضيافة الغزاة: الخروج إلى بساتين البحيرة ما بين الطعام والشراب

بعد استراحة الأربعاء ٢١ ربيع الآخر من المبايعة العربية، وبعد أداء صلاة الجمعة ٢٢ ربيع الآخر كان خروج الخليفة يوسف من الحضرة إلى البحيرة، حيث «أطعم العرب والناس الوافدين، وغيرهم مدة ١٥ (خمس عشرة) يوماً. والحقيقة أنه لم يكن من الممكن إطعام الآلاف المؤلفة من الفرسان والمشاة من الضيوف الوافدين، ومن يلوذ بهم من الحشم والتابعين، فضلاً عن أهل الحضرة المضيفين من العسكر وغيرهم. وبناء على ذلك كان من المقرر أن يستضيف الأدبون فى البحيرة ما يزيد على ٣ (ثلاثة) آلاف رجل- يومياً.

ولا بأس من الإشارة هنا إلى ما جرت عليه العادة فى بلاد السوس، من تكريم الضيوف بشراب الرب، المصنوع من عصير العنب الحلو المطبوخ، والمزوج بالماء ليصبح شراباً ترفيهاً. فكانت الحال أنه كل ما أكلت طائفة وقامت، مشّت إلى موضع الخليفة- رضه- وسلمت عليه ودعا لها،

ونَهَضَتْ إلى ساقية (نهر من رب) تشرب وتطرب.^(٢)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٣٠-٤٣٣، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ٦١- حيث ١٦ بنداً من البنود المذهبة؟.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٣٣، وقارن ابن عذارى، الموحدون، (هوى)، ص ٩١؛ وانظر ج ٥.

ولم يكن من الغريب بالنسبة لثل هذه المآدب الملكية الضخمة، حيث ما
لذ وطاب من الطعام والشراب أن يدور حولها ما يزعج أصحابها. وهذا ما
حدث بالفعل عندما وقعت في بعض الأيام «هوشة بين صبيان الموحدين
الذين يسكنون دوابهم خارج (بساتين) البحيرة، وبين أتباع العرب، وأدت
إلى اختطاف الثياب واستلاب الجلباب، وتحزب الجهال من الأعراب
بالأحزاب، حتى وصل ذلك الأمر إلى باب الدار (الخلافية) عند الحجاب». ^١
وعندما المجت الغمة عن سلب كثير من الناس في الطريق، بل وموت ٤
(أربعة) أشخاص من عبيد الناس وأحرارهم، وبلغ ذلك أصير المؤمنين...
«أقلقه التعدي في باب سدته، ولصق حضرته، أمر برفع الطعام مدة ٣
(ثلاثة) أيام، عتباً على العرب بسبب جرأتهم على سوء الأدب».

وبعد طلب العفو، والاعتذار من جانب العرب عما جناه أتباعهم
وعبيدهم، «قبل الإمام توبتهم، وأمر بصرف إطعامهم، والتماذي على
إكرامهم». وكان على المأدبة أن تستمر إلى ٥ جمادى الأولى
٥٦٦هـ/ ١٥ يناير ١١٧١م- فكان عيد البحيرة استمر ١٢ (اثني عشر)
يوماً، حافلة بالطعام، وبالرُب «المقن» أيضاً.

هذا، ولم يفت سيدنا، كما يقول ابن صاحب الصلاة إحصاء خسائر يوم
«الهوشة»، من: الثياب والأسباب والأرواح، من عبيد وأحرار، «وأمر
بجبر كل ما مضى للناس، من: ثيابهم، وقيمة عبيدهم ودوابهم، وأدى
الأحرار بدبااتهم إلى قبائلهم». وينهى رجل البلاط شهادته هذه بالقول:
«وهذا غاية العدل والكرم، الذي لم يتقدم لغيره من الزمان بالقدم».^(١)

تمييز العرب وعرض من وفد منهم:

بعد استراحة قصيرة لمدة يومين من نهاية احتفالات مآدب البحيرة
«وهوشتها»، وفي يوم الأحد ٨ من جمادى الأولى/ ١٨ يناير ١١٧١م، أمر

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٣٣-٤٣٤؛ وقارن ابن عذاري، الموحدون
(هوشى) ص ٩١.

سيدنا أبو يعقوب (يوسف) بتمييز العرب الأفريقيين، بأن يحضروا بين يديه في رحبة قصره العتيق بدار الحجر، داخل الحضرة مراكش، وأن يكون عرضهم بحيث يراهم، ويطلع على هيناتهم، بهدف الجدّ في إصلاح ما يرى من حالهم.

ويظهر من معنى التمييز هنا، هو تصنيف العساكر والناس على ترتيب توحيدهم، أي أقدميتهم في الدخول في الدعوة الموحدية. وعلى هذا الأساس كان البدء في أول يوم بعرض قبيلة زغبة، وتمادى عرضهم اليومي المحدود مدة ١٥ (خمسة عشر) يوماً. وكان ذلك على دفعتين يومياً: طائفة من غدوة حتى صلاة الظهر، وأخرى من بعد صلاة الظهر إلى آخر النهار. «وسيدنا الإمام» جالس مع أشياخ الموحدين، وأشياخ طلبة الحضرة، وأشياخ العرب- وهو يحرض على الجهاد.

وفي يوم الأحد ٢٢ جمادى الأول أحضر أبو يعقوب مشايخهم وكبراءهم وطلبتهم: أبا محمد عبد الواحد أقوشجور، وأبا زكريا يحيى الهنتاتي والنعمان لمناقشتهم في قوائم تمييزهم السابقة، فاتضح أن في تمييزهم الجديد «زيادة كثيرة في العدد على ما سمح لهم». فلقد لاحظ الخليفة أن الواحد منهم ينزل عن فرسه لكي يركبه آخر من الرجال (بل) ويدخل عليه ويغير بعض ثيابه وآلته، ومثل ذلك عن العمامة، «وفي إعاره الثياب وآلات الركوب: يجرد بعضهم بعضاً على مرأى من الناس، لا يهابون أحداً، ولا أمراً».

والمهم أن الخليفة كان يعرف حاجتهم، ويعترف ببدارهم إلى طاعته، وأنه يعذرهم لما في نفسه من إرادة الجهاد بهم لأعداء الله، فهو يتألف قلوبهم.^(١)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٣٥-٤٣٦- حيث رواية منسوبة إلى كاتب تمييز العساكر المستول دفع البركات (الرواتب) للموحدين ولساير الناس من الأجناد المرتزقين، وأنه عندما أخبر أمير المؤمنين يوسف بأنه وجد في زمام تمييز العساكر زيادة كبيرة على ما تقدم، قال له -رضه- «نفذ البركة على ذلك، إنما غرضنا الإحسان لأجنادنا، وأن يظهر عليهم الخيرات والبركات»؛ «وامتثل لذلك، فجعل =

العرض العام: تمهيداً لغزوة الأندلس العظمى

فى أول جمادى الثانى سنة ٥٦٦هـ / ١٠ يناير ١١٧١م أمر أبو يعقوب يوسف بالتمييز العام للموحدين على عدد قبائلهم، فامثل الأمر، واستمر ذلك العرض لمدة ١٥ (خمسة عشر) يوماً، تمّ فيها تقسيم الخيل المسومة الجياد على فرسان الموحدين، وعلى العرب الوافدين. و«أعطى للجميع الرماح والدروع والبيض والسيوف»، كما أنعم على الجميع بالآلات اللازمة لمثل هذه الغزوة الحافلة، وأعطيت لهم البركة (المالية) فى مقابل الزاد.

وتمّ توزيع الرواتب المقررة فى مجلس أمير المؤمنين العالى حيث جلس أبو يعقوب ومن حوله أشياخ الموحدين وطلبة الحضرة إلى جانب أشياخ العرب. وأمر الوزير بإحضار الأموال بين يديه من: دنانير الذهب ودراهم الفضة، والتي علت فى الحضرة أكداًساً. أما عن مخصصات المجاهدين فكانت كالتالى:

الموحدون:

- الفارس الكامل: ١٠ (عشرة) دنانير.
- الفارس (غير الكامل): ٨ (ثمانية) دنانير.
- الراجل الكامل: ٥ (خمسة) دنانير.
- الراجل (غير الكامل): ٣ (ثلاثة) دنانير.

العرب:

- الفارس الكامل: ٢٥ (خمسة وعشرون) ديناراً.
 - الفارس (غير الكامل): ١٥ (خمسة عشر) ديناراً.
 - الراجل (دون تصنيف): ٧ (سبعة) دنانير.
- أما عن مشايخ العرب ورؤسائهم، فكانت بركاتهم كالتالى:

= الله تبارك وتعالى البركة فى جباياته فى جميع طاعته وجهاته بسمحه فى ذلك، وإحسانه، وجزيل هباته، وإتصال صدقاته؛ وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوشى) ص ٩٢.

- كل شيخ: ٥٠ (خمسون) ديناراً

- كل رئيس قبيلة: ٢٠٠ دينار

هذا، إلى جانب كساء جميعهم بالقباطى والعصى والغفائر والعمائم، وإهدائهم السيوف المحلاة والدروع السابغات (كاللجين) والبيض والقنا من الرماح الطوال.

وزيادة في حسن الاستعداد للجهاد أمر للعرب بـ ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) فرس، قسموها على قبائلهم وأتباعهم ورجالهم.

وكان من الطبيعي أن يكون للموحدين أيضاً نصيبهم من الخيل المسومة المستوردة (المجلوبة)، والتي قسمت على قبائلهم ورجالهم.

وتعليقاً على كل ذلك ينص ابن صاحب الصلاة، قائلاً: «وهذا كله من سيّدنا نظراً إلى جزيرة الأندلس، في هذه العزوة الحافلة - خلد الله أمره وأعز نصره»^(١).



خروج حملة الجهاد الأندلسية من مراكش ١١٧١هـ/١١٧١م

هكذا أتم أبو يعقوب يوسف العدة لأول حملة كبرى يقوم بها للجهاد فى الأندلس، وهو خليفة: أمير للمؤمنين (من الموحدين)، بهدف إحياء رسمها، ودفع الأسباب النصارى عن جهاتها، والمنافقين المحاربين من جنبايتها.

وكان خروج الحملة من الحضرة مراكش صبحية السبت ٤ رجب سنة ٥٦٦هـ/١٣ مارس ١١٧١م، عن طريق باب دكالة، وقد احتشد الناس لرؤيته، وقد ملأت العساكر الأرض، فسار أمامهم، والعلم الأبيض فى المقدمة، ووراءه الرجالة حسب العادة فى المشى والأعلام الملونة، ورجال المؤخرة، والطبول فى الخلف، والمشى هادئ ليسمح بأن يلحق به من تأخر من عسكره المنصور على رتبهم المختلفة.

وكان فى مقدمة الموكب مصحف عثمان- بأغشيته المرصعة الثمينة- على جمل مرتفع، وهو مغطى بكلة حمراء، وقدامه مصحف المهدي بن تومرت.^(١)

وكان النظارة يشاهدون مع الرايات والطبول فى الموكب العجيب، الوزير أبا العلاء إدريس بن جامع، يحفّ به كبار مشايخ الدولة، مثل: أبى محمد

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٣٨-٤٣٩، وهـ- حيث مصحف عثمان، والأغشية التى صنعت له والتى إشتراك فى عملها المهندسون والنظامون والجلّاءون. وكيف كان المصحف منظماً بالجوهر النفيس والياقوت الأحمر والأصفر والأخضر الغريب. هذا، «وقد جلبت إلى الأندلس ومن ثم المغرب من دولة الطولونيين التى كانت بقطائع مصر، الأمر الذى جعل النظارة يتيقنون من دين أبى يعقوب، يقينه من إهتباله بكتاب الله تعالى، وإهتمامه به...»، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هروشى) ص ٩٢.



خريطة رقم ١ -
بـلاد مراكش

عبد الواحد بن عمر (صاحب المهدي)، وأبى سعيد يخلف بن الحسين، وأبى محمد عبد الله بن تفرجين، وأبى محمد الملقى شيخ طلبة الحضر، والقاضى أبو موسى عيسى بن عمران: قاضى المحلة والجماعة.
المنازل،

وعلى هذا الترتيب كان النزول فى ذلك اليوم الأول فى إحدى الدور المتخذة لأبى يعقوب- إقتداء برسم والده- بوادى تنسيفت، على حوالى ٣ أميال من مراكش، «وعساكره محدقة به من كل جانب»، هذا، ولا يفوت ابن صاحب الصلاة الإشارة إلى أن السعر فى المحلة الأميرية كان فى تلك الأيام، وفى ذلك اليوم بالذات، رخيصاً- رغم كثرة الناس وزيادة عددهم. فسعر الربع من الدقيق: ٢ درهم، والشعير (٢٥ مُدّاً: ١ درهم، واللحم ٦٠ أوقية (٤ أرطال): ١ درهم، وذلك ما يستند إليه مؤرخنا (ابن صاحب الصلاة) فى تقرير: قضاء مسائل أهل الحاجات، وكتابة الظهائر لهم، وبالتالي اتصال المسار، وارتفاع المضار- والحمد لله.^(١)

وكان الرحيل من تنسيفت فى اليوم الثانى من حركته (الأحد ٥ رجب/ ١٤ مارس)، متنقلاً فى محلاته حيث كان النزول فى داره بدشرجيت، احتل فيها بمن حمل من عياله- على رسم والده.

وارتحل يوم الإثنين (فى المرحلة الثالثة) إلى داره بتونين (بطريق سلا)، ثم إلى توقسطين فى المرحلة الرابعة، وعساكره محدقة به. وفى المرحلة الخامسة كان الوصول إلى وادى أم الربيع، وقد عُقِدَ عليه جسر بقنطرة وثيقة من القوارب، وآلات الخشب الماسكة لها فى عباب الماء. وهناك نزل فى داره (فى رباط تيط) على قرب من القنطرة، حيث صدرت الأوامر بالجواز والتغذية بشكل منظم، كل جماعة تجوز فى يوم محدد- خشية انهيار القنطرة.

ورغم ذلك فقد تراحم العرب فى الإجازة على النهر حتى انتهى الأمر
(١) المن بالإمامة، ص ٤٤١-٤٤٢.

بالتقاتل فيما بينهم، وموت واحد منهم، وكادت تقع بينهم الفتنة، الأمر الذي يُذكر «بهوشة» البحيرة، أثناء ضيافة العرب في بساتين البحيرة (كما سبق). والمهم أن تلك الفتنة استدعت تدخل الخليفة مرة أخرى، حيث أدى الفدية من ماله الخاص.

وفي منطقة أم ربيع الخصب، وبمناسبة فتنة العرب أيضاً، أمر أبو يعقوب بالمواساة، من: الشعير والدقيق واللحم وغيرها من الزاد لجميع العساكر، إلى أيام معدودات، ثم سار في المرحلة السادسة على ما هو معلوم من المراحل الآتية حتى وصل داره بوادي وسنات، على مقربة من مكول، حيث أمر للمرة الثانية بالمواساة، من: الشعير للعلف والدقيق واللحم لزاد جميع العساكر، ومن ثم تمادى في مشيخته على ترتيبه المعروف حتى قرب في المرحلة السابقة من المهديّة (رباط الفتح، الرباط، قصبة الودايا).

وفي تلك الأرض العريقة استدار أبو يعقوب بوجهه إلى الناس، وهو راكب على فرسه، فدعا لهم، وأمرهم بالنزول فيها، بينما دخل داره هناك، وذلك في يوم الإثنين ٢٠ رجب ٥٦٦هـ / ٢٩ مارس ١١٧١م - فكانه قطع تلك المراحل السبعة في ١٧ (سبعة عشر) يوماً.^(١)

الإقامة برباط الفتح :

وكانت الإقامة برباط الفتح أياماً. وفي اليوم الثاني أمر أبو يعقوب بعرض العساكر وتمييزهم مرة ثانية للتأكد من سلامة الترتيب والتقيّد بالنظام. وكان تمييز العرب يتم بمعرفة كل من السيد / أبي زكريا والفقيه / أبي عبد الله المالقي، وتمّ ذلك العرض «على أصح عمل»، وكذلك الأمر بالنسبة للموحدين حيث «صح عددهم».

عين غبولة :

ولما كان مساء عين غبولة الذي أجراه عبيد المؤمن هناك سنة ٥٤٥هـ /

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٤٣-٤٤٦ - حيث هامش على تاريخ مدينة الرباط قديماً وعلى عهد الموحدين.

قد فسد جريه وأسن، كما تعطل فى البطاح والبحائر سقيه، أمر الخليفة- بإعادته إلى حالته الأولى، بل وزاد فيه بناء صهريج عظيم متسع يجتمع فيه الماء، ثم يجرى منه إلى السقاية حيث شرب خيل العسكر ومواشيهم، ومواشى الناس وشربهم.

جسر سلا :

هذا، ولما كان الجسر الذى نصبه أبوه (عبد المؤمن) ما بين سلا والمهدية (الرباط) «قد خرقتة البحور وهدمته الدهور»، فإنه أمر «بنصب جسر آخر إلى جانبه أعظم منه بناء وأساساً واعتلاء، من الحجر العادي والجيار الثابت لأمواج البحار، فصنع فى أقرب مدة، وبأعظم آلة وعدة، ووصله بالقوارب والخشب، حتى جاء فى أمن له من الأزمان والحقب»^(١)، والذى يفهم من وصف ذلك الجسر أنه بناء يجمع ما بين بناء القنطرة الحجرية فى طرفيه، وعقد القوارب فى الوسط، مما يسمح بحركة المد والجزر وأمواج البحر.

والمهم أن العرض والتميز انتهى بعطايا أمير المؤمنين أبى يعقوب، من «الكسوة للموحدين والأشياخ من كل قبيل، لطلبة الحضرة والعرب». وكانت هدية الكسوة تحوى ٦ (سته) أثواب، هى: عمامة، وغفارة، وقبطية مبطنة، ومقطعين مهدويين، بالإضافة إلى الكساء.

هذا، كما خص الكثير منهم بالأخبية، وعتاق الخيل، كما ختم بقضاء حوائج الناس، والصدقة على الضعفاء، ومنهم: بعض قدامى أسرى بطليوس^(٢). وفداء الأسير البطليوسى فى المعسكر الموحدى، وهو يطلب الفداء، يعنى أنه كان هناك نظام خاص بالأسرى يسمح بإطلاق بعضهم، حسب الاتفاق الشفهى (أو العرف) الموثق بالآيمان المغلظة، فكأنه نوع من الولاء بالنسبة لأسريه من الأسباب النصارى.

وهكذا انتهى العرض والتميز فى عشية الجمعة ٩ شعبان ٥٦٦هـ/ ١٨

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٤٩-٤٥٠.

(٢) المن بالإمامة، ص ٤٥٠-٤٥١.

أبريل ١١٧١م، وكان على الشيخ أبى سعيد يـخلف بن الحسين التـتقدم بالموحدين نحو قصر مصمودة (القصر الصغير حالياً- مقابل طرـيفة) وذلك فى صبيحة السبت ١٠ شعبان/ ١٩ أبريل، وتـلاهم تقدم العرب بعد ذلك، بقيادة السيد/ أبى زكريا يحيى. واستمر جواز الموحدين ٥ (خمسة) أيام إلى يوم الأربعاء ١٤ شعبان، ومن ثم تحرك أبو يعقوب بقواته الخـلافية للعبور، والتي كانت تتكون من ٢٠.٠٠٠ (عشرين ألف) فارس نصفهم ١٠.٠٠٠ (عشرة آلاف) من الموحدين والنصف الآخر ١٠.٠٠٠ (عشر آلاف) من العرب- وذلك دون المتطوعة من الناس والمجاهدين.

وكان على رأس هذه القوات الملكية: الشيخ/ أبو محمد عبد الواحد بن عمر، والوزير/ أبو العلاء بن جامع إلى جانب الجماعة والحفاظ والطلبة من أهل الحضر، وأخيراً العبيد (من الحرس الخـلافى للأسود)- حسبما كانت تقضى تراتيب المشى والحركة.

ونزل الخليفة (يوسف) بقواته وحرسه الخاص فى موضع الحـمّام، على مقربة من وادى سبو بالمعمورة. ومن الحـمّام واصلت القوات من الموحدين والعرب إلى قصر مصمودة على البحر (فى مقابل جزيرة طريف) حيث المجاز. وابتدأت العساكر بالعبور من أول رمضان ٥٦٦هـ/ ٨ ماـيـه ١١٧١م. وكان عبور الخليفة، بعد عبور العساكر، مع خاصته يوم ٢٧ رمضان/ ٦ يونيه، وكان فى استقباله على الشاطئ الأندلسى أشياخ أشبيلية وقرطبة، وجميع أشياخ الأندلس، بجزيرة طريف. وكان دخوله أشبيلية فى يوم الجمعة ١٢ شوال (بعد صلاة الجمعة)/ ١٩ يوليـه ١١٧١م- حيث استقبله الناس بمظاهر الطاعة والسرور.

ولما كانت قوات الخليفة هذه، إضافة إلى الجيش الذى سبقت مسيرته مع السيد الأسنى/ أبى حفص (أخى يوسف)، وكذلك الجيش الذى تقدم قبل ذلك بقيادة الشيخ أبى حفص إينتى، فبذلك يكون قد «اجتمع فى الأندلس من العساكر عدد عظيم، وظهر بهم الفتح الجسيم».

وبعد إقامة ١٠ (عشرة) أيام بأشبيلية رحل منها إلى قرطبة في ٢٣ شوال/ ٢٩ يونيه، وكان وصوله إليها في أول ذي القعدة/ ٦ يوليه ١١٧١م. (١)

عودة الروح إلى قرطبة: الجهاد في قلب قشتالة حملة طليطلة

تعتبر الحملة الموحدية الأولى على طليطلة بمثابة كسر لطوق الحصون والقلاع الذي ضربته قشتالة على بلاد المسلمين، على امتداد نهر وادي آنه (guadiana) والذي كان يسمح في كثير من الأحيان بسياحة جنود الإسترداد « جنوباً إلى تخوم نهر الوادي الكبير، فكان بعض تخوم قرطبة بل وأشبيلية « أرض حرام » (no mans land) يسمح باجتياحها دون رعاية. أما ما نعرفه عن حملة طليطلة هذه، والتي لا يحدد ابن صاحب الصلاة لها تاريخاً واضحاً، كما هي العادة في كل أخباره، فإنها كانت بقيادة: أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن تفرجين، وأشياخ من الموحدين لا ذكر لأسمائهم. وأما أبرز الأعمال التي أنجزها ابن تفرجين، فهو عبور وادي تاجه، الأمر الذي كان محرماً على قوات المسلمين منذ أمد وحين، فكان الروح قد ارتدت إلى قرطبة، وكان أمير المؤمنين أبا يعقوب يوسف، يجدد ذكريات الناصر والمنصور.

والحقيقة أن ما حققته الحملة لم يكن أكثر من اجتياح لبطائح عاصمة القوط القديمة (موسطة الأندلس) وغنم ما حواليلها، دون الاقتراب من حصونها ومعاقلاها - مما لا إشارة له في الرواية - التي تحمد للقائد الموحد أن انصرف إلى قرطبة سالماً غانماً - فكانها كانت الخطوة الأولى في الطريق الذي لا نهاية له، والقطرة الأولى في غيث لا رجاء فيه.

وفي هذا المجال نلاحظ أن العسكر الموحدى بقرطبة كان قد استقر في

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٥١-٤٥٢، وقارن ابن عذارى، الموحدون

(هويش)، ص ٩٢.

داخل المدينة وفي خارجها، على ضفتي الوادي مدة إقامة أبي يعقوب إلى آخر شهر ذي الحجة/ ٣ سبتمبر ١١٧١م حين انصرف إلى أشبيلية التي اتخذها مقراً^(١).

وكان احتفال عيد الأضحى في حضرة أمير المؤمنين أبي يعقوب بقرطبة، عيداً يعيد أمجاد العاصمة الأندلسية العتيقة. ففي صبيحة يوم العيد، خرج في موكب الوقور إلى الصلاة خارج المدينة حيث الشريعة (مصلى العيد). وكان إمام الصلاة هو الفقيه الشهير: أبو محمد المالقي (مستشار الخليفة). وعقب الصلاة كان دعاء الخليفة المبارك، ومن ثم كان سلام كبار رجال الدولة عليه، من: كبار مشايخ الموحدين، وأبناء الجماعة ومن يليهم في الرتبة. وبعد أن ذُبح الكبش بين يديه، إنصرف إلى دار الإمارة بقرطبة، كما انصرف العساكر والناس لترتيب عيدهم، على ما جرت عليه السنة.

وفي ثاني أيام العيد جلس الخليفة عند الشروق في مجلس اليمن من قصره بقرطبة لتلقى السلام والتهنئة بالعيد. وهكذا كان الوزير أبو العلاء بن جامع يقدم للدخول من جرت العادة بدخوله على الإمام، من: أشياع الموحدين الكبراء وأبناء الجماعة ومن يليهم حسب منازلهم، ومن ثم الطلبة والفقهاء والقضاة والكتاب والأولياء وأهل الوفود، ووجوه أهل قرطبة، وكل واحد يعرف باسمه. أما المتميز من الداخلين فكان الوزير أو المستشار (الملكى) يُعرف بإسمه ونسبه وبلده، فيبايع ويقبل اليد المباركة للبيعة ويخرج- فكان الاجتماعات الاحتفالية الكبيرة هذه، كانت مواسم لتجديد الخضوع والطاعة.

هذا، كما دخل الشعراء والأدباء بما صاغوه من الأشعار في المديح والتهنئة للخليفة العادل ودولة الإيمان والتوحيد^(٢).

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٥٧.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٥٧-٤٦٠. وما أنشده الشاعر عبد الله بن المتجلى الشلبى، والوزير ابن جامع واقف يتابع وإلى جواره الكاتب ابن عياش: شرف الخلافة أن ملكت زمامها وغدوت من عقب الإمام إمامها صنع الإله حساماً ماضياً يحيى جوانبها فكنّت حسامها

أشبيلية نيابة لحضرة مراکش بالأندلس

أما عن استقرار الخليفة أبي يعقوب في أشبيلية فسيجعل منها نيابة لمراكش العاصمة لمدة حوالي خمس سنوات، إعتباراً من سنة ٥٦٧هـ/٧٢-١١٧١م. ففي خلال تلك الفترة نالت منه عناية قصوى، إذ جباها بالمسجد الكبير والقصر الفخم حتى يمكن القول أنه دمغها بطابعه. وهنا تشير رواية ابن صاحب الصلاة إلى أن أهل أشبيلية لم يضاروا بإقامته فيها مع حاشيته الكبيرة، ولا بما قام من الأعمال العمرارية الضخمة. فهو وحاشيته لم يشغل من دور أشبيلية إلا نحو من ٦٠ (ستين) داراً خصصها لأشياخ الموحدين. هذا إلى جانب شرائه ١٠٠ (مائة) دار خصصها لنزول الوافدين إليه، بمعنى أنه كان يرفق بأهل أشبيلية ولا يحب أن يكلفهم بما يرهقهم مما يتعلق بسكن الوافدين من المغرب أو من عرب أفريقية.^(١)

والحقيقة أنه مما يذكر لأبي يعقوب يوسف أثناء إقامته بالأندلس أنه اعتنى بإقرار الموحدين في مختلف أنحاء الجزيرة الأندلسية بمعنى وضع مقاليد السلطان في الأندلس بين أيدي الموحدين. والظاهر أن مسألة إسكان هؤلاء الوافدين كانت مثاراً لسوء الاستغلال من قبل بعض كبار المستولين. وهكذا أخذ أبو يعقوب عامله محمد بن أبي سعيد، المعروف بابن المعلم،

ورأت عدة الله إن حمامها	من قيس عيلان فكنت حمامها
فعلى رماحك أن تشق جيوبها	وعلى سيفوك أن تفلق هامها
وعلى الخلافة أن تلوذ بسيد	يُجرى على سبل الهدى أحكامها
قُلْ للأقاصِر الذين تمردوا	وافى حسم الماردين رغامها
ليس ابن سعد خلف سعدان غدا	حلف النصاري عاضداً أحكامها
فلسوف يصبح بالقضاء مجذلاً	إن لم تطهر نفسه آثامها
ومدلل للترعيد كفضراعة	بعتاب نفس رافضاً إحرامها
أنى يفروقك خائن ولو اعتلى	دار المجد أو ارتقى أعلامها

(عدد الأبيات ٥٠ (خمسون) بيتاً).

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٥٢.

المستول عن أعمال المخزن (أشغال الحكومة) بأشبيلية والأندلس وعزله عنها، وأمر بالسير به إلى قرطبة للتحقيق معه ومحاسبته على سوء استغلال السلطة، كما يقال الآن. هذا، كما عين على أعمال أشبيلية بدلاً من ابن المعلم، أبا داود يلول بن جلداسن.

والمهم أن محاسبة ابن المعلم على أفعاله وأعماله لمدة سنوات سابقة أدت إلى ثبوت خيانتته في الأموال، الأمر الذي أدى إلى إنزال عقوبة الإعدام به.^(١)

والمهم أن استقبال الخليفة أبي يعقوب في أشبيلية كان رائعاً، «لم ير الناس مثله في الأندلس في القديم ولا في الحديث». وفي حفل الاستقبال الذي أقيم بالمناسبة، أنشد الأستاذ ابن سيد يهنئه ويذكر حال ابن مردنیش، ويصف بروز الناس إليه، قائلاً:

السعد يقدم والعزائم تصدق والنصربينهما يحف ويغنق
وأمامهما ملك أغرب يحفه جيش تغص به البلاد وتشرق
جُنْ ابن سعد بالنفاق جنونه وطغى إلى أن بات فيه الأونق
أوما ترى الأيام تندى نُضرة مذحل حمصاً واليبالى تشرق
برزوا اليوم برزوه في عارض يعى اللسان بوصفه والمنطق^(٢)

هذا، كما أنشد الشاعر أبو العباس الجراوى قصيدة يذكر فيها ابن مردنیش أيضاً، ومنها:

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٥٢-٤٥٣، حيث الإشارة إلى أنه عندما وصل ابن المعلم إلى قرطبة، جعل لمحاسبته أبو القاسم بن عساكر، وأبو عبد الله محسن كاتب العسكرية، كما استعين بكل من الفقيه أبي محمد المالقي، والكاتب أبي الحكم بن عبد العزيز بالشهادة عليه كخبيرين- ودامت تلك المحاسبة والتقصي إلى آخر شهر ذي الحجة من عام ٥٦٦هـ/ ٣ سبتمبر ١١٧١م، عند خروج الخليفة من قرطبة إلى أشبيلية. وانظر ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ٩٤- حيث النص على عزل ابن المعلم ومحاسبته، وتقديم ابن جلداسن على عمله.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٥٣-٤٥٧- حيث القصيدة في ٣٢ بيتاً.

حللت من العلى أسمى ذراها وجاريت النجوم إلى مداها
لقد أخنى الزمان على النصارى بوطء مؤيد صدعت صفها
خطوب أذهلت عقل ابن سعد وزادت عن لواحظه كبرها^(١)

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوى) ص ٩٣-٩٤.



النقلة من قرطبة إلى أشبيلية لماذا أشبيلية؟

بانتقال أبي يعقوب يوسف من قرطبة إلى أشبيلية في مطلع سنة ٥٦٧هـ/سبتمبر ١١٧١م، كان خليفة عبيد المؤمن الأول (ابنه يوسف) يعترف بصعوبة إرجاع مسار عجلة التاريخ إلى الوراء، بمعنى تقدم عجلة الاسترجاع الإسلامية نحو الشمال. ولكن الاهتمام بأعمال الإنشاء الكبرى في أشبيلية، من: إنشاء القنطرة على الوادي الكبير، الأمر الذي يعنى ربطها بعواصم الأندلس الأخرى، سبيل التعاون فيما بينها، ومن ثم إقامة الجامع الكبير ليضاهي جامع قرطبة أو ليفوقه في نسق جديد من هندسة البناء، وفي النحت والزخرفة، ومثل هذا يقال عن القصر Alcazar (قصر أشبيلية الموحدى). والحقيقة أنه إذا كان اتخاذ أشبيلية كعاصمة للأندلس الموحدية أو نيابة عن الحضرة مراكش، يعتبر من وجهة النظر الاستراتيجية إنكماشاً للأندلس نحو الجنوب الغربى، فإن تثبيت موقع أشبيلية بتلك العلامات المميزة، يعتبر فى نفس الوقت تشبثاً بالموقع وبالتالى بالأرض، بمعنى الدفاع الجدى عنها- ليس بالمقاومة فقط، بل وبالرجوع والاسترجاع أيضاً.

فالبناء يعنى القوة والتكاتف الجماعى والعمران والنهضة، وما فوق ذلك من الفن والجمال والإبداع، الذى يتطلب الأمن والحماية- وهذا ما سيحاول أبو يعقوب يوسف أن يحققه للحاضرة الأندلسية أشبيلية، بل وما سيدفع حياته ثمناً له فى شنترين.

أما عن السبب المباشر لمغادرة الخليفة قرطبة إلى أشبيلية، فهو استقبال أخيه المجاهد السيد الأعلى / أبى حفص، فى الحاضرة أشبيلية. فقد أتت

الأنباء إليه بالإفادة أن أخاه الشقيق كان ينهى الحملة الموحدية في الشرق بنجاح بعد أن استولى على معظم أراضي ابن مردنيش، ووضع مرسية عاصمة الشرق تحت الحصار، وأنه يريد التبرك ببقاء أخيه الخليفة، ليعرفه بما تم على يديه في غزوته تلك. ولا ندري إن كان هناك ثمة أغراض خفية أخرى مثل: تفكير الأخ الوزير الحاجب المجاهد في العودة إلى أشبيلية، واتخاذها مقراً، فكأنه صاحب نيابة الأندلس أو ولاية العهد؟ هذا ما يمكن أن يفهم من استعجال أبي يعقوب بالانصراف من قرطبة إلى أشبيلية، ودخولها يوم الأحد ٢ المحرم ٥٦٧هـ/ ٢٤ أغسطس ١١٧٢م. وتمخضت الرحلة هذه عن صدور الأوامر بإنشاء قنطرة أشبيلية على الوادي الكبير «لمصالح الناس، وإجازة العساكر عليها» بأشبيلية ومنطقة «الشرف» الغربية.

والظاهر أن مشروع بناء القنطرة كان مخططاً له من قبل، فهذا ما يفهم من بدء العمل فيها في نفس اليوم الذي وصل فيه أبو يعقوب إلى الموقع، وهو يوم السبت المحرم/ ٢٣ أغسطس، يوم حضوره إلى الموقع حيث بدأ العرفاء من: المهندسين والصناع والتجارين بالعمل فيها، بخصوص ما يلزم من الاجتهاد والفتح والاقتصاد، الأمر الذي تم في أقل من ٤٠ (أربعين) يوماً، حيث النص: فكملت في اليوم الـ ٧ من صفر سنة ٥٦٧هـ/ ١١ أكتوبر ١١٧٢م «وحضر أمير المؤمنين يوم كمالها حتى عقد الجسر منها، ووضع على الوادي في يوم حفل»، الأمر الذي يوحي بأن مشروع القنطرة كان سابقاً على سنة ٥٦٧هـ/ ٢٣ أغسطس ١١٧٢م، وسط: «قرع الطبول... وحضور الكتائب والجنود وعقد الألوية والبنود».^(١)

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٦١-٤٦٢، وقارن ابن عذاري، الموحدون (هروشي) ص ٩٤- حيث النص: «في هذه السنة (٥٦٧هـ)، كملت القنطرة بأشبيلية، فظهر له منها من الأجر الجزيل والأثر الجميل ما لم يتقدم لثله لأمير من الأمراء الخلائف، ولا لملك من أهل الطوائف».

عودة السيد الأعلى أبى حفص من غزوة مرسية إلى أشبيلية

وفى ١٥ المحرم/ ١٩ سبتمبر كان وصول السيد / الأجل أبى حفص من غزوة مرسية فى الشرق إلى أشبيلية بجميع عساكره، حيث استقبله أخوه الخليفة على ميلين خارج المدينة «بتبريز عظيم، وسرور جسيم، ودخلوا أشبيلية خير دخول». وواضح من انفرادهما «فى السلام والكلام والرأى أياً ما»، أنه كان بين الأخوين من الخلاف ما لا يريدان أن يطلع غيرهما عليه، فكان ذبول أزمة الإمارة والخلافة كانت مازالت عالقة بالنفوس، بعد ما يقرب من عشر سنوات طوال. وهذا ما يتضح من سياق رواية رجل البلاط ابن صاحب الصلاة التى تقول: إنهما «اتفقا على الخير الذى نظم الأمر العزيز نظاماً، وأسكنا بالتضامن بينهما الأرواح والأجسام»^(١).

وأغلب الظن أن مسألة محمد بن المعلم الذى كان مشرفاً على مبانى السيد الأعلى أبى حفص، التى بنيت على وادى أشبيلية خارج باب الكحل منها، والذى اتهم ابن المعلم من قبل الخليفة وأعوانه بالخيانة فيها، الأمر الذى أوجب محاسبته فى قرطبة، قبل الانتقال إلى أشبيلية، كانت من الموضوعات التى ناقشها الأخوان- وهى أصلاً من الأمور التى تفسر التنافس بينهما على اتخاذ أشبيلية مقراً له^(٢).

هذا، كما ناقشا أمراً خاصاً بأعيان وفرسان الشرق الذين وفدوا مع السيد / أبى حفص، مهاجرين راغبين فى التوحيد. وثمت توبة هؤلاء الشرقيين الذين بايعوا أبا يعقوب يوسف، والذى أمر لهم بمراسيم تحرير أموالهم. وهو الأمر الذى كان له صدها فى الشرق الذى أتى أهله «أفواجاً مبايعين حتى انفرد صاحبهم ابن سعد، وتمادى فكر إلى القبر واللحد»^(١).

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٦٢، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ٩٤- حيث النص على وصول السيد أبى حفص من غزاته إلى أشبيلية منصوراً، واجتمع بالخليفة بها على سرور كامل، وبرز لم يعهد فى الأيام الأوائل.

(٢) ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة، ص ٤٦٤-٤٦٥.

والمهم أن الآخرين الملكيين تجاوزوا ما كان بينهما من خلاف حول الاستئثار بأشبيلية، كما نرى واتفقا على أن يكون هدفهما المشترك هو: «النظر لحماية جزيرة الأندلس». وفي هذا المجال كان «أول ما نظروا فيه هو التعجيل في إمداد بطليوس بما كانت تحتاجه من الميرة»، من: القمح والشعير والآلات المعينات والأقوات التي بلغت ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) بغل. وسارت حملة التموين هذه تحت حراسة مشتركة مشددة، من: عسكر الموحدين والعرب. وهنا ظهرت أهمية قنطرة أشبيلية الجديدة التي جازت عليها القافلة، في اليوم الثالث من إكمالها في ٨ صفر ٥٦٧هـ/ ١٢ أكتوبر ١١٧١م. وكان وصول القافلة إلى بطليوس إحياء للمدينة، التي كانت قد أصبحت منطقتها «أرضاً حراماً».

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن حملة التموين هذه أنجزت نصراً عسكرياً جانبياً، وذلك بالاستيلاء على حصن لبيون (Lebion) المجاور لبلطيسوس، وذلك بنصيحة من أبي العلاء بن عزّون. فلقد كانت في ذلك الحصن بقية من الأسبان المسيحيين، «فاجتمع لهم (الموحدون) خيران وفيران ونصران».^(٢)

بساتين البحيرة بأشبيلية:

هذا، كما صدر في نفس هذا الوقت الأمر ببناء قصور أبي يعقوب يوسف المعروفة بالبحيرة (تيمناً ببحيرة مراكش الشهيرة)، وذلك خارج باب جهور من أشبيلية، وذلك في الموضع المعروف قديماً بلُقم فرعون.

وكان المشرف على البناء أبا القاسم الحوفي القاضي، وأبا بكر بن الجدة، اللذين عرفا بالأمانة والديانة، ومعرفة المساحة والتكسير والفلاحة. هذا، كما كان عليهما أن يتخذا في الأراضي المتصلة بتلك القصور والمباني: مغارس الزيتون والأشجار والأعنان، والفواكه العجيبة، من كل الأنواع. ونفذ الأمر التالي كذلك إلى أهل الأنظار «بالشرف» بقلع أصول الزيتون المختارة من الألوان بمال المخزن، واستجلابها إلى البحيرة المذكورة

(١) المن بالإمامة، ص ٤٧٠.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٦٢-٤٦٣.

للإغتراس. فجلبوا عشرات الآلاف، فغرست على نسق عاماً بعد عام. وكل ذلك تحت إشراف الخليفة نفسه.

هذا هو كان الإشراف على بناء قصورا لبحيرة خاصاً بالعريف ابن أحمد بن باسه، عريف البنائين بالأندلس، «فجاءت من الحسن بما يحار فيه الوصف... أريت على مباني الخورنق والسدير». وجعل لها أسواراً محيطية بالطابية (البتون Béton) من كل الجهات. أما المسئول عن غرس تلك البحيرة فكان الشيخ: أبو داود يلول ابن جلداسن، مشرف أشبيلية وأعمالها، وأمين أمير المؤمنين.^(١)

وبعد ذلك، صدرت الأوامر العالية إلى عمال غرناطة ووادي آش «أن يجلبوا لبحيرة أشبيلية وبساتينها، هذه، ضروب الأجاص المسمى عند الأطباء بالكمثري، وكذلك الأجاص المسمى بالعَبقر والأزره، والتفاح». وكان المسئول عن الإشراف على كل ذلك هو الوزير ابن جامع وابن يحيى، وذلك من شروق الشمس إلى الغروب. والمهم أن تلك البساتين أحيطت بالجدران العالية من الجهات الأربع «لحمايتها ولكنها من الإذابة».^(٢)

مشروع المياه الجارية في البحيرة وفي أشبيلية: المدينة

بعد إنشاء بساتين البحيرة الشاسعة، كانت مسألة إمدادها بالماء الجارى موضع نظر المسئولين. والظاهر أن الفكرة أتت أصلاً كعملية إحياء لساقية (قناة مرصوفة) قديمة قرب مدينة قرمونة (شمال شرق أشبيلية). ويرجع الفضل في إحياء تلك القناة الإصطناعية، الرومانية أصلاً، إلى «الحاج المهندس يعيش»، الذى تتبع رسم القناة بالحضر بالعنانين والفعلة بالمئات

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٦٤-٤٦٧ - حيث أنه كان تحت نظر ابن جلداسن وعمله: تقييد الإتفاق فى الإغتراس والبناء بالشهادة على ذلك فى كل يوم، وذوات أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وعبيده ينقلون عليها الأحجار والأجر والجيار، والثمار والأشجار.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٦٧-٤٦٨ - حيث: فكانت تصل بذلك القطار إثر القطار، بجميع الثمار المختارة للإغتراس والإثمار.

من الرجال والفنيين (الخدام) حتى وصل إلى المنبع في الموقع المعروف «بعين الغبار»، حيث اتضح للحاج يعيش أنها في الحقيقة موضع فتق في طريق السرب القديم، فتتبعه في الوادي إلى قرب قلعة جابر، جنوب أشبيلية «فوزن في ذلك الموقع، وساقه على وزنه من الأرض حتى البحيرة المذكورة». فكان إنجازاً عظيماً سرَّ له أمير المؤمنين يوسف الذي أمر بإجراء ذلك الماء إلى داخل أشبيلية بالقصور، ولشرب الناس ومرافقهم، على أوفى الفضل منه بكمال الهندسة والتدبير.

وهكذا كان إجراء الماء في أشبيلية يتم رسمياً في حفل كبير، في حارة ميور (Mayor) يوم السبت ١٥ جمادى الآخر سنة ٥٦٧هـ/ ١٤ فبراير ١١٧٢م، وذلك بحضور أمير المؤمنين يوسف، وعسكر من كبار الموحدين والفقهاء والطلبة. وحيث «ضربت الطبول على إجرانه، والسرور موصول إلى محبسه، وانتهائه بداخل أشبيلية بحارة ميور يوم السبت ١٥ جمادى الآخر سنة ٥٦٧هـ/ ١٤ فبراير ١١٧٢م، وذلك بحضور أمير المؤمنين يوسف، وعسكر من كبار الموحدين والفقهاء والطلبة. وحيث ضربت الطبول على إجرانه، والسرور موصول إلى محبسه، وانتهائه بداخل أشبيلية بحارة ميور المذكورة»^(١).

المسجد الجامع الكبير بأشبيلية:

ومن أهم الأعمال العمرانية التي قام بها أبو يعقوب يوسف في أشبيلية، والتي ظلت بقاياها مفخرة للمدينة العتيقة حتى اليوم، هو بناء الجامع الموحدي الكبير بها. والحقيقة أن حاجة المدينة إلى جامع كبير كانت ماسة، وقتئذ، بعد أن ضاق جامعها المعروف «بجامع ابن عدبس»، بمعنى أن أشبيلية كانت تنتقل في عصر الموحدين من مدينة إقليمية إلى مدينة الأندلس المركزية بدلاً من قرطبة، فكان مسجدُها هو الآخر كان يحل محل جامع قرطبة العريق (الذي ابتلع الكتدرائية التي أقيمت فيه بعد «الاسترداد» فلم يبق منها إلا الجامع: La Mezquita).

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٦٨-٤٦٩.

ولقد بدأ تخطيط موضع الجامع فى شهر رمضان (المبارك) سنة ٥٦٦هـ/مايه ١١٧١م، وذلك فى مكان الديار التى هدمت بداخل القصبة (القلعة)، وكان ذلك تحت إشراف شيخ العرفاء: أحمد بن باسه، وأصحابه العرفاء البنائون من أهل أشبيلية، بل ومن جميع عرفاء الأندلس وكذلك العاصمة مراكش، الأمر الذى يوحى بأن ابن باسه ربما كان مهندس كتيبة مراكش، قبل جامع أشبيلية. ولا نريد القول أن ابن صاحب الصلاة يبالغ عندما يضيف إلى ذلك عرفاء مدينة فاس وأهل العدو، وأنه اجتمع بأشبيلية من أصناف النجارين والشارين، والفعله لأصناف البناء أعداد من كل صنف: صناع مهرة فى كل فن، فنقل من قيمة التحفة المعمارية الموحدة الأشبيلية التى تسمح بمثل تلك المبالغات.

وإذا كان ابن صاحب الصلاة يجعل تدين يوسف وكأنه الدافع إلى بناء الجامع الأشبيلي إلا أنه لا يغيب عنه أن الهدف الملموس من بناء الجامع هو تمصير أشبيلية، والسكنى بأشرف مرأى ومسمع، بدلاً من الجامع الصغير الذى كان موجوداً بالقصبة، والذى ضاق بالموحدين عندما تكاثروا. وكذلك الأمر بالنسبة لجامع ابن عديس الذى ضاق بأهل المدينة حتى «صلوا فى رحابه وأفنيته وفى جوانب الأسواق المتصلة به، فيبعد التكبير بالفريضة، فربما فسدت صلاتهم»^(١).

وفى طريقة البناء يقول ابن صاحب الصلاة أن أساس الجامع على «الماء (الجوفى) بالآجر والجيار والحصى والأحجار على أعظم البناء والاقتدار»، الأمر الذى سمح بالقول إن عقود أرجل بلاطاته (أروقته) تحت الأرض أطول مما فوق الأرض. وهكذا كان ما جمع عليه الرجال من الآلات والخشب المجلوب من سواحل العدو مما يسمح بالقول: «بما لم يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله»^(٢).

أما عن البناء الذى بدأ فى رمضان سنة ٥٦٧هـ/أبريل-مايه ١١٧٢م

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٥٧٤-٥٧٥.

(٢) المن بالإمامة، ص ٤٧٦.

(أى بعد سنة من التخطيط)، فلم يتوقف صيفاً ولا شتاء طوال السنوات الأربع التى قضاها أبو يعقوب يوسف بأشبيلية، إلى أن كمل بالتسقيف. وجاء فى أبهى المنظر الشريف، وأعجز فى بنائه من تقدمه... وقارب به جامع قرطبة فى السعة.^(١)

وكان الناظر على البناء هو العريف أحمد بن باسه، وصاحب تقييد الأنفاق: أبو داود يلول بن جلداسن، خاصة أمير المؤمنين، ومشرفه على الأعمال. ومن الحفاظ على هذا البناء: أبو بكر بن زهر (ت بمراكش ٥٩٥هـ/سبتمبر ١١٩٩م)، وأبو بكر البناقى، ثم أشركهم النظر: عبد الرحمن العنسى الفرناطى، فظهرت على كتابه وأصحابه خيانة، فعزل وعزلوا واستبدلوا. ورجع النظر إلى أبى داود ابن جلداسن.

وكانت سرب المدينة تشق بحريها «تحت الأرض على مواضع إختطاط الجامع فنكبت عنه، وصرفت إلى جهة الجوف... وعمل أعداد من الرجال على أوثق البناء تحت الأرض».

أما عن القبة على المحراب، فقد إهتبل العرفاء فى بنائها وفى العمل بصناعة الجبس (المقرنص)، والأقباة بالبناء ونجارة الخشب بغاية الاحتفال». أما الساباط (المر المسقوف) المعد لخروج الخليفة من القصر إلى الجامع، فهو مقبوء يسار المحراب لشهود صلاة الجمعة. أما حجرة المنبر فتقع على يمين المحراب، وهى مقبوة السقف. والمنبر من أغرب ما قدر عليه الفعلة، عجيب الشكل، إتخذ من أكرم الخشب، مفصلاً منقوشاً، مرقشاً محكماً بأنواع الصنعة والحكمة... مرصعاً بالصندل، مجزعاً بالعاج

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٧٦- حيث النص مرة أخرى على أنه «ليس فى الأندلس جامع على قدره، وسعته وعدد بلاطاته. وعن دراسته بعد تحويله إلى كتدرائية» انظر ديبلانوا، مجموعة «فن واحد»، إسبانيا والبرتغال، باريس ١٩١٧، ص ١٤٩ أو شكل ٢٩٨.

والأبنوس، يتلأأ كالجمر بالشغل، وبصفائح الذهب والفضة. أما المقصورة فهي من أحسن الخشب.

وكان الخليفة يتطلع ببناءه أكثر الأيام بنفسه، ومعه السيد الأعلى أبو حفص مع أعلام إخوته وأشياخ مملكته ووزيره ووجوه رجاله من طلبته وأهل دولته، وهو يحثهم بالجد في البناء، والوثاقة فيه والاستعلاء، والعكوف بعمل الأمانة والديانة، وترك الأهواء، ويعطيهم البركات، ويعدهم بالصلوات حتى إنكملت جهاته الأربع بالبناء، وعقد الأقواس منه بالأقباء، وكمل التسقيف.

ثم حان انصراف أمير المؤمنين أبي يعقوب إلى حضرته مراكش في ١٤ شعبان ٥٧١هـ/ ٢٨ فبراير ١١٧٦م، وأمر بتسريح العرفاء والبنائين والصناع إلى مواطنهم، فكانت «ورشة» العمل دائرة في البناء لمدة ٣ (ثلاثة) أعوام و ١١ (أحد عشر) شهراً قمرية.

انتقال الخطبة من جامع عبدس

إلى الجامع الجديد الكبير بالقصبة

لما انصرف السيد / أبو إسحق إبراهيم (ابن الخليفة) من زيارة أبيه من حضرة مراكش إلى أشبيلية يوم السبت ١٨ من ذي الحجة/ ٢٤ أبريل (٥٧٧هـ) أنفذ أمر أبيه من إلزام الناس بحضور صلاة الجمعة والخطبة في الجامع المذكور (جامع القصبة). وكانت أول خطبة على منبره يوم الجمعة ٢٤ من ذي الحجة المذكور/ ٣١ إبريل العجمي سنة ٥٧٧هـ/ مايو ١١٨١م، وأول خطيب: أبو القاسم عبد الرحمن بن عَفِير اللبلي. وبذلك ارتفعت الخطبة من جامع عبدس، وأزيل منبره من موضعه إلى جانب الحائط الغربي.^(١)

أما عن صومعة (مئذنة) جامع أشبيلية المعروفة اليوم بالجيرالدا، فإنه
(١٤) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٧٩- ٤٨٠. حيث «وكانت المقصورة قد أزيلت أيضاً من موضعها عنه قبل ذلك، وفرقت في بلاطات السقائف الجوفية (الشمالية) والشرقية، وذلك يوم الجمعة ١٩ شعبان ٥٧٠هـ/ ١٥ مارس ١١٧٥م (وكان القاضي عمر بن عبدس إبتناه سنة ٢١٤هـ/ ١١٢٩م) وهنا يقدم ابن =

لن يبدأ العمل فى بنائها إلا فى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م^(١)، وذلك بأمر الخليفة أبى يعقوب يوسف، وبمناسبة غزاته الأخيرة لشنترين، وذلك مع بناء سور حصين حول قصبة أشبيلية، وعلى أن تكون الصومعة ضمن سور القصبة، فكانها ذات وظيفة مزدوجة: دينية- عسكرية، هذا كما أمر يوسف أيضاً ببناء دار للصناعة (صناعة السفن) متصلة بسور القصبة أيضاً، على الوادى الكبير، بباب القطائع (السفن).

ولكنه شاءت الأقدار أن يكون باني تلك المجموعة المعمارية الخاصة بقصبة أشبيلية هو الخليفة الثالث أبو يوسف يعقوب (بن يوسف) المنصور، الذى ولى بعد إستشهاد والده فى شنترين، كما كان قد سبقه إلى دار البقاء أيضاً المهندس المعمارى الكبير ابن جلداسن الذى كان قد عهد إليه بتنفيذ بناء تلك المجموعة الأثرية الرائعة. وسيستمر أبو يوسف يعقوب المنصور فى سياسة والده فى تمصير أشبيلية، وذلك ببناء الأسواق حول الجامع، إلى جانب ترميم جامع ابن عدبس (كما يذكر فيما بعد).

إزدهار أشبيلية علامة إستقرار الأندلس

توحيد الشرق ونهاية بنى مردنيش

كان وصول السيد أبى حفص إلى أشبيلية فى أول سنة ٥٦٧هـ / سبتمبر ١١٧١م، والموحدون يشددون الحصار على مرسية، بشارة ببداية النهاية بالنسبة لمحمد بن سعد بن مردنيش، الذى كان قلّ أصحابه واختل ذهنه = صاحب الصلاة ملاحظة منهجية طالما طبقها، وإن وضعها تحت عنوان: «والحديث شجون: يوجب إدخال ما تقدم مع ما تأخر»، وهى فكرة ترابط الأحداث زمنياً بشكل لا ينقسم، وفى ذلك نقول: إنه وجد فى أحد بلاطات جامع عدبس كتابة بخط قديم فيه: «يرحم الله الإمام عبد الرحمن ابن الحكيم، الأمير العدل، المهتدى، الأمر ببناء هذا المسجد على أيدي عمر بن عدبس، قاضى أشبيلية سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م. وكتب عبد البر بن هارون (عامل من عمال البناء) ووصل الأمر (أمر أمير المؤمنين أبى يوسف بقراءة سورة إذا جاءك المنافقون فى الركعة الثانية من صلاة الجمعة، فصلّى بها الخطيب يوم الجمعة ١١ ربيع الأول سنة ٢٩١هـ / ٤ فبراير سنة ٩٠٤م.

(١) ابن عذارى (هوشى) ص ٩٥.

حتى أوقع بكبار رجال دولته من الوزراء وحتى «انفرد عنه أخوه وأصهاره، ومن ظن أنه أنصاره، ومنهم أبو الحجاج يوسف أخوه الذي دعا إلى «الإنابة، والمبادرة إلى التوحيد»^(١). هذا، إلى جانب الأعداد الكبيرة من أعيان الشرق الذين هاجروا إلى أشبيلية طائعين^(٢).

وهكذا، عندما تحقق ابن مردنيش من ذلك زادت عليه علته، ومن ثم حضرت منيته، فتوفي في ١٠ رجب سنة ٥٦٧هـ / ١٠ مارس ١١٧٢م، وله من العمر ٤٨ سنة- وبذلك انقضت أيامه ودولته. وهكذا باذر قواده وأشيائه بالطاعة، وألزموا ابنه هلال بن محمد بن مردنيش بمخاطبة الخليفة يوسف بالطاعة والدخول في التوحيد، ومن ثم الحركة إلى الحضرة بأشبيلية للمبايعة، مع ظهور هلال رمضان ٥٦٧هـ / إبريل ١١٧٢م^(٣).

ومن ثم انفصل هلال بن مردنيش مع أصحابه، فأنزل هو في قصر محمد بن عباد، «الرفيع الشأن العظيم البنيان»، وأنزل أصحابه في الدور المتصلة به. وقد أعدت لهم الفرش والبسط والمطاعم والمكارم والمشارب. وأفهموا

(١) المن بالإمامة، ص ٤٧١.

(٢) المن بالإمامة، ص ٤٧٠.

(٣) المن بالإمامة، ص ٤٧١-٤٧٢، حيث مبادرة هلال بعد موت والده واستقرار الشيخ أبي حفص بمرسية وتلكه لها، فوصل (هلال) مع جميع إخوانه وأصحاب أبيه القواد والكبراء من أهل الثغور، وذلك في آخر شعبان من عام ٥٦٧هـ / ٢٦ إبريل ١١٧٢م، فأخرج الخليفة إلى لقائه أخاه السيد / أبا زكريا (صاحب بجاية) وأخاه أبا إبراهيم إسماعيل مع عليّة أبناء الجماعة من الموحدين فتلقوه على أميال من أشبيلية، ودخل في صحبتهم إلى القصة حيث استقبلهم الخليفة في مجلسه قرب المغرب، فطلع في الحين هلال رمضان المعظم (من عام ٥٦٧هـ / ٢٧ أبريل سنة ١١٧٢م. وسلم هلال بن محمد بن مردنيش على الخليفة أبي يعقوب، وبايعه في حضرة السيد الأعلى / أبي حفص وجميع إخوته السادات، والأشياخ الموحدين، وطلبة الحضرة. وفي هذا اللقاء قال القاضي أبو موسى عيسى بن عمران: «طلع علينا في هذه الليلة هلالان: رمضان وهلال هذا بالطاعة، فاستحسن أمير المؤمنين كلامه.

أنهم الأقارب الأصاحب، ورحبت بهم المملكة الخلافية والدولة الإمامية^(١) وهكذا، تسلم منهم عواصم الشرق، وهى مرسية وبلنسية وجيان وغيرها، كما تزوج اختهم^(٢).

(١) نفس المصدر السابق، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ٩٥-٩٦.

(٢) والنويرى، نهاية الأرب، أبو ضيف، ص ٤٣١، وانظر ابن خلكان، ج ٧ ص ١٣١، حيث وفاة ابن مردنیش فی ٢٩ رجب ٥٦٧ هـ بمرسية.



بيعة أجناد الشرق الواصلين مع هلال بن مردنيش

وفى صبيحة أول رمضان- أى اليوم الثانى لمبايعة هلال وأتباعه- كانتبيعة أجناد شرق الأندلس من أصحابه- حيث أخطر أشياخ الموحدين وطلبة الحضر، وجميع الناس لحضور تلك البيعة. وحين جلس الخليفة فى مجلسه العالى، خرج الوزير أبو العلاء بن جامع، وأمر الوافدين بالدخول عليه، «فسلموا سلام جماعة، ثم بايعوا: واحداً واحداً، وكان يقدمهم شيخهم: أبو عثمان سعيد بن عيسى، كبير الأجناد المذكورين، وصاحب الشجر، والتزموا الطاعة».

والمهم أن أجناد الشرق المجاهدين حقاً، لم يلبثوا أن اقترحوا على الخليفة القيام بغزو من جاورهم من بلاد الأسبان المسيحيين، وحددوا مدينة وِسْة (Huete : ما بين قونقة وأقلش) قرب الروافد العليا لوادى آنه. وبينوا أنها أسير البلاد للفتح، إذ هى: «حديثه البنيان، قريبة الإسكان»، كما وضحو أن «سورها غير ممتنع، وأنها دون باب ولا حجاب». ولقى الاقتراح الشجاع قبولاً من لدن الخليفة أبى يعقوب، والواضح أنه أراد أن يوثق العلاقة بهم، فوعدهم بتحقيق رغبتهم هذه بمجرد نهاية شهر الصوم. ولما كان هلال بن محمد بن مردنيش قد أنزل البارحة بقصر العباديين، بينما أنزل أصحابه بقرية فى ديار القصر، فقد تولاهم أبو يعقوب يوسف برعايته، «فتوالت عليهم البركات (الأرزاق أو الهبات)... حتى نسوا ما كانوا فيه فى عهد رياستهم... فاغتبطوا غاية الاغتباط، وظهر على وجوههم، وهياتهم آية النشاط».^(١)

(١) المن بالإمامة، ص ٤٧٣-٤٧٤، وقارن ابن عذارى، والموحدون (هوشى)،

حملة في عمق قشتالة: غزو وبدة (Huete)

غزوة وبدة التي أوحى بها فرسان الشرق إلى الخليفة أبى يعقوب يوسف في أقصى الشمال الشرقي من إيبيرية، ما بين الروافد العليا لنهر تاجه ومنايع وادى آنه، في غرب قونقة، على الروافد العليا لنهر (وادى) شقر، تعتبر الغزوة الأولى لأبى يعقوب يوسف، وهى من حيث الأهمية النسبية تذكر بغزوات ملوك الإسترداد الكبيرة في الجنوب الأندلسى، مثل: الفونس الأراجونى المحارب. وهى من هذا الوجه تعتبر رداً مناسباً من جانب الموحدين على مثل تلك التحرشات الأسبانية.^(١)

والمهم أن أباً يعقوب يوسف خرج من حضرة أشبيلية لتلك الغزوة عند تحسن الأحوال الجبرية، وذلك في نهاية الليل من يوم الإثنين ١١ شوال/ ١٥ مايه العجمى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م، وكان الوصول إلى قرطبة في تمام الأسبوع، وذلك يوم الأحد ١٧ شوال، حيث كان النزول في جبل فحص السرادق المثل على أبراج أرض الزاهرة (مدينة المنصور العامرى). وفي اليوم التالى كان الوصول إلى قصر قرطبة حيث أقام لمدة ٨ (ثمانية) أيام من أجل ترتيب أمور الغزوة. وهكذا خرج يوم الإثنين ٢٥ شوال/ ٢٣ يونيه، وسلك الطريق إلى القصير (Alcocer)، ومرّ بأندوجر، ومن ثم نزل في بباسة (Baeza) حيث تلقاه ابن همشك، وهو ينصرف من حصار حصن بلج (القشتالى) العظيم الامتناع والشاهق البنيان.^(٢)

استسلام حصن بلج (Vilches):

وعندما اجتمع ابن همشك بأمير المؤمنين يوسف وحرّضه على الحضور على حصن بلج هذا وحصاره، وعندما حصرت القوات الموحدية الحصن

(١) هذا ولا بأس من الإشارة هنا إلى ما يقوله عبيد الواحد المراكشى، من أنه عندما استوثق ليوسف الأمر في سنة ٥٦٧هـ/ ٢-١١٧١م، بدا له أن يعبر إلى جزيرة الأندلس قصد غزو الروم ظاهراً، مبطناً إقام تلك جزيرة الأندلس - المعجب، ص ٢٤٨.

(٢) ابن صاحب الصلاة، ص ٤٨٩- حيث: وقد كان ابن مردنيش أعطاه للنصارى رداً على توحيد ابن همشك وأملأ في التضييق عليه.

هالها منعتة، كما «هال النصارى كثرة أعداد المسلمين»، الأمر الذى أدى إلى استدعاء الأعداء لابن همشك وإعلانهم الرغبة فى أخذ الأمان لهم على أن يتركوا الحصن، وذلك فى صبيحة السبت ٣٠ شوال/ ٤ من ذى القعدة. وكان من الطبيعى أن يوافق أمير المؤمنين على جلاء العدو عن الحصن، وهو الأمر الذى تم فى التو واللحظة فى ضحى يوم السبت نفسه، وبذلك آلت السيادة على حصن بلج الحصين إلى الموحدين مع وضعه تحت إشراف ابن همشك.^(١)

الطريق إلى وبذة

والمهم فى وصف الطريق إلى وبذة أن من ابن صاحب الصلاة يمثل الرواية الخبرية التى ترقى إلى مستوى أخبار «الأيام» التى تمثل شهادة العيان التفصيلية التى لا تترك شاردة ولا واردة من الأحداث، زمنية كانت أو موضوعية، إلا وذكرت.

وهكذا كان الطريق من حصن بلج إلى وبذة يستهدف المرور بمناطق: حصن الكرس (Alcaraz) الذى استغرق الوصول إليه أكثر من ٣ (ثلاثة) أيام فيمابين يوم الإثنين وضحوة الجمعة (٦ من ذى القعدة/ ٢ يوليئ ١١٧٢م) حيث كان الاستيلاء عليه برغبة أهله عند صلاة الجمعة. وبذلك دخل الحصن فى أملاك الموحدين تحت إشراف ابن همشك. وهكذا تم استرجاع الحصنين الذين أهداهما كل من ابن همشك وابن مردنيش لنصارى الريبكونكيستا. وذلك فى منطقة الأرض الحرام بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى، حيث يعرف الطريق حينئذ باسم «بلاط الصوف» (Belazate)، وهو المتصل ببطاح مدينة جنجاله (Chinchilla) من حيث كان الوصول إلى موضع الغُدُر (Algodor)، وهو رأس وادى آنه، من حيث المجرى إلى مدينتى بطليوس ومرتله ومن ثم نظر باجة.

(١) المن بالإمامة، ص ٤٨٧-٤٩٠.

وكان النزول في بلاد صوف يوم الأحد وحتى ظهر الإثنين حيث تزود الناس بالماء إلى مرج البسيط حيث كانت الإقامة يوم الثلاثاء ١٠ من ذي القعدة، وكان الوصول في اليوم الثاني (الأربعاء) إلى وادي جزيرة شوفر حيث شرب الناس ودوابهم ومواشيهم.

وكان الوصول إلى وادي شُقر يعنى نهاية الأرض الحرام (nomans' land)، الأمر الذي كان يقتضى اتخاذ الأوضاع العسكرية المناسبة للقتال في أرض العدو بعد الاستيلاء على حصونه المتقدمة. وهكذا، وبعد أن استراح الرجال يوم الأربعاء، كانت المسيرة يوم الخميس ١٢ ذى القعدة حيث كان شرب العسكر، والذي أعقبته صدور الأوامر للسيد الأسنى أبو سعيد بالتقدم بعسكر ضخم من الموحدين والعرب والأجناد والرجالة، إلى جانب حوالي ١٢,٠٠٠ (إثني عشر ألف) فارس «ليغيروا على أول بلاد النصرى، بجهة وبذة».

وكان مسير السيد / أبى سعيد إسراء (ليلاً) بصحبة أبى العلاء بن عزون مستشار الدولة برجاله، وكذلك الأمر بالنسبة لابن همشك، وكان الأمر «أول فتح للموحدين فى أول عمائر بلاد النصرى»، وهو حصن بموضع من مرج خمل، حيث قتل رجاله، وسبيت نساؤه وأبنائهن، وذلك يوم الجمعة ١٣ من ذى القعدة، حيث أرسلت البشائر إلى الخليفة أبى يعقوب يوسف، فى مؤخرة الجيش.

أما عن أهل وبذة فإنهم لم يأخذوا حذرهم بالإعتصام وراء أسوارهم، بل إنهم جاءوا فى إثرهم، وخرجوا بخيلهم ورجالهم للقاء الموحدين، حيث دارت الحرب بين الطرفين غير بعيد من أسوار المدينة. هذا، وإن كان العرب بحرب الكر والفر التى يألّفونها - كما نرى - قد خرجوا على النظام حسبما يشير النص إلى ذلك، الأمر الذى تطلب لفت أنظارهم. وانتهى القتال بانفصال الطرفين المتحاربين.

وهكذا بات العسكر الموحدى ومعهم السيد / أبو سعيد «فى موضع

نزولهم بالجبل المطل على مدينة وبذة، إنتظاراً لوصول أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف والذي كان فى يوم الثلاثاء ١٧ من ذى القعدة/ ١٤ يوليئه ١١٧٢م^(١).

معركة وبذة (Huete) ضرب الحصار على المدينة التعبئة :

عندما اقتربت القوات الموحدية من وبذة صدر أمر الخليفة أبى يعقوب يوسف بالتعبئة العامة، من: الموحدين والعرب من أجل الحصار. فانحازت القبائل المختلفة بعضها إلى جانب بعض وتميزت الفرق المختلفة بالشارات والشعارات الخاصة بها. ومن ثم صدرت الأوامر بالصعود إلى الجبل المطل على وبذة، فسارت العساكر تحت قيادة السيد/ أبى سعيد عثمان محاطاً بعسكره الخاص حيث استقر فى مركز القيادة بمحله فى سفح الجبل. بينما استقر أبو يعقوب يوسف بصفته الخليفة، وبكتيبة «حرسه المنصورة»، فى ساقه الجيش، محاطاً بأبناء الجماعة وأبناء خمسين وأهل الدار والعبيد. وخلفه السيد الأعلى أبو حفص (أخوه) وسائر السادات (الإخوة) والرايات تتبعهم على عادتهم، مع ١٠٠ (مائة) طبل تضرب.

وهكذا استقرت الحملة الموحدية بجبل وبذة والرجال يطلون على المدينة بالرماح الطوال، وغلاثل الدروع، والبيض (على الرؤوس) والدرق (أمام الصدور)، والرايات خفاقة والعلامات أعلى الهامات على أتم السلاح وأعم الصلاح.^(٢)

والصعود فوق الجبل يعنى اتخاذ موقف دفاع منيع ضد احتمالات المفاجأة من قبل العدو، أما من الناحية الهجومية، كما فى ميدان وبذة،

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٥٩٠-٥٩٢، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ٩٦؛ وابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤٠- حيث: منازل رندة بدلا من وبذة- ربما نقلا عن ابن الأثير

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٩٢-٤٩٣.

فيعنى أن خطة القتال تتمثل فى إكتساح ضواحي المدينة، وبالتالي تجريدها من دفاعاتها الأمامية فى إكتساح يشبه الموج من الغارات المتوالية من فرق الجيش الموحدى المختلفة.

التقدم نحو الرىض :

وهكذا بدأ الهجوم فى ١٧ من ذى القعدة سنة ٥٦٧هـ/ ١٣ يولييه ١١٧٢م، على أطراف وبذة، بالتكبير على المدينة بأعلى الأصوات وبالتوحيد، مع ضرب الطبول إيداناً بالتقدم نحو العدو، « واتصلت الحرب بين المسلمين والنصارى الذين أذهلتهم المفاجأة، فغلب المسلمون على ما كان لصق سورهم، ودخل أرباضهم ودورهم، وحرقت وهدمت ».

وبهذا التقدم من أسوار وبذة نزل الموحدون بأخبثتهم من ظهر الجبل إلى مزارع المدينة ويساتينها المتصلة بالجنان والكروم. وعن هذا الطريق نجحوا فى قطع ماء الوادى (النهر) عن المدينة، كما حُرِم أهلها من ثمار جناتهم. أما عن مركز القيادة ومحلة الأمير فقد نُقلت إلى رأس الجبل، وهى تزهو بلونها الأحمر، ويحيط بها الحرس الخلفى من جميع العساكر.^(١)

التخطيط للقتال :

وفى عشية ذلك اليوم عقد أبو يعقوب يوسف مجلس مستشاريه من أشياخ الموحدين، وانتهت المذاكرة معهم فى كيفية قتال أهل وبذة المعتمدين بتحسينات مدينتهم ودفاعاتها. وتقرر أن يقوم السيد الأعلى/ أبو حفص ومعه إخوته وبنو الجماعة وأشياخ الموحدين ومن أشياخ الأندلس: أبو العلاء بن عزون وإبراهيم بن همشك بتكوين لجنة تنظر خطة مقبولة للعمل. وقامت تلك اللجنة- وسط إجراءات أمن مشددة- بالطواف حول جوانب المدينة المربعة، وانتهى رأى إلى تقسيم محيط المدينة وأسوارها إلى ٧ (سبعة) مناطق، عهد بمهاجمة ٥ (خمس) منها إلى ٥ (خمس) من

(١) المن بالإمامة، ص ٤٩٣؛ وقارن ابن عذارى، ص ٩٦، وانظر ابن الأثير، ج ١ ص ٣٩٠- حيث الإسم رُندة خطأ، وهو ما ينقله ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ٢٤٠.

القبائل الموحدية والخليفة، تحت إشراف ٥ (خمسة) من السادة إخوة الأمير أبى يعقوب. وهكذا، كان مع قبيلة هنتاتة السيد / أبو سعيد (عثمان)، ومع قبيلة كومية السيد / أبو زكريا يحيى (صاحب بجاية)، ومع قبيلة غمارة السيد / أبو على الحسن، ومع قبيلة جدميوه السيد / أبو إسحق إبراهيم، وأخيراً مع قبيلة جنفيسة السيد / أبو إبراهيم إسحق. أما القطاع السادس فكان لأشياخ الموحدين الخلف، كل شيخ فى قبيلته، بينما كان القطاع السابع من نصيب المجاهدين العرب الذين جمعتهم جهة واحدة متصلة بالمدينة.

وأمام خطة الهجوم هذه، قام النصارى بزيادة تحصين وبذة بإقامة أخدود (حفير) خارج الرض، تمّ على وجه السرعة فى يومين، كما أضافوا ستارة (زربا: سوراً أمامياً) من خشب على أبواب بيوتهم.^(١١)

التقدم نحو الأسوار:

وهكذا بات الخليفة أبو يعقوب يوسف ليلة الأربعاء ١٢ من ذى القعدة/ ٨ يوليئه ١١٧٢م على نية الجهاد، وكذلك فعل المقاتلون، وفى الصباح، وبعد أداء الصلاة وقراءة الحزب (من القرآن) حسب العادة، استعدّ الناس للجهاد خلف «فى جحفل جرار، كتائبه كالجبال السائرة... تخفق راياته، وترعد طبوله، وتتوقد نصوله، وتتجاول بالصهيل خيوله، تضم أقطاره مساعير الرجال ومشاهير الأبطال... قد لبسوا السوابغ والأبدان (القمصان)، وتقلدوا الصفائح والقضبان، وتنكبوا القسى والمّران». وكان فى صحبته أخوى السيد الأعلى / أبو حفص، وأشياخ الموحدين، وكبار رجال الدولة، من: الفقهاء والقضاة، مثل: الحافظ أبى بكر بن الجدى، والفقيه أبى محمد المالقى، والقاضى أبى موسى عيسى بن عمران، والقاضى أبى محمد بن الصفار (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م)، والقاضى أبى الوليد بن رشد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٩م).

(١١) المن بالإمامة، ص ٤٩٤- حيث النص: «وظنوا (أهل وبذة) بسوء تدبيرهم ان ذلك الحفير والزرب يمنعهم من أمر الله تعالى، فكان ذلك الحفير لهم قبراً، واستنصلوا فيه قتلاً وعقراً.

وعند اقتراب الخليفة من الحفير والزرب (سور الحشب)، نزل على ربوة مرتفعة، حيث ضربت قبة خباء جلس فيها مع صحبه. ومن ثم وصلت العساكر حسب ترتيبها المذكور آنفاً، واتخذ كل فريق منهم القطاع المخصص للقتال. وبعد تقسيم السهام على الرجال، وتزويد المجاهدين بجميع ما يلزمهم من الآلات. وبعد أن تقدم من أمر من الإخوة والأشياخ بمبايعة الأمير بتقبيل اليد والتسليم والإعراب عن الثبات في الجهاد، دعا لهم بالنجاح والفلاح، فركبوا خيلهم، وقدموا المشاة أمامهم. وكان من ترتيب القتال مع أهل وبذة أيضاً، ألا يدفع المجاهدون على النصارى إلا عند ضرب الطبول وخفقها. وكان عدد الطبول ١٠٠ (مائة) مُصَفِّة.

والمهم أنه «عندما ضربت الطبول، ودفعت العساكر صار النهار ليلاً، وحل بالكافر وبيلاً... فانهزم جميعهم... وقتلوا حتى لصق سورهم، وفي داخل بيوتهم ودورهم»- حيث كانت المدينة دون أبواب، الأمر الذى يعنى أنها كانت جديدة البناء لم تكتمل بالأبواب. وهكذا كانت الهزيمة تامة على الأعداء الذين لجأوا إلى القصبه (حصن الدفاع ومركز الحكومة)، «فلم يبق من سورهم موضع فيه قتال إلا الركن من جهة الغرب حيث كان المسئول عن القتال هناك: أبو العلاء بن عزون الذى اضطر إلى طلب المعونة من الأمير، فلم يجاوبه لاشتغاله مع الطلبة (من الفقهاء والقضاة) فى المذاكرة»، كما تبلغ الرواية كما نرى.^(١)

ما بين التقصير والعجز وانشغال الأمير بالمناظرة:

وهنا يشير ابن صاحب الصلاة مسألة عدم الاستيلاء على أسوار وبذة من قبل القوات الموحدية، بعد أن تخلى مقاتلوا وبذة عن معظم الأسوار باستثناء «الركن من جهة الغرب»، وهو ينسب ذلك إلى إحدى مسألتين، أولاهما: التقصير والعجز من قبل المجاهدين الموحدين، وثانيتهما: إنشغال الخليفة أبى يعقوب يوسف بمجالس المناظرة، وقت المقتلة أو «المجزرة».

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٩٥-٤٩٦.

والحقيقة أن رواية ابن صاحب الصلاة التى ينسبها إلى ابن عزون قائد الجبهة فى قطاعها الغربى، والذى لم يحقق الانتصار فى ذلك الموقع، فلجأ إلى طلب المعونة من الأمير، فلم يظفر بما كان يرجوه من بركته أو حث المقاتلين ورفع معنوياتهم، فكان ذلك سبباً فى خسارة المعركة برمتها.^(١)

هذا وتضيف الرواية مزيداً من المعلومات التى حدث بها ابن عزون - وهو يتنصل شخصياً من غير شك من تحمل المسؤولية، إذا يقول: « لما قاتلت النصارى فى البرج الذى كان عمدة أمتناعهم فيه بمدينة وبذة فأشرفت على الفتح والغلبة لهم، ولم أر أحداً من أهل الأجناد الأنجاد، ولا من الشيوخ والقواد من يعيننى، مشيت بنفسى إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وهو جالس مع أخيه السيد الأعلى / أبى حفص، ومع طلبة الحضر يتكلم فى المسائل، فقلت: يا سيدنا... « عسى عون فقد أشرفت على الفتح ». ^(٢)

والحقيقة أن مقولة ابن عزون هذه توضح مسئوليته الرئيسية عن الفشل فى ذلك القطاع الغربى. ويؤيد ذلك أن ما كان يريده ابن عزون لم يكن شيئاً من المدد، بل أنه كان طامعاً فى خروج الأمير بنفسه إلى ساحة

(١) المن بالإمامة، ص ٤٩٦-٤٩٧، حيث الإشارة إلى أنه عندما عجز أبو العلاء بن عزون عن تقويم الموقف فى قطاعه أو جبهته، فمضى إلى أمير المؤمنين طلباً لمعونته المعنوية على الأقل، فلم يجاوبه لاشتغاله مع الطلبة - وعلى رأسهم ابن رشد، فيلسوف العصر - فى المذاكرة. هذا فى الوقت الذى كان فيه أهل وبذة قد انهزموا إلى داخل الأسوار، حيث: « هدمت بيعهم وأخذ مما فيها ٩ (تسعة) نواقيس قاتل عليها النصارى حتى قتلوا عند كنائسهم، وأخلوا أسوارهم من كل جهة، وظهر الفتح ظهوراً غريباً بعدد المؤمنين، والاستيلاء فى ذلك اليوم على الكافرين. ولكن عند ذلك كف الله أيدى المسلمين عن الغلبة على المدينة، ووصلوا إلى السور، ووقفوا عنده وقوف العاجز المقصر، قد تركوا للراحة والكسل، وبما فهموا أن المراد تعجيز الحال فى ذلك النضال ». هذا إلى جانب ما تقوله الرواية: « وأما الرماة فرأيت الشيخ المقدم عليهم: محمد بن تيفوت يمنعهم من رمى النصارى بالسهم، فلم تقع الآلات ولا الرماح ولا الدروع السابغات ولا البيضات.

(٢) المن بالإمامة، ص ٤٩٧.

الوغي، ليرفع الهمم، ويشير الحماس فى نفوس العسكر، ويؤدى ذلك إلى إنقاذ الموقف المتدهور، بل والاستيلاء على وبذة، كما يقول ابن عزون.^(١)

والصحيح أنه مما يضعف رواية ابن عزون هذه، هو ما ينسب إليه من القول إن السكوت لم يكن من جانب الأمير يوسف فقط، بل ومن جانب أخيه وشريكه فى الحملة السيد الأعلى / أبى حفص، وأنه علم بذلك « أن النية فى الجهاد قد فسدت، وأن الغزوة قد تنكدت... ودام القتال على انحلال وضعف وملال... وما نفع الجيش الكثير عديده نحو من ١٠٠,٠٠٠ (مائة ألف) بين فارس وراجل» - وانصرف أمير المؤمنين... وانصرف الناس إلى أخبيتهم، قد فهم الحال من فهمها، وسرّ بالتعجيز فيها من دبرها وعملها.^(٢)

والحقيقة أنه إذا كان يفهم من رواية ابن عزون القاضى (فى المن) بأن الرجل أراد أن يتنصل من مسئولية صمود العدو فى جبهته، ويلقى بتبعة الفشل فى جبهة وبذة كلها على فساد نية الجهاد، فإن ما يمكن استنباطه من مقولته هو أن فشل الحملة وتنكدها (كما يقول) إنما يرجع إلى تفتت القيادة ما بين السادة الإخوة، وأشياخ الموحدين، وأشياخ العرب غير المنضبطين، أو بوجه آخر غير المدرين على حرب الحصون، كما هو معروف. وهذا، لا يمنع بطبيعة الحال من مسئولية الأمير يوسف الذى يشتغل مع ابن رشد (الفيلسوف) وغيره، فى موضوعات العلم والمناظرة فى غير موضعها. ولو أن بطانة يوسف من مثل هؤلاء العلماء كان يمكن أن يكونوا مستشارين ناعين أيضاً فى أمور الحرب والسياسة التى كانت تمارس من قبل الجميع، وكثير من هؤلاء العلماء والفلاسفة كانوا على دراية بأمر السياسة والاقتصاد ونظم الحكم، ومن موضوعاتها قيادة الجند وسياستهم (١) المن بالإمامة، ص ٤٩٧ - حيث يقول ابن عزون: «وإنما كنت أرى أن يركب (الأمير) فيراه الناس وجميع العساكر فيدخلون المدينة فى حينهم، فلم يجاؤنى، واشتغل عنى بما كان فيه».

(٢) المن بالإمامة، ص ٤٩٧.

فى الحروب. ولنا المثل فى قصة الإسكندر وفيلسوفه ومعلمه أرسطو
طاليس، الذى كان صاحبا ابن رشد أشهر مفسريه والمعلقين عليه فى كل
العصور الوسطى من إسلامية وأوروبية، مما هو معروف.

الحصار بديلا للإقتحام :

والمهم أنه فى ليلة الخميس ١٩ من ذى القعدة / ١٥ يوليئه قرر الأمير
يوسف فرض الحصار الصارم على مدينة وبذة، والتشديد على تعطيش أهل
المدينة بمنع اقترابهم من الماء فى الوادى (النهر) القريب، مع الإلحاح عليهم
بالمقاتلة المباشر عن طريق الرمى من فوق الأبراج وسلالم الخشب فى جوانب
المدينة المختلفة.

وأمام شدة الحصر ودقة الموقف رأى المسئولون من أهل وبذة المساومة
على الجلاء عن المدينة نظير الأمان، ولكن طلبهم رُفض على أمل اقتحام
المدينة عنوة. وصدرت الأوامر إلى الموحدين بالتشدد فى «ترتيب منع
الكفرة من الماء»^(١).

الإضطرابات الجوية ما بين الرياح العاصفة والسيول الجارفة

فعند صبيحة الجمعة ٢٠ من ذى القعدة ٥٦٧هـ / ١٦ يوليئه ١١٧٢م،
بدأ الموحدون يعانون من سوء الأحوال الجوية، إلى جانب صعوبة حرب
الحصار فى وبذة. فلقد «قاسوا من هبوب الريح العاصف، التى أكفأت
القدور وقطعت الأخبية، الأمر الذى كانت نتيجته الطبيعية هو تكدير
النفوس بمعنى هبوط المعنويات. فإلى جانب الحذر من العدو كان على
الموحدين اتقاء أذى الريح، وذلك بوضع ستارة (زرب) من الأسوار حول قبة
الأمير يوسف، كما فعل الناس مثل ذلك حول أخبيبتهم. هذا ولو أن
الأسعار رخصت إعتباراً من صباح السبت ٢١ ذى القعدة، حيث صار سعر
مدّ الشعير ٢,٥ مدّ بدرهم، وسعر القمح ١ مدّ (واحد) بدرهم.

وفى ذلك اليوم تمّ القبض على ٦ أعلاج (رجال) من النصارى، وكانت

(١) المن بالإمامة، ص ٤٩٨.

نتيجة استنطاقهم (استجوابهم) عن أخبار طاغيتهم (رئيسهم) أن قتل ٥ (خمسة) منهم بينما أسلم سادسهم.

وصول المجاهدين من أهل الشرق :

وفى ذلك الوقت أتت الأنباء إلى المحلة بوصول الشيخ أبى حفص من مرسية بعسكر الشرق، وفى صحبته الزعيم أبو الحجاج يوسف بن مردنيش مع أهل أشبيلية وأهل الثغر. فكان خروج الأمير وأخيه السيد أبى حفص، وجميع الإخوة، وأشياخ الموحدين، وأشياخ أجناد أهل الأندلس والطلبة أجمع. وكان اللقاء فى الفحص القريب من وبذة، حيث شرف الأمير يوسف وإخوته القادمين بالنزول عن خيلهم، فلما رآهم الشيخ أبو حفص (اينتى) قد نزلوا نزل إليهم. والتقوا لقاء مباركاً، ودام وقوفهم طويلاً فى سلام وكلام، ثم دعا لهم أمير المؤمنين- على حسب العادة- وركب، وركبوا وانصرفوا إلى مضرب المحلة.^(١)

الأحوال الجوية السيئة تضعف معنويات الموحدين :

والهم بعد ذلك أنه ابتداء من مساء الأحد ٢٢ من ذى القعدة/ ١٨ يوليئه عادت الرياح عاصفة أشد من قبل، فمزقت الأخبية ثم «جاءت بمطر وابل ورعد قاصف وبرق خافق»، وذلك فى شهر يونيه (يوليه ١١٧٢م)، الأمر الذى أفشل خطة تعطيش أهل وبذة- والحملة نفسها بالتالى. فعندما حاول الأمير يوسف شن حملة شاملة على وبذة صبيحة الإثنين ٢٣ من ذى القعدة، «فبدأ المطر والرعد والبرق... ماء كأفواه القرب حتى فزع الناس، ورغبوا فى التوبة، وانقلبوا». وعندما عاود الأمير القتال كرة أخرى، عند تحسن الأحوال الجوية ظهراً، لم يُجد الأمر شيئاً، حتى أنه لم يخرج يوم الثلاثاء من منزله، إذ بقى «مفكراً، شغل البال بما عاينه من عدم الاجتهاد، والعجز عن الجهاد».

(١) المن بالإمامة، ص ٤٩٨-٤٩٩- حيث: وأمر أبو الحجاج بن مردنيش بالنزول بمحلة أهل الشرق بالجبل المجاور لوبذة... هذا بينما زاد روع النصارى وهلعهم، وهم ينظرون من أعلى مدينتهم، حيث زاد عليهم الحصار، كما لم يجابوا إلى طلبهم الأمان.

والحقيقة أن الحال انقلبت على الموحدين. ففي يوم الأربعاء الثاني « كان خروج النصارى على الموضع الذى كان فيه قبيل هسكورة يحرسونه، ففروا منه، وأدبروا عنه، الأمر الذى اقتضى إنزال عقوبة الضرب بالسياط بهم ». وهكذا ساءت أحوال الرجال، فإلى جانب الحذر والترقب من شرور العدو، فشل خروجهم صباح الخميس ٢٦ من ذى القعدة / ٢١ يولييه تحت إشراف كل من ابن تفرجين وابن همشك، من أجل البحث عن العلف والشعير والزاد، فقد باتوا ليلة واحدة فى خروجهم هذا للبحث عن الزاد، وانصرفوا خائبين دون علف ولا زاد، الأمر الذى أدى إلى إرتفاع السعر.

وهكذا كانت خطبة يوم الجمعة من الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن عمر باللسانين العربى والغربى (البربرى) ترمى المرائين من مجاهدى وبذة بالتقصير وخيانة الله عز وجل، وبأنهم ليسوا بمؤمنين ولا بموحدين، هذا، كما عيبرهم بأن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراهم لتفرطهم فى حق الله تعالى، من الجهاد. ثم إنه « توبهم ، فقالوا تبنا ».^(١)

أما عن آخر ما يعبر عن فشل حملة وبذة، حسبما يعرضها ابن صاحب الصلاة بكل دقائقها، فهو ما عرضه بعض كبار الأندلسيين، وهو: عبد الرحمن بن أبى مروان بن سعيد الغرناطى، من دعوة صاحب وبذة، وهو العليج « ولد مريق » (أحد أبناء هانريك دى لارا، مربى ملك قشتالة الفونس الثامن) يطلب منه أن ينزل عن الأمان الذى كان يطلبه فى بداية الحملة. ولم تجد الإشارة بعد ذلك إلى التى كانت بينه وبين أبيه، حيث كان له الفضل فى إخراجه من سجن يحيى بن غانية، إذ أخبره العليج أنهم يحتشدون لقتال أمير المؤمنين.

والمهم أن ابن صاحب الصلاة يجعل من ذلك الخبر الذى أوصله ابن سعيد الغرناطى إلى الأمير أبى يعقوب يوسف، وكأنه نقطة النهاية بالنسبة لحملة وبذة. فلقد عقد الأمير فى عشية ذلك اليوم مؤتمراً لشيخ الموحدين

(١) المن بالإمامه، ص ٤٩٩-٥٠١، وقارن ابن عذارى، الموحدون، ٩٦-٩٧.

من كل صنف، لاتخاذ ما يصلح من الرأى لهذا الخبر الطارىء.
وهكذا لم يمض جزء من ليلة الأحد ٢٩ ذى القعدة/٢٥ يوليئه، إلا وكان الخليفة يصدر الأمر «بالحرق البرج المصنوع لقتال الكفرة (النصارى)، ويحرق الآلات كلها، المصنوعة من البرج». هذا، كما صدر الأمر بحمل النواقيس المأخوذة من كنائس وبذة على الدواب، وذلك استعداداً للقلوع عن مدينة وبذة.

ويصف ابن صاحب الصلاة الخروج عن وبذة صباح الأحد ٢٩ من ذى القعدة سنة ٥٦٧هـ/٢٥ يوليئه ١١٧٢م، وكأنه خروج من الجحيم. فعندما دق الطبل الكبير إيداناً بالرحيل «فكأن القيامة قد قامت، فمن رحل حائر لا يدري ما يصنع، وآخر حازم قد أخذ بما كان يسمع ويتوقع».

وكان من الطبيعي ألا يترك أهل وبذة الموحدين يخرجون فى سلام، دون انتهاز الفرصة، «فلقد خرجوا فى حينهم بخيلهم ورجالهم، ووصلوا إلى الوادى الذى كانوا قد منعوا الشرب منه من يوم حصارهم، وابتدأوا مع الناس القتال. وأشعلت فى البيوت النيران والزروب، وصار الناس فى حرب وانزعاج إلى الرحيل، ولا أخ يسأل عن أخيه من حال الذهول، ووصل النصارى إلى السوق على قرب من المحلة، وقتلوا الضعفاء والمرضى».

وهكذا لم يتم رفع الأخبية إلا مع التوقف عن القتال. ومن المهم الإشارة هنا إلى أن قبّة الأمير أبى يعقوب يوسف كانت آخر الأخبية المرفوعة، وذلك فى حماية السيد الأعلى / أبى حفص الذى كان قد لبس درعه، وهو راكب فى قبيل أهل تينمل.

وهكذا كانت الحركة «والناس على ترتيبهم، والنصارى يقربون ثم يهربون»، والرايات تتقدم على طريق قونكة (Cuenca) - لاستعادتها بحول الله^(١). فكأن وبذة لم تكن - رغم كل المصاعب والقتال - إلا محطة أولى على الطريق: طريق الجهاد بهدف الاسترجاع.

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٥٠٢-٥٠٣، وقارن ابن عذارى، الموحدون،



الطريق إلى قونكة :

مشت الحملة مسافة ٣ (ثلاثة) أميال، ومن ثم كان النزول في موضع الماء الجارى المتصل بمدينة وبذة، وذلك في الوقت الذي كان السادات (إخوة الأمير) في الساقة مع جمع كبير من العساكر يدفعون الغدو من أتباع الضعفاء من الناس المجاهدين، وفي صحبتهم يوسف بن مردنيش وإبراهيم بن همشك، وأبو العلاء بن عمزون بعسكر الأجناد الأندلسيين. ونجحت قوات المؤخرة في الاشتباكات مع المطاردين، وفي قتل ٦٠ (ستين) علجاً، وأسر عشرة منهم، عرفوا بذلك عندما وصلوا إلى المحلة عشية اليوم.

وإذا كان العسكر قد باتوا في موضع النزول على حذر تلك الليلة، فإنهم رحلوا في صبيحة الإثنين آخر ذى القعدة من موضع الماء المذكور رحيلاً سهلاً، بترتيب العساكر والرجال والرماة في كل من المقدمة والساقة، ومشوا لمسافة ١٠ (عشرة) أميال، وحلّوا «بقريّة كثيرة الزروع، خاوية الربوع، فعاثوا في قمحها وشعيرها، وعفّوا آثارها».

وفي يوم الثلاثاء أول ذى الحجة/ ٢٥ يوليّه ١١٧٢م كان المسير نحو مدينة قونكة على ترتيبهم السابق، والطبول تضرب بكل شرف حتى الوصول إلى وادي شوقر، على بعد ميلين من قونكة، بالجبل غربيها. وانطلق الرجال يستبيحون زروع النصارى، كما يسمح ابن مردنيش بأرض المسلمين للنصارى. وبعد صلاة العصر كان الرحيل إلى قونكة لمعاينتها.

وصف قونكة :

ويصف ابن صاحب الصلاة الذي كان في الصحبة الخلافية، مدينة قونكة، عند معاينة الأمير أبى يعقوب يوسف لها ^(١). وإذا كان الإدريسي

(١) المن بالإمامة، ص ٥٠٤.

لا يعرف بقونكة ولا يذكر منها إلا الاسم، كما لا يظهر فيه عن وبذة إلا الاسم وفي شكل وبذى، دون معلومات عنها^(١)، فإن ابن صاحب الصلاة الذى كان فى الصحبة فى حملة وبذة، يعرف بقونكة التى شاهدها، فيصف قصبتهـا «بالشاهقة المنبعة... المتصل علوها بالجو، تدل على آثار من الغبطة بها عند ملوك الإسلام». ويحدق بها من جهة الغرب وادى شوقر (شُقْر) المنيع الحافات، ومن شرقها واد آخر على مثاله فى المنعة: والنهران يصبان فى بحيرة عظيمة لشرب أهل قونكة، وهى لصق السور مباشرة. وهكذا يكون الدخول إلى المدينة على قنطرة عظيمة، قائمة على برجين عظيمين، على الواديين، وفى الشمال (الجوف) من القنطرة حفير فى الحجر الصلد، على عمق قامتين، له أدراج (جمع دَرَج) للنزول للشرب ولطحين القوت (الطعام: اتقمح) فى الأرض (بالأرحاء). وموقع المدينة على الجملة فى غاية المنعة، لا موضع للقتال فيه إلا من جهة الحفير.

وفى هذه البحيرة (حيث البساتين) توجد «كرومهم، وشجرهم، من: الجوز، وغير ذلك»^(٢).

سكان قونكة المسلمون وقتئذ:

أما عن السكان المسلمين، فكانوا فى حالة يرثى لها، وذلك أنه عند وصول أبى يعقوب يوسف، «خرج الضعفاء من أهلها بجميع عيالاتهم، وبنيتهم. وهنا يفسر ابن صاحب الصلاة ذلك الضعف الذى ظهر عليهم، بأنه كان نتيجة معاناة الحصار الذى ضربه عليهم العدو الأسبانى طوال ٥ (خمسة) أشهر، ولم يرفع إلا عندما عرف بقدوم أمير المؤمنين يوسف بالمجاهدين الموحدين. وهنا أصدر الأمير أمره بإحضار هؤلاء الضعفاء من أهل قونكة، باعتبارهم بقايا المجاهدين فى الشغل الأعلى المجيد، وعهد بتلك المهمة إلى مستشاره الكاتب أبى موسى عيسى بن مخلوف

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، الطبعة المصرية الشاملة، ج ٢ ص ٥٦٠.

(٢) المن بالإمامة، ص ٥٠٤-٥٠٥.

الجدميوى. وبلغ تعداد القونكيين هؤلاء ٧٠٠ (سبعمائة) فرد فأمر لهم بالعطاء بصفتهم حفاظ ذلك الشجر، فكان نصيب الفارس منهم ١٢ (اثنى عشر) ديناراً، والراجل ٨ (ثمانية) والمرأة ٤ (أربعة)، والطفلة ٤ (أربعة) مثاقيل. هذا، كما أعطاهم الأمير معونة عينية مقدارها ٧٠ (سبعين) بقرة، «لم يكن عنده فى المحلة غيرها»، إلى جانب الكثير من أسلحة الرمي الحربية، من: الرماح والقسى والسهام. هذا، كما تصدق عليهم العسكر الموحدى، ووجوه رجاله، بكميات من الطعام، من: القمح والشعير. وانفرد كل من ابن الشيخ أبى إبراهيم، والحافظ أبى يعقوب يوسف بن أبى عبد الله تيجيت بالتصدق بوقر حمل من القمح.

هذا، كما اشترى لهم كل من الوزير: إدريس بن جامع وابنه يحيى زرعاً (قمحاً فى سنبله) بمائة دينار^(١). والمهم هنا هو أن الزرع المذكور كان مأخوذاً من عمارة (الأرض المزروعة) النصارى، وأن الأمر صدر لأهل قونكة بالخروج فى يوم الأربعاء، من ذى الحجة لدرس ذلك القمح وحمله إلى بيوتهم^(٢).

والمهم هنا هو أن الزرع المذكور كان مأخوذاً من عمارة (الأرض المزروعة) النصارى، وأن الأمر صدرت لأهل قونكة بالخروج فى يوم الأربعاء، من ذى الحجة/٢٦ يوليئه لدرس ذلك القمح وحمله إلى بيوتهم^(٣).

الخروج من قونكة «قيامه» أشبه بالخروج من وبذة:

والظاهر أن حصد قمح النصارى هذا فى سنبله اعتبر من قبل أصحابه إعتداء على أملاكهم، الأمر الذى أدى إلى تجمع عسكر من النصارى عند «البورت» (الباب) القريب من قونكة، عرف المخبر عنهم أنهم من رجال

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٥٠٤-٥٠٦.

(٢) المن بالإمامة ص ٥٠٣-٥٠٦.

(٣) المن بالإمامة، ص ٥٠٦.

أَذْفَنَش الصغِير (السليطين) ومعه قمطه نونيه دى لارا. ولما عرف أمير المؤمنين يوسف ذلك رأى أن الاستعداد للحرب يقتضى «القلوع من موضعه، ويجوز وادى شُقْر... فجاز الوادى مع أخيه أبى حفص، ونزل فى الجبل المتصل بمدينة قونكة لحصانته. وصدر الأمر للعساكر بالرحيل، فكانت «قيامه أخرى مثل قلوهم من وبذة».

فالوادى (النهر) لم يكن فيه إلا مخاضة واحدة «وهو عظيم الانحدار بسيل وتيار، فكثر صياح الناس من حملة، وعظيم هوله... وسلب أكثر ثياب الناس الجائزين، ولا أخ يقف على أخيه، ولا أب يصبر على بنيه... هول حتى العصر». واتصل وصول النصارى حتى نزلوا على مقربة من موضع المحلة بجبل يعرف بتونبس (Tumbus)، وتراعت المحلتان والوادى بينهما. وفى ليلة الخميس اجتمع الخليفة بمستشاريه، وتم الاتفاق على لقاء الأعداء غداً الجمعة، لم يشذ عن ذلك إلا العرب الذين رأوا أن الموضع غير مناسب لحربهم التى تتطلب البراح اللازم للكر والفر.

وفى صباح الجمعة تنهض الموحدون ومعهم أهل الأندلس بقيادة أبى العلاء بن عزون، وساروا إلى محلة النصارى، فكانت بين الجمعيتين مدافعات ومحاملات، وكانت الغلبة فيها للمسلمين، وهكذا، بينما كان الموحدون يتأهبون للحرب فى صباح السبت ٥ من ذى الحجة، خرج ابن عزون يستطلع الأعداء فوجدهم قد «قلعوا من محلتهم منصرفين إلى بلادهم». فكان من الموحدين القلوع أيضاً، فكأن الفريقين كانا على ميعاد رغم ما بينهما من العداوة.

وكان التوقف بعد الخروج من قونكة عند جبل الصومعة على بعد ١٠ (عشرة) أميال. ومع ان الموحدين نزلوا على ماء طيب وسرح خصب، إلا أن السعر اشتد تلك الليلة، فصار سعر المدّ المراكشى من الشعير (إثنى) درهم، ومثل ذلك القمح، كما بيع رطل الدقيق بدرهم واحد - ومع ذلك بات الناس على خير. وفى الغد: الأحد ٦ من ذى الحجة كان الإقلاع والمشى

لمسافة ١٨ (ثمانية عشر) ميلاً إلى وادي تامطة (Tamta)، حيث النزول
فى جبل حصين دون حمولات ولا أخبية بسبب ضعف الناس عن المشى،
الأمر الذى أدى إلى بيات أكثر الناس دون علف ولا قوت. وكان الرحيل
صبحة الإثنين لافتراق الناس والحمولات.^(١)
ما بين الجبل بالبلاد واضطراب الطبيعة :

ينفرد ابن صاحب الصلاة بتقديم معلومات تفصيلية مذهلة عن حملة
وبذة وقونكة، من حيث كونه شاهد عيان، وبصفته أحد عمال الديوان
الخلافى المقرين من الأمير. وتلك الحملة أخذت شهرتها من حيث اعتبارها
أقصى وغول بلغته القوات الموحدية فى بلاد الشجر الأعلى، فى المناطق
الواقعة ما بين قشتالة وأراجون. فكأن الموحدين كانوا يدقون إسفيناً فى
قلب بلاد الريبونكيستا يمكن أن يكرّس الفصل ما بين الشرق والغرب فى
شبه الجزيرة الإيبيرية. وهذا ما يفسر شهرة حملة وبذة فى تاريخ الموحدين،
إذ حاول الكتاب العرب أن يجعلوا منها قرينة لزلّاقة يوسف الأول ابن
تاشفين، سعى خليفتنا يوسف بن عبد المؤمن، والحقيقة أن الذى ساعد على
رواج هذه الفكرة هو إفتقاد مؤلف ابن صاحب الصلاة الموسوم بالمن
بالإمامة. أما وقد ظهرت رواية المن جزئياً إلى النور، فإنها بفضل ما تلقىه
من الأضواء على دقائق تفصيلات تلك الغزوة، زمنياً وموضوعياً، فإنه
يمكن إعادة النظر فى تقييم تلك الغزوة أو تقويم مساراتها.

فنجاح الحملة، وإن كان محدوداً، إنما يرجع إلى التضامن بين الجند
الأندلسى والجند الموحدى. أما عن مسئولية محدوديته فترجع إلى الظروف
الجوية غير المناسبة، مما سبقت الإشارة إليه. هذا، إلى جانب افتقاد الأدلاء
الخبراء أيضاً، سواء فى الأعراض الجوية أو الطرق البرية وهذا ما أدى إلى
انفصال الرجال عن معداتهم الحربية ولوازمهم المعيشية، وهو الأمر الذى
يظهر فيما توقفنا عنده من أجل طريق العودة من قونكة فى اتجاه بلنسية

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٥٠٦-٥٠٩.

وشاطبة، وهو ما نعود إلى مواصلته أيضاً.
إهتقاد الطريق ومعاناة الجوع:

ففى ليلة الإثنين ٧ من ذى الحجة/٣ يوليئه ١١٧٢م، وفى جبل وادى تامطة- على مسافة ١٨ (ثمانية عشر) ميلاً من قونكة- تأخرت الحملات، ومشت على طريق أخرى، فبات الناس دون علف ولا قوت، فعدم الشعير حتى بيع المذ المراكشى منه بـ ٣ (ثلاثة) دراهم. وفى المرحلة التالية، عندما مشى الناس ١٢ (إثنى عشر) ميلاً، «ونزلوا على وادى برج قبلّة (Caraballa) على طريق بلنسية، فماتت دواب الناس من التعب والنصب، وجاع الناس وكثر فيهم الموت». وزادت الحال سوءاً بعد عبور العقبة الكؤود والمعروفة بعقبة الأباليس، ومن ثم قنطرة أغربالة حيث كان النزول فى ٩ من ذى الحجة/٥ يوليئه (وقفة الأضحى) وقد «نال الناس الضعف والجوع من عدم القوت والعلف، ومات كثير من الخيل والبغال والجمال فى العقبة المذكورة».

وهنا كانت الحملة قد أمضت شهرين، فكان توزيع «البركة» (الرواتب الشهرية) لجميع العساكر على ترتيبهم، فنال الفارس الكامل (وغيره) ٥ (خمسة) دنانير، كما كان للرجالة على أصنافهم ٢ (دراهمان)، ومن الواضح أن المواد الغذائية فى المحلة كانت قليلة، إذ بمجرد صرف تلك الرواتب إرتفع السعر فى ذلك اليوم، فصار: «٣ (ثلاثة) دراهم للمدّ المراكشى من الشعير، وكذلك القمح».

وكان قضاء عيد الأضحى (١٠ ذى الحجة/٦ يوليئه فى قنطرة غربالة، حيث قسم الخليفة الكباش على كبار الموحدين، والظاهر أن الموقف كان حرجاً، إذ صدر الأمر بالإقلاع والمسير مسافة ١٥ (خمسة عشر) ميلاً، حيث كان النزول فى مرج القيداق (Caudete) على مقربة من حصن ركانه (Requena)، من بطن بلنسية، وكان المسير بعد ذلك على عجل فى اليوم الثانى للعيد، بسبب المجاعة، نحو حصن ركانه، «فأخطأ الأدلاء الطرق،

فافتترقت العساكر فى الجبال والمضايق، حتى بات الأمير فى موضعه، وأخوه أبو حفص، دون حمولة، وزاد الجوع بالناس والعدم». فعندما نزل فى موضع مجمع الأودية، ثالث أيام الأضحى (١٢ من ذى الحجة/٨ يوليئه) كان سعر الدقيق ٤ (أربعة) دراهم للرطل، كما بلغ سعر الشعير ٤ (أربعة) دراهم، بينما انعدم القمح.

وفى يوم الأحد (٣ من ذى الحجة/٩ يوليئه) كان الطريق صعباً لمسافة ٧ (سبعة) أميال، إلى حصن بنيول (Bunol) من نظر بلنسية. وهنا كان على الأمير أن يسرّح حشود أهل الشرق، وجميع بلاد الأندلس إلى أوطانهم. وفى ذلك اليوم - بعد تسريح الجنود - إنفكّت المجاعة فى المحلة بفضل وصول الكثير من التجار من بلنسية بالدقيق والشعير والفواكه: هدية من قبل أبى الحجاج يوسف بن مردنيش إلى أمير المؤمنين، فكان الفرج فيه للخاصة من الناس والعامة. هذا، كما انصرف غير الرسميين من المجاهدين إلى بلنسية طلباً للرزق - بعد هذه الشدة. وينص ابن صاحب الصلاة على أنه اشترى فى حصن بنيول تينة خضراء - فى أول الموسم - يتقوت بها بدرهم. (١)

ومن حصن بنيول سار الأمير إلى شاطبة، ودخل يوم الخميس ١٧ ذى الحجة/١٢ أغسطس، وتجهول بين قصابها الشاهقة المانعة، وأبراجها الشاسعة، فأقام فيها الخميس والجمعة. وبعد صلاة الجمعة، إحتشد الناس من أهل شاطبة، ووعظهم أشياخ الموحدين والأندلسيين، وأنسوهم وبشروهم بالخير العميم. ومن ثم رفعت الرايات المنصورة فى أعلى القصاب، وضربت الطبول.

وكان الرحيل من شاطبة يوم السبت ١٩ من ذى الحجة نحو مرسية، مروراً بحصن بليانة (Villena) يوم الأحد ٢٠ (عشرين) من ذى الحجة، ثم النزول بحصن عصف (Aspe) يوم الإثنين، وبحصن إلج (Elche) يوم

الثلثاء، ويحصن أوريوله يوم الأربعاء، ويحصن منت أقسوطه (Monteaguet) القريب من مرسية حيث خرج إليه (الأمير أبى يعقوب) أهلها «بالتبرك به والابتسام، ودخل قصرها بنصر دائم ومحبة وسلام، والطبول تضرب والرايات بالسعود تخفق وتطرب... وجميع أهل مرسية يستبشرون... ويحمدون الله الذى رفع عنه الظلم والكفر... والنساء يزغردن».

وتبعاً للأوامر العلية كان على هلال بن مردنيش (الإبن) أن يدبر إنزال الموحدين فى الديار، والاجتهاد فى برهم على أكمل الوجوه، «فوجدوها معدة مملوءة كسى وأرزاقاً عدة»، هذا، «كما أهدى من الجوارى الكعاب، والسرارى ذوات الحسن والشباب، مما كان عند أبيه معدة لهذا الباب... وقبل الخليفة هداياه، وجاه بالعطايا الجزيلة أكثر من عطاياه».

وخلال احتفالات مرسية هذه، كانت سنة ٥٦٧هـ / ٧٢-١١٢١م تلفظ أيامها الأخيصة. ومع اقتراب الـ أول يوم من المحرم ٥٦٨هـ / ٢٣ أغسطس ١١٧٢م - وكان وقت توزيع البركة (الأرزاق) على العسكر، على ما نظن - إذا «رغب أكثر الموحدين والعساكر المرتزقين (النظاميين) فى السراح إلى بلادهم وأوطانهم «عند ضيق مرسية بهم، وغلاء السعر فيها بسببهم، فأذن لهم فى ذلك، وارتحل أكثرهم». أما أشياخ (العساكر) وكبراؤهم ومزاورهم (جمع مزوار بمعنى الشيخ أو الكبير باللسان البربرى أو الغربى)، فدامت إقامتهم حتى أهل شهر صفر (٢٢ سبتمبر ١١٧٢م) عندما خرجت البركة (الجماعية على ما نظن) لجميع الموحدين والعساكر المرتزقين حسب خروجها فى تلك الغزوة، أى بمقدار ٥ (خمسة) مشاقيل للفارس، ولغير الكامل ٤ (أربعة) مشاقيل، وللراجل الكامل ٢ (مثنى)، ولغير الكامل من الرجال ١, ٥ (مثنى ونصف مثنى). وكان الدفع جماعياً كما تنص الرواية، إذ «قبض كل شيخ بركة قبيله، وافترق الناس طلباً للرفق والرزق».^(١)

البرتغاليون يغدرون بمدينة الغرب «باجة»

وفى نفس ذلك اليوم الأول من (المحرم) من سنة ٥٦٨هـ / ٢٣ أغسطس ١١٧٢م، وقتما كان المجاهدون العائدون من رحلة وبذة الصعبة الشاقة، يطالبون بالرحيل من مرسية، التى ضاقت بهم وغلا السعر فيها بسبب وجودهم، إلى أوطانهم وبلادهم، كانت باجة، عاصمة العرب، تقع فريسة سهلة بين يدي الغادر جراند، حسبما كان المسلمون يسمون ذلك المحارب الأسباني جيرانالدو سيمبادور الذى كان يعمل فى خدمة ملك البرتغال ابن الرنك (فرناندو هنريكيز).

ولما كان من غير المقبول أصلاً أن تقع عاصمة الغرب باجة، مدينة سيد رأى بن وزير، زعيم حركة المريدن، والتى رأى الغادرون بها أنها أكثر من أن تبقى فى أيديهم الصغيرة، فلم يكن أمامهم إلا تخريبها والعمل على تهجير أهلها وتفرغها منهم، فى التو والحين، الأمر الذى عزّ على كثير من المؤمنين المسلمين أن يسجلوه فيما تلى من العصور، فكأنه منكر لا يجوز إشهاره. فخراب العاصمة الغربية محل أيدي المفسدين من أهل الركونكيستا، لا ذكر له فى معجب عبد الواحد المراكشى، وليس من الغرب إذن أن يسقط فى كامل ابن الأثير، وبالتالي من عبر ابن خلدون، مثلاً.

أما عن صاحب الفضل فى تسجيله تفصيلاً، فى منّه، وهو ابن صاحب الصلاة، كاتب الديوان، فإنه لا يقبل فى روايته المستفيضة عن خراب باجة «الغرب الأندلسى» على عهد عظيم الموحدين، يوسف بن عبد المؤمن، إلا أن يكون للمسألة جذورها الضاربة بعيداً فى فساد الإدارة الموحدية فى باجة، وهو الأمر الذى كان خافياً على يوسف خليفة عبد المؤمن. هكذا يرسم صاحب المنّ صورة قائمة للإدارة الموحدية فى مدينة باجة، التى يمكن إرجاعها إلى عهد عبد المؤمن والموحدين. فإذا كان الغدر بباجة لا يساوى - فى نظره - إلا درهماً أو ما شابهه، وهو أجر السامر أى الحارس الليلي

ببرج القصبة الرئيسى بباجة، والمعروف ببرج الحمام، وهو الأجر الذي طمع فيه كبير الحراس وقتئذ: الطالب عمر بن سحنون، المتهم بالإهمال وقلة الجِد على السَّمَار، بل وأكله «مواستهم المرتبة لهم، على سكتناهم فى أبراج القصبة والمدينة» (وهكذا) «ترك البرج مضاعاً دون سامر»، الأمر الذى أدى إلى تسلل الأعداء، وجعلهم السَّلام لصق البرج ووصولهم إلى باب القصبة ودخول عسكرهم فى القصبة. وهكذا لم يكن أمام الناس إلا الفرار على وجوههم فقتلوا وأسروا فى الأبواب، وكان بين الأسرى عيال الطالب عمر بن سحنون، وعيال القاضى ابن زرقاج، وهكذا «عاقب الله تعالى كل من بغى فيها وسعى فى شهادة الزور وشهد بها»^(١) وهذا ما يدخل فى إطار التفسير الدينى للتاريخ وهو المبنى على مبدأ القضاء والقدر والذى يعتبر القديس أغسطين من أشهر ممثليه القدامى.

والمهم هنا هو أن أخبار الفساد الذى استشرى فى باجة وصل إلى سمع الخليفة أبى يعقوب يوسف، الذى سأل مستشاره أبا بكر بن الجَد عن أهل (١) انظر ابن عذارى (هوبى)، ص ١٠٠-١٠١- حيث محاولة التنصل من سقوط باجة التى كانت مدينة قديمة البناء أسوارها عالية، وان عبد الرحمن الداخل هو الذى هدمها بعد هزيمة العلاء ابن مغيث، فكان سبب فساد الأوضاع الآتية ترجع إلى بداية العهد الأموى القديم، وان قررت الرواية ان الفساد الآتى يرجع إلى «خلع سيد رأى بن وزير عن باجة وجميع بلاد غرب الأندلس، بمعنى سقوط دولة الميردين. فبعد ابن وزير ولى مدينة باجة حفاظ من الموحدين، فنظر كل واحد منهم بحسب اجتهاده. والنموذج لذلك هو الحافظ: عمر بن تيمصليت التينملى الذى أثار غضب أعيان المدينة وسكانها، الأمر الذى أدى إلى عزله وولاية عمر بن سحنون المذكور آنفاً والذى يوصف بأنه «طالب بربرى سخيى العقل... قصير القامة، توسجا، أعزج لا يفهم، إلى غير ذلك من تقريب السفال وإثارة التباغض بين العامة والخاصة. الأمر الذى جعل الشاعر أبا بكر بن حبيش يصف الفرار من باجة وقتئذ بأنه غنيمة وهو التقرير المستغرب حقاً. وفوق هذا تصف الرواية وزير عمر بن سحنون بأنه «هون» سافل، وان قاضيه يعمر بن زرقال رجل طائش كثير الحركة بطانته من الأرزال الظلمة وشهود الزور. وعلى الجملة فقد أخذ عمر بن سحنون رأى الفجار إذ سمح لنفسه بقتل الفقيه أبى جعفر بن الانصارى... بل أراد «أراد القيام وخلع الامام». فكانه ثائر من ثوار الطوائف، وليس واحداً من عمال الموحدين.

باجة وانتهى البحث والمسألة إلى تكذيب شهود الصدق للقاضى أو شهوده والعفو عن المظلومين. وكانت فرصة انتهزها محمد سيّد رأى بن وزير لرفع الناس إلى الخليفة باخراج أصهاره من باجه، وهم: بنو صاحب الصلاة وبنو الأنصارى والإذن لهم بالخروج من باجة إلى أشبيلية، فتم لهم ذلك، وكان دخولهم أشبيلية بما خف من أموالهم وأحوالهم يوم الخميس ٢٥ من جمادى الثانى سنة ٥٦٧هـ / ٢٤ فبراير ١١٧٢م. ويختم مؤرخنا ابن صاحب الصلاة، ورجل الديوان الموحدى المشهور، مسألة الفساد الذى استشرى في باجة بعد إنتقالها من بين يدى ابن وزير إلى إشراف الإدارة الموحدية، قائلاً: « فلم تدم الحال إلا ٦ أشهر و٧ أيام، وعاقب الله (الطالب عمر) ابن سحنون المذكور، والقاضى وشهود الزور. وكان قدرها فى (أول محرم من عام ٥٦٨هـ) بمعنى التفسير الدينى لمؤرخ الديوان الموحدى الشهير، تفسير القبول بقضاء الله خيرته وشره، فكأنه لا تفرقة بين الخير والشر، وهو ما أخذ به صوفية الإسلام، حقاً.^(١)

والمهم فى مسألة الغدر بباجة أن الملك البرتغالى (ابن الرنك: هينريكيڤز) لما دخل باجة وعان كبرها، « وإنها لا يمكن إقتناؤها لاتساعها، فأحلاها، وحرقتها، وهدم سورها، وأسر أهلها إلى أن أنقذها الله من الأسر بالفداء، ومشى كثير منهم إلى مراكش وغيرها يطلبون من الناس، فوجدوا عندهم الحنان والعطاء والإيناس، فأنجبوا بعد تفرقهم.^(٢)

(١) انظر ابن عذارى، ص ١٠٢-١٠٣- حيث تنسب الرواية إلى أن سيّد رأى بن وزير قال، للخليفة أبى يعقوب يوسف: « بيعت باجة بغيراط » بمعنى أجرة الساحة فى البرج التى أخذها ابن سحنون، الذى فرّ فلم يوجد حتى عاقبه الله بالجذام».

(٢) ابن صاحب الصلاة، ص ١٠٢-١٠٣.



الإقامة الجبرية لبني مردنيش

وفى شهر صفر هذا (سنة ٥٦٨هـ/أغسطس-سبتمبر ١١٧٢م) كان نظر أبى يعقوب يوسف، وقت استقراره فى مرسية، فى ضبط حصون المدينة ومعاقليها، وذلك بتوجيه الموثوق فيه من الولاة والقواد إلى منازلها وقلاعها. وفى هذا المقام كان الاهتمام بضبط بني مردنيش والاطمئنان إلى دوام طاعتهم. وهكذا كان استدعاء هلال بن مردنيش، وإخوته، وعمهم أبى الحجاج يوسف، إلى مجلس الأمير يوسف الذى «أنسهم ووعدهم من بشره وسره ... وأشار إليهم أنهم سيكونون من جملة الموحدين مع أهل الخطوة والأهل ... وأمرهم بالمسير إلى حضرته: مقره ومجمعه، فأخذوا فى النظر فى تنفيذ ذلك.

العهد بولاية بلنسية إلى ابن مردنيش العم :

أما عن عمهم أبى الحجاج يوسف بن مردنيش، فقد أمره الخليفة أبو يعقوب فى ولاية بلنسية وأنظارها (توابعها)، وذلك «لما علم من صفاء طاعته وخلوصه».

هذا، كما أبقى أبا عثمان بن عيسى - وهو من مشاهير قواد ابن مردنيش - على ما كان بيده من حصن جنجالة، وتوابعه من قلاع الشجر وحصونه كما أبقى من رآه من القواد بالشغور، وعمهم بالخير والفضل، حتى نسأهم ما تقدم لهم مع أميرهم (ابن مردنيش: محمد بن سعد). وهكذا، ومع اطمئنانه إلى استقرار الأمور فى مرسية، إستعد يوسف للعودة إلى حضرته الأندلسية: أشبيلية.

العودة إلى أشبيلية «بعد كمال بغيته فى غزوته»:

وكان تحركه إلى أشبيلية فى أول شهر ربيع الأول من سنة ٥٦٨هـ/٢١ سبتمبر ١١٧٢م. وكان اجتيازه على غرناطة حيث ترك على ولايتها أخاه السيد الأسنى أبا سعيد (عثمان)، ووصل إلى أشبيلية يوم

الخميس ٨ ربيع الأول (٢٨ سبتمبر)، وبصحبتة أخوه السيد الأعلى / أبو حفص، وجملة من بطانته من أشياخ الموحدين، ووجوه الدولة، وسائر الإخوة.

وخرج أهل أشبيلية إلى لقائه ومعهم الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد، فلقبهم أبو يعقوب مبتسماً ودعا لهم على عادته. ووصل معه هذا اليوم جميع أولاد ابن مردنيش، فأنزلهم في قصر ابن عباد، واشترى لهم دوراً لسكناهم بأشبيلية.

الإستفادة من بنى مردنيش في أشبيلية؛

وكان من الطبيعي أن تستفيد الدولة الموحدية من أمراء بنى مردنيش، أصحاب الشرق السابقين في مهمات متنوعة، من: أمنية حربية، وسياسية استشارية، مما يتعلق بأحوال بلاد الأندلس خاصة. فلقد خص أمير المؤمنين يوسف غانم بن محمد بجمع فرقة جديدة من الجند الأندلسيين، ممن كانوا سابقاً من أهل الخبرة من أصحاب أبيه، ومن أهل الثغور والأجناد بأشبيلية وتوابعها. وتكون تلك الفرقة الخاصة تحت إمرته وطلبه، في الغزو أو الدفاع أو الحملات التأديبية- في المنطقة وحتى طلبيرة وطليلة. وهكذا ترتب غانم في غزو بلاد النصارى شمالاً، متجرداً، ناصحاً للأمر، وهو أقلق القشتاليين بصفة خاصة.

أما عن هلال أخى غانم (ولد ابن مردنيش: محمد بن سعد)، والكبار من إخوته فقد ألحقهم الخليفة بجملة أشياخ الموحدين، وأبناء الجماعة لحضور مجلسه العالى، والتشاور فيما يعرض من الأمور، وما يتخذ بشأنها من الآراء أو القرارات أو الحلول. وذلك تقرباً لهم وتشريفاً، وتأديباً في نفس الوقت وتأنيساً.

وهكذا كان غانم يخرج بجمعه للغزو مع الموحدين، في جهات طليطة وطلبيرة وأنظارهما... «والأموال تدفع إليه وإلى إخوته، فيقسمها على فرسانهم وأتباعهم، فظهرت عليهم النعمة، والتقرب بأكمل الخدمة». وظل

غانم على هذا الحال، مجتهداً في الخدمة، ناصحاً للأمر، متجرداً.

وعلى مثل ترتيب غانم بن مردنيش سار الغزاة من الأجناد العرب حتى أقلق ذلك النصارى بمدينة آبله (شمال غرب مدريد)، الأمر الذي أدى إلى ردود فعل عدائية من جانب الزعيم الأبلى شان منوس (سانكو شيمينو) ضد ضواحي قرطبة وأشبيلية، مما باتى ذكره.

الإهتمام بإعمار الحاضرة أشبيلية :

هذا، وكانت مدينة أشبيلية موضع عناية الأمير أبى يعقوب يوسف، بعد عودته من غزوة آبله وقونكة، حيث كان بناء مسجد أشبيلية الجامع الشهير ببقاياها من جدران الصحن، وفيها منارته المعروفة بالدوارة (الجير الدا)، وكذلك عنايته ببناء القصور الريفية، المسماة بالبحيرة، خارج باب جهور، وبساتينها المشهورة.^(١)

وفود إفريقية تهنئ أمير المؤمنين يوسف على غزوة وبذة :

لم يكن من الغريب أن يكون لغزوة وبذة فى قلب أراضى ممالك الاسترداد، أصداؤها البعيدة المدى، وخاصة فى الأندلس والمغرب الكبير (حسب المصطلح المعاصر)، ما بين طرابلس (المغرب) والقيروان وتونس وحتى المغرب الأقصى ومراكش. والحقيقة أن غزوة وبذة تعتبر عند الكتاب العرب من غزوات الموحدين المعدودة، والتي رفعت من شأن أبى يعقوب يوسف من حيث كانت أولى غزواته الأندلسية التي وضعت على رأس ملوك الموحدين، والتي تذكر بالغزوات المجيدة الكبرى على أيام الناصر الأموى والعامرى المنصور.

والحقيقة أن غزوة وبذة لم تأتى بشئ كبير إن لم نقل بالفشل. فغزوها كان مجرد مشروع لإجهاض إنشاء مدينة حصينة فى منطقة الثغر الأعلى، يمكن أن يُعبر عن السيطرة الكاملة لدويلات الاسترداد على كل منطقة ذلك

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٥١٦-٥١٧، وقارن ابن عذارى، الموحدون، ص ٩٧-٩٨، وانظر ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٢١١.

الشجر البعيد الذى لم يعد لدولة الإسلام الأندلسية فيه أى نفوذ. فكان الغارة الموحدية على وبذة محاولة إسلامية جديدة لإثبات الوجود فى المنطقة الشجرية التى كانت لها روابط وثيقة ببلاد الشرق، وبالتالي بمناطق بنى مردنيش.

والمهم إذن فى غارة وبذة الكبرى أنها أعادت الثقة فى قلوب المسلمين فى إمكانية استعادة المنطقة لو حسنت النيات وخلصت الأعمال.

وفى النهاية فالدرس المستفاد من عدم جدوى الغارة البعيدة فى الأرض الحرام الثانية شمالاً بشرق، يوضح أن الأهم من ذلك كان العمل على تهديد المناطق الرئيسية فى قلب البلاد الإسلامية الجنوبية، فى ضواحي قرطبة وأشبيلية وأنظارهما، وفى كبريات مدن الشرق والغرب بمعنى ترسيم حدود ثابتة قد تنتهى بهدنة مقبولة لو حسنت النيات.

والحقيقة أن ذكريات وبذة (Huete) وقرينتها المعاصرة آبله (Avila) لم تلبث أن نسيت حتى أن مؤرخاً كبيراً مثل ابن الأثير الذى ينقل عن ثقات المغاربة، وخاصة فى العصر الموحدى، لا يفرق بين مدينة الشجر الأعلى المحدثه: «وبُذَة» وبين مدينة الأندلس الجنوبية «رُبْدَة» الشهيرة، والواقعة على مستوى شريش - شرقاً. وعن هذا الطريق توارث الكتاب ذلك الخطأ، وضاعت ذكريات حملة وبذة الموحدية عند الكثير من الكتاب، ولفترة طويلة من عصورنا الوسطى المتأخرة.^(١)

صاحب آبله (الأحدب- أبو البرذعة) يرذ على غارات الموحدين؛

إلى جانب هذين الإسمين الساخرين اللذين اشتهر بهما صاحب آبله عند الموحدين، ينص ابن صاحب الصلاة- المعاصر - على أن اسمه الحقيقى هو شان منوس الذى ربما كان أصلاً سانكو خيمينس حسب رواية ابن

(١) انظر ابن الأثير، ج ١١ ص ٣٩٠ الذى ينقله ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤٠ .

أبى زرع.^(١)

ويقرر ابن صاحب الصلاة أن الرجل الذي يصفه بـ«المسن الضال» كان «فى أيام فتوته وكهولته وشيخوخته يشن الغارات على المسلمين: غرباً وشرقاً وقبله وجوفاً، بجموع من الكفرة إخوته، ويصل بهم إلى جزيرة طريف، والجزيرة الخضراء». وهكذا كان يؤذى المسلمين «إلى أن أذن الله بهلاكه، وفناء شردمته أهل آبله فى هذا التاريخ (سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٠م) بسعد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين (يوسف)». فقد خرج فى شهر شعبان ٥٦٨هـ / مارس ١١٧٣م من آبله يريد نظر أشبيلية، وعبر الوادى الكبير فيما بين حصن بلمة (حاليا Palma del Rio)، وحصن الجسرف (Al Jarf)، بين أشبيلية وقرطبة، لكى يشن غاراته على جهات إستجه إلى قبلة قرطبة، إلى القنابانية (La Campina) حيث حصل على غنائم كثيرة، من: آلاف الغنم، ومئات البقر، كما أسر من المسلمين فوق ١٥٠ (مئة وخمسين) رجلاً^(٢).

ورداً على غارة الأحذب الجريشة هذه «خرج إليه العسكر (الموحدى) المنصور من أشبيلية يوم الخميس ١٣ من شعبان / ٣١ مارس، وقدم عليهم (الخليفة) أخاه السيد الأسنى أبا زكريا يحيى... ومعه أخوه أبو إبراهيم

(١) انظر ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٥١٨- حيث يمكن تفسير إسم شان بمعنى القديس (شنت) فكأن الرجل كان معمرًا، الأمر الذى ترجمه الرسالة الموحدية رقم ٢٢ ص ١١٢ من نشر بروفنسال- حيث النص على أن الأحذب كان من ذمى النصارى من أهل آبله، «ومن انضاف إليهم من الفرييرين (الإخوان الرهبان Les fèrers وغيرهم». هذا ولو أن الاستاذ بروفنسال يعرض فى دراسته للرسالة fèrers (ص ٥٣) لرأى الأب انطونيا (Antuña) الذى يرى أن إسم قمس آبله هو سانكو شيمينيز، الأمر الذى يتفق مع تسمية ابن أبى زرع للأحذب التى ربما كانت المرجع.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٥١٨-٥١٩، وقارن ابن عذارى (هويشى) ص ٩٨، وقارن رسائل موحدية بروفنسال، الرسالة ٢٢ ص ١٢٢-١٢٣ حيث إجتياز الوادى الكبير واكتساح الماشية فى جهة استجه، ثم العطف على موضع الكنابانية فى طريقهم إلى منور؛ وانظر الدراسة، ص ٥٣.

إسماعيل... وأشياخ الموحدين وأشياخ العرب بنخبة قبائلهم، وأنجاد فرسانهم ورجالهم...» ولما كان الأعداء قد عبروا الوادى الكبير فى طريق العودة، فلم يكن هناك مفر من اتباعهم إلى آخر الشوط. «فلما وصلوا إلى مدينة آبله، وصفت نفوس الناس للغزو... وأولهم الشيخ أبو حفص إينتى... واستعدوا من الزاد لعلو فتهم وأكلهم ما يكفيهم فى سفرتهم المنصورة، فمشوا على استعدادهم حتى وصلوا حصن بطروج (Pedroche: بطروش) حيث استراح من ناله الضعف من الناس، بينما قدموا الأدلاء، وعلي رأسهم الحافظ أبا عمران موسى بن أحمد الصنهاجى، يعرفونهم بمراحل مسير النصارى كل ساعة وبأخبارهم.

وفى صبيحة ١٩ من شعبان/ ١٥ أبريل ١١٧٣م تأخر النصارى وشيخهم عن الرحيل بموضعهم كركوى (Caracuel) بقرب قلعة رباح. وعندما علم بذلك الموحدون اعتقدوا أن النصارى يريدون اللقاء فى هذا الموضع، «فتأهبوا بأجمعهم، ولبسوا غلايل الدروع، والبيض فى رؤوسهم كالشمس فى الشروق واللموع، وأخذوا أسلحتهم فى أيديهم».

وهنا تقول الرواية أنه بينما كان الموحدون يأخذون أهبتهم للقاء، «كان العدو يظن أن لا مقارع له، ولا من يقف قبله على ما تعود قديماً». وعندما عرف الموحدون حالة استرخائه عزموا على البروز إليه، «فاستعجل الكافر الرحيل... فسل الله عليهم سيفه. وعندما انحازوا إلى جبل شاهق فى شعراء ملتفة ظنوا أن فيه منجاتهم، ولم يعلموا أن فيه مصارعهم ومماتهم...» ولم ينجح تحريض الأحذب فى تقويم موقفهم، «فبعد نصف نهار فى طعن وضرب، ومصارعة وحرب، هزم الله المشركين... ووصل الموحدون إلى اللعين الأحذب... وهو على سريرته فى خبائه، فقتل عليه، واحتز رأسه من جسده لديه، وقتل جميع من كان معه... ولم ينج من النصارى إلا قليل يقدر ب ٢٠٠ (مائتى) فارس اختفوا فى الشعارى... ولم يكن لهم بعد هذه الهزيمة رأس يخرجون معه، ولا قام لهم أبداً إلى

هذا التاريخ» (١)

(١) ولا بأس ان كان ذلك فى العقد الأخير من القرن السادس الهجرى انظر ص ٤٠-٤١ من دراسة المحقق (عبد الهادى التازى) حيث النص على أن «تبيض الكتاب من قبيل مؤلفه لم يتم إلا بعد سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م، وانه فى سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م تم الجمع النهائى بعد أن تفرغ (ابن صاحب الصلاة) للإمامة والخطبة بالجامع الكبير...» أما عن حرب الأحذب، فانظر المن بالإمامة، ص ٥١٩-٥٢٢- حيث النص على امتلاء أيدى الموحدىن من الدروع والبيض والخيل والبغال والحمير... وجمعت رؤوس النصارى... وميزت وعين رأس الأحذب، وأمر بحمله إلى أشبيلية... حيث ضربت الطبول، واجتمع الناس لتهنئة الخليفة وانتسب هذا الفتح العظيم إلى الشيخ أبى حفص عمر ايتنى، والسيدىن: أبى زكريا وأبى إبراهيم إسماعيل. وكان وصول نبأ هذه المسرة العظمى (إلى أشبيلية) يوم الجمعة ٢١ شعبان/١٧ إبريل ١١٧٣م، على ٣ (ثلاثة) أيام من تاريخ الواقعة». وكان الاحتفال بذلك النصر فى اليوم التالى (السبت ٢٢ شعبان)، حيث «جلس الخليفة وأخوه السيد أبو حفص فى مجلس التهنئة، وقد ترتب الموحدون والأشياخ من طلبة الحضرة والفقهاء والكتّاب والخطباء». هذا كما أذن لمن حضر بالباب من المهنيين بالدخول «على مراتبهم: من: الأدياء والشعراء فأدخلهم الوزير أبو العلوادريس ابن جامع، والفقيه أبو محمد المالقي شيخ الطلبة معه».

هذا، كما خطب الشيخ الزاهد أبو محمد عبد الواحد بن عمر باللسانين: «الغبرى فأعرب فيه للموحدىن فى لسانهم... ثم شرع ذلك باللسان العربى لأهل شأنهم. وبعد خطب الفقيه أبو بكر بن الجدة، والقاضى أبو موسى عيسى بن عمران، والفقيه أبو محمد المالقي، وأنشد الشعراء أشعارهم (التي لم يسجلها ابن صاحب الصلاة)، وهم: أبو الحسن على الأشيرى وغيره من شعراء أهل العدو وأشبيلية، ولما طال الانشاد قام أبو محمد المالقي «فقبض من سائر الشعراء بطائفتهم بما صاغوه، ووضعها بين يدى أمير المؤمنين الذى أمر بتعجيل جوائزهم». فكان للطبقة الأولى: ٥٠ (خمسون) ديناراً، والثانية: ٤٠ (أربعون) ديناراً، والثالثة: ٣٠ (ثلاثون) ديناراً. ثم بويع أمير المؤمنين، وقبل جميع الحاضرين يده المباركة، وقارن ابن عذارى (هوى)، ص ٩٨-٩٩، حيث إنتهى الأمر بحمل رأس الأحذب إلى أشبيلية «فضربت الطبول على ذلك»، مع الإشارة، إلى وصف مقتل الأحذب فى كتب الخليفة إلى أخيه السيد أبى عمران مع الإشارة إلى كونه من «أولاد الخلفاء النجباء الطلبة الأدياء والخطباء والشعراء، والى بعض المخاطبات الشعرية بينه وبين القاضى حجاج بن يوسف، وهى المخاطبات» التى كلف بها جميع أهل العصر، ومنها ما كتبه القاضى يتشوق إليه عندما تغيب ٣ أيام بسبب المرض، ومنه:

بغيب البدر يوماً ثم يبدو وأنت تغيب عن عيني ثلاثاً

وهكذا كانت غزوة وبذة بشيراً بما تلاها من الفتح، إذ سرى خبر الواقعة (وقعة صاحب آبله ومن معه من الإخوان الفرير أو «الأفررين»: الرهبان)، ومقتل الأحذب، مسرى الشمس، وتحدثوا في كنائسهم... بما عاينوه من قبل أحزابهم فخامرهم الروح والجزع... ثم توالى عليهم فى أثر ذلك البعوث فى العساكر. وبذلك كان الموحدون يستطيعون إرسال البعوث بعيداً فى الشمال إلى أنظار طليطلة بعد التخطيط الجيد، والمستفاد من تجربة وبذة.

إمداد بطليوس خطوة أولى للانطلاق إلى أحواز طليطلة:

وهكذا صدرت أوامر الخليفة أبى يعقوب يوسف بحمل الميرة إلى بطليوس لتأمينها. وبناء على ذلك تطلب الأمر حملة من: ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فارس من الموحدين والأجناد الأندلسيين والعرب بقيادة كل من يوسف بن تيجيت وعبد الله بن إسحق بن جامع، وهى تحرّس ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) دابة محملة بالقمح والشعير والدقيق والزيت والملح والآلات والمرافق، وذلك لتأمين الأرزاق لأهلها وقت الضيق، وخاصة أثناء الغزوة المدبر القيام بها فى أقاليم الشمال من أحواز العاصمة القشتالية: طليطلة - بهدف استئصالها، بفضل الله.

وعند الوصول إلى بطليوس دفعت الميرة إلى شيخ بطليوس، القائد: أبى غالب بن الموصلى، على أن يختزنها حسب الأوامر الأميرية الصادرة من أشبيلية.

ومن ثم حولت الحملة العسكرية وجهتها نحو طليطلة، «فأغاروا عليها وعلى بسائطها، فغنموا من سائمة البقر والغنم أكثر من ٣٠.٠٠٠

فجاوبه السيد أبو عمران فى الحين «وما روى ولا بيض قرطاس ولا سوى»:

أنتنسا منكم دررُ فحللت محلاً أوجبت منا انبعثا

هذا مع الإشارة إلى أن السيد أبى الربيع بن أبى عبد الله بن عبد المؤمن كان من الشعراء المجيدين (ص ١٠٠).

(ثلاثين ألفاً)، اجمع ما وجدوه من سبى. والمهم أن الحملة نجحت على المستوى الإقتصادي والعسكري، إذ «امتلات أيدي المسلمين (بالسبى والغنيمة)، وقتلوا من حاربهم، وأسروا من طوعهم».

وأمام هذا النجاح الباهر رأت القيادة العليا في أشبيلية أن تستمر الغارة في وجهتها نحو الشمال لاجتياح «أنظار طليطلة وما يليها». ونجحت الحملة فعلاً في الحصول على الكثير من المغانم، كما نشرت الدمار في المنطقة حتى أرغموا أهلها على طلب السلم والصلح والهدنة^(١).
خضوع صاحبى قشتالة (طليطلة) والبرتغال (قلمرية)؛

وهكذا طالب بالصلح والهدنة صاحب طليطلة الكونت نونيه دى لارا، حليف أذفونش الصغير (السليطين: الشامن) ووصيه، ومن ثم تابعه أذفونش بن الرنك (الريق: Alfensu Enriquez) ملك البرتغال، وذلك في شهر ذى الحجة سنة ٥٦٨هـ/يولييه-أغسطس ١١٧٢م- حيث وصل رسلهم إلى أشبيلية^(٢) حيث عقدت الهدنة والصلح لمدة ٧ (سبع) سنوات. هذا، وينص ابن صاحب الصلاة على أن الموحدين كانوا بدورهم، في حاجة ماسة للصلح، إذ يقول: «فأسعفهم الأمر العزيز في رغباتهم وطلباتهم، لما كان في نفس أمير المؤمنين (يوسف) من إسكان البلاد القفرة في هذه الجزيرة، وما كان من غدر جراند العليج اللعين لها»^(٣).

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٥٢٦.

(٢) ابن خلكان ج ٥ ص ١٣٣، ١٣٥- حيث النقل عن مجموع بخط ابن العمال بن جبريل «أخى العلم المصرى»، ناظر بيت المال بالديار المصرية... وفيه فوائد من أخبار المغاربة وغيرهم.

(٣) المن بالإمامة، ص ٥٢٦، وهـ-٤ حيث الإشارة إلى غدر قائد ابن الرنك بمدينة باجة، ووصوله إلى أشبيلية مستسلماً، وانظر ابن عذارى (الموحدون، ص ٩٤)، والبيدق، ص ٢١٦- حيث النص على جوازه إلى مراکش حيث ظهرت خيانتته وقتله في سنة ٣٦٥هـ ربما (٥٦٥). والمهم هنا أن رواية ابن صاحب الصلاة تنتهى بإقامة الرسل بأشبيلية مدة شهرين تقريباً، حتى كمل السلم... وأعطوا الكفرة صفقة الذل بأيديهم وذلك مع نهاية السفر الثانى من كتاب تاريخ المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، (ص ٥٢٧)، ومن حيث يصبح بيان ابن عذارى المصدر الرئيسى لتاريخ الموحدين، وفي سنة ٥٦٨هـ- وصل الترك من مصر إلى جبل نفوسة، ابن الأثير، ج ١ ص ٣٨٩.

والواضح من نص بيان ابن عذارى أن وصول «العلاج الطاغى جراند» (جيرالدو سيمبافور) الذي غدر مدينة باجه، وغدر الحصون والمدن، وأقفر المعمور والمسكون، وكان قائد ابن الرنك (ملك البرتغال) وصاحب جيوشه»، وكان وصوله إلى أشبيلية في سنة ٥٦٩هـ (١٢ أغسطس ١١٧٣م - أغسطس ١١٧٤م)، ومن الواضح فوق ذلك، أنه كان في نفس الوقت مخالفاً للملك البرتغال (الفونسو هنريكيذ). فهذا ما يفهم من نص البيان الذي يقول: «فوصل مع أصحابه الأذلاء إلى أشبيلية، حضرة الخليفة: سامعاً طائعاً ليكون عبداً خديماً، ولينكى إخوته النصارى، بما يكون تصديقاً له عند الخليفة وتقديماً، بمعنى أنه دخل في خدمة الموحدين الذين سيدفعون له الثمن، كما كانت عادة أمثاله من أهل الحراية، الذين يقدمون خدماتهم لمن يدفع لهم الثمن - حسب مقتضى الحال. فهكذا قبل منه القول، وأنزله (الخليفة) وأمر له بالإحسان والكرامات.»^(١)

وتسترسل الرواية قائلة أن دخول جراند في كنف خليفة الموحدين أساء ابن الرنك ملك البرتغال، «فلم يزل يرسل إليه سرّاً في أن يتحيل الإرتداد والغدر والمكر». وبطبيعة الحال لم يكن ليخفى على حكومة أشبيلية التي وضعته تحت المراقبة حقيقية، حيث ظهرت رده بعد أشهر، وانتهى الأمر بالقبض عليه، ومن ثم تقييده «هو وأصحابه في الحديد»، وإرسال الجميع بعيداً إلى سجلماسة في صحراء درعة حيث كان سجنهم بعيداً عن العمران. ولم يكن مثل هذا المغامر الخطير ليركن إلى الهدوء والسلم، إذ اكتشفت حيلته في محاولة للفرار إلى بعض المراسى المغربية من أجل العودة إلى الأندلس، فكان جزاؤه القتل. وبذلك «انكف عن الإسلام بأسه».^(٢)

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشي)، ص ١٠٣.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوشي)، ص ١٠٣.

الهيمنة الموحدية على الأندلس؛

أشبيلية حاضرة للأمبراطورية الموحدية لمدة ٥ سنوات
(٥٦٦هـ / ١١٧٠م - ١١٧١/١١٧٥م)

لا شك أن إقامة أبي يعقوب يوسف بالأندلس لمدة ٥ (خمس) سنوات متوالية، إعتباراً من ٥٦٦هـ / ١١٧٠م حتى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م، كانت فرصة تحول نوعية بالنسبة للدولة الموحدية، جعلت من يوسف بن عبد المؤمن، وهو المشقف الأندلسي، أعظم ملوك الدولة الموحدية بحق، وذلك على جميع الأصعدة: السياسية والعسكرية والمدنية، وهو الأمر المقبول حقيقة.

فعلى المستوى التاريخي كانت ولاية يوسف سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م تعنى أن الدولة الموحدية قد تجاوزت سن الأربعين، وهو سن الرشد، بمعنى رسوخ قواعدها وثبات أركانها تمهيداً للدخول فى مرحلة النضج والعطاء. ومن العلامات المبشرة فى هذا المقام: بداية استقرار الأمور فى بلاد الأندلس، بفضل السياسة التى اتبعتها حكومة يوسف، والتى رأت أن تركز عملية الإصلاح الموحدية المتطورة فى العناية ببلاد الأندلس، القاعدة الحقيقية لعملية الإحياء المغربية-الاسبانية- بعد توحيد المغربين: المراكشى والأسباني الأندلسي.

«الاسترجاع» الموحدى فى مقابل «الاسترداد» الفرنجى

دفع خطر الاسترداد بعيداً عن الحدود الإسلامية على وادى أنه : من المتعارف عليه فى السياسة العسكرية والحرب، أن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم. ومع بساطة هذه النظرية وجاذبيتها، فإن للهجوم متطلباته، كما هو متعارف عليه، وأهمها توافر المال، بمعنى الاستقرار الإقتصادى، عصب الحرب وضمان استمرارها. ولما كانت منطقتا قرطبة وأشبيلية وتوابعها (من النواحي والأحواز والأنظار)، كما هو الحال أيضاً بالنسبة لبطليوس التى كانت مهددة بالسقوط لموقعها الإستراتيجى الحرج

فيما بين الثغور والتحصينات القشتالية واليونية والبرتغالية التي كانت تحصد أسباب ميرتها من الطعام، مما سبقت الإشارة إليه. ومثل هذا الأمر هو الذي دعا أبا يعقوب يوسف إلى الانتقال إلى أشبيلية والإقامة فيها حوالي ٥ (خمس) سنوات (٥٦٦-٥٧١هـ / ١١٧٠-١١٧٥م)، الأمر الذي كان يعنى اتخاذ حاضرة الأندلس: أشبيلية للأمبراطورية (الموحدية)، وبالتالي تصبح قرطبة فى مواجهة خط الدفاع الأول أمام أشبيلية التى احتلت مركز الحاضرة، وبطبيعة الحال كان ينبغى تأمين عاصمتى الوادى الكبير، فتكونا ممتنعتين على الأعداء، خارجتين عن حدود الأرض الحرام (no man's land) - الأمر الذى سمح بالجولة العسكرية فى أحواز كل من وبذة وقونكة، فى جيش مشترك: مغربى - أندلسى وأفريقى - عربى فى نفس الوقت - الأمر الذى يعنى إمداد قوات «الاسترجاع» الموحدية المغربية بدماء شرقية عربية، وهو ما يعنى أيضاً تحوُّلاً نوعياً فى تصنيف القوات الموحدية على عهد يوسف. وهذا ما يشير إليه ابن الأثير والنويرى، قائلين: وأقام بها (الأندلس، أبو يعقوب إلى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م) وهو يجهز العساكر فى كل وقت، ويرسلها إلى بلاد الأفرنج. وكان فى تلك المدة عدة وقائع وغزوات، ظهر فيها من شجاعة العرب ما لا يوصف، حتى كان الفارس من العرب يبرز بين الصفين، ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج، فلا يبرز إليه أحد.^(١)

والمهم أن أسوأ الجبهات الحربية مع العدو كانت جبهة الثغر الأدنى فى الغرب الأندلسى، والتى كادت تغلب على الساحل الأطلنطى الجنوبى بأسره فى أقصى الغرب، فكأنها كانت تهدد عبدة المجاز فى طريفة، كما كانت تتمدد شمالاً بشرق إلى بطليوس، وموضع الزلاقة: الأمر الذى كان (١) (ابن الأثير، ج ١١ (سنة ٥٦٨هـ)، ص ٣٩٠، وقسارن النويرى، نهاية الأرب (أبو ضيف)، ص ٤٣٢، وانظر عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص ٥١، حيث الإقامة فى الأندلس من ٣ سنين (إعتباراً من سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م إلى آخر سنة ٥٦٩هـ / يولييه ١١٧٤م)، وقد ملك الجزيرة بأسرها.

يشير اهتمام أبي يعقوب يوسف، فيتخذ الإجراءات المناسبة، لمواجهة تلك المخاطر، كما حدث في سنة ٥٦٥هـ / ١١٧١م بالنسبة لرئدة والجزيرة الخضراء، وسنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م بالنسبة لبطليوس، مما سبقت الإشارة إليه. وهذا ما يعنى أن السبب الرئيسى لقيام الخليفة يوسف بحملته الكبرى إلى الأندلس فى تلك السنة، والتي استقر فيها بأشبيلية لمدة خمس سنوات قادمة، حيث «شرع فى استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الفرنج»، فكان حرب الموحدين فى الأندلس كانت حركة «استرجاع» فى مقابل حركة «الاسترداد»^(١).

والمهم أنه بعد جولة وبذة وقونكة كان خروج أبي يعقوب يوسف من أشبيلية فى أول صفر ٥٦٩هـ / ١١ سبتمبر ١١٧٣م، بجيشه الكبير ليهدن منطقة الحاضرة الأندلسية وعاصمة الأمبراطورية وقتئذ، ومركزها الذى تدور عليه دائرتها- وليمنعها من أى خطر يهددها. ووقع اختياره على نظر حصن القلعة: قلعة جواد يارا (Guadiara).

والظاهر أن الحصن المهدم من قديم الزمان، منذ أيام إمارة قرطبة، على عهد عبد الله بن محمد الأموى، والذي كان قد هدمه بسبب ثورة ابن حجاج فيه عليه، وملك منه أشبيلية وقرمونة، كما تقول الرواية، ربما كان موضعاً لأهل الحرابة (المفسدين) من النصارى أو من المسلمين، رغم أن الرواية تكتفى بالقول: «فأمر الخليفة أبو يعقوب ببنائه، وعمارته نظراً وصلاًحاً لفحص أشبيلية»^(٢) بمعنى أنه أصبح محرساً يؤمن المنطقة، بل (١) ابن خلكان، ج ٧- ١٣١- حيث النص على دخول يوسف الأندلس بجيش ضخم مكون من ١٠٠.٠٠٠ (مائة ألف)، وان حركة الإسترجاع الموحدية أدت إلى أن «إتسعت مملكة الأندلس»، حيث كانت «سراياه تصل إلى باب طليطلة: كرسى بلادهم»، بل وإنه «حاصر طليطلة، فاجتمع كافة الإفرنج عليه... فرجع عنها. هذا ولأنس إن كان إتساع «مملكة الأندلس» الموحدية يرجع أصلاً إلى ضم أراضى الشرق التى كانت تابعة لبنى مردنيش، والتى أدت إلى حملة كبرى، وهى حملة وبذة قونكة- بصرف النظر عن نهايتها المزعجة.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوثى)، ص ١٠٣.

ويعيد إليها الحياة، فلا تصبح أرضاً حراماً.

هذا، ولما كانت تلك الرواية الأندلسية تردف ذلك بواقعة وصول «إبن مثنى مشرف تونس والقيروان، بأموال خراجهما»، فإن ذلك يعنى ما يؤكد فكرة أن أشبيلية كانت- فى تلك الأوقات- حاضرة الأمبراطورية الموحدية، حقيقة لا مجازاً- الأمر الذى يضى على حكومة أبى يعقوب يوسف، إسم الدولة الأندلسية- المغربية، حقيقة أيضاً لا مجازاً.

وهكذا، كانت صبغة الدولة الموحدية الأندلسية تزداد شفافية مع أعمال يوسف الجهادية عن طريق «الإسترجاع»، كما كانت تزداد بريقاً بأعماله الحضارية، وخاصة فى أشبيلية. فبفضل تحضير أشبيلية، وتدينها بالمسجد الجامع. وبالأسوار والأبراج، والتي ستكتمل سنة ٥٨٠هـ / ١١٩٥م بالصومعة العظمى المعروفة حالياً بالجيرالدا (الدوارة)، والتي تتجمل بالمزاغل الحربية المخصصة لإطلاق السهام والنبال، لتضفى على المدينة والجامع هبة حربية فوق هيبته المدنية، وخاصة بعد بناء القسبة، التي اعتبرت من رمز الدولة الموحدية، من حيث كونها معسكراً للحامية، ومركزاً للحكومة- خلافة كانت أم محلية.

خضوع ليون :

وهكذا كان أبو يعقوب يوسف، وهو مستقر فى محله بأشبيلية، يصدر الأوامر سنة ٥٧٠هـ (٢ أغسطس ١١٧٤ - ٢١ يوليئ ١١٧٥م) بغزو البيبوج (El-Baboso): إبن الفونسو الـ (٧) ملك ليون، الذى بادر بالصلح، بل وطلب الاستعانة بعسكر موحدى على القمط نونه (دى لارا El-conde Nuño de lara) صاحب طليطة والمستبد بها. وفعلاً قدم الموحدون المعونة العسكرية للبيبوج الذى حافظ على العهد، الأمر الذى ظهر فى حمايته لمدينة بطليوس، وإنقاذها من براثن ملك البرتغال: ابن الرنك الغادر لها (كما سبق).

ولما كان قد أنفق فى حماية بطليوس هذه مالا كثيراً، فإن الخليفة أبا



خريطة رقم ٢-
خريطة ليون

يعقوب يوسف وجه إليه «هدية فيها منت منظوم بالجواهر، وحملها له أبو محمد بن جامع (الوزير): وابن عزون (القاضي) وأبو زكريا الكومي، فقبل الهدية بأوفى السرور». ورد ملك البرتغال الهدية بمثلها، كما أرسل بصحبته «شهوداً عليه باستمرار الصلح. وتقادى على ذلك حاله إلى آخر سنة ٥٦٩هـ/٣ يوليئه ١١٧٤م»^(١).

ولم يتردد الخليفة يوسف في إتخاذ الإجراءات اللازمة لمعاقبة البيبوج الناكث بالعهد، فقد اتخذ في التو واللحظة الإجراءات اللازمة لعقابه، من: الكتابة إلى العرب المجاهدين بالأندلس والأجناد يطلب منهم الوصول إلى أشبيلية لعقابه، متأهين للغزو، «فوصلوا بجمعهم». ولما كانت الحملة عملية تأديبية عابرة، فقد قام السيد أبو حفص بقيادتها نيابة عن أخيه الخليفة.

وهكذا خرج السيد أبو حفص من أشبيلية في يوم ٣ من صفر سنة ٥٧٠هـ/٣ سبتمبر ١١٧٤م، متوجهاً إلى الغادر البيبوج بمدينة السبطاط قاعدته- بينما كان الكونت نونيه دي لارا غالباً على طليطلة. ودخلت الحملة الموحدية إلى بلاد الغادر، وافتتحت موضعى: قنطرة وناضوحى (غير المعروف). وإذا كانت الرواية تقول إن ذلك حدث «فى خبر طويل»، فالظاهر أن ما دعا إلى ذلك هو اهتمام الشعراء بالإشادة بالحملة، وإطناهم فى الإشادة بالخليفة يوسف الذى يوصف بأنه «خليفة الله». وهذا ما يظهر فى شعر أبى العباس الجراوى، حيث يقول فى قصيدة أولها:

عن أمركم يتصرف الشقلان وينصركم يتعاقب الملوان
وبما يسوء عدوكم ويسركم تتحرك الأفلاك فى الدوران
من يعرف الرحمن حقاً يعترف بحقوقه لخليفة الرحمن^(٢)

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٠٣-١٠٤.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٠٤.

إحياء مدينة باجة :

وكانت من نتائج هذه الحملة أن ارتدع ملك البرتغال عن معاداة دولة أبى يعقوب يوسف، فطلب الصلح الذى يفهم من سكوت النص عن حقيقته، إن الخليفة يوسف عندما قبل بتجديده مع البرتغال، كان يتخذ الإجراءات المناسبة لحماية إقليم الغرب من غدر جديد يقوم به ابن الرنك (الفونسو هنريكيز). وكان هدفه من ذلك هو إحياء مدينة باجة «قاعدة الغرب».

وهكذا صدرت الكتب الرسمية الى جميع البلاد فى استدعاء أهل باجة إلى الحضرة العلية بأشبيلية. وعندما تم وصولهم إلى الحضرة الأندلسية، أدخلوا إلى المجلس الأميرى فى يوم السبت ٧ من ربيع الثانى سنة ٥٧٠هـ/٦ نوفمبر ١١٧٤م. وكان احتفالاً كبيراً حضره الإخوة السادات، وأشياخ الموحدين، وملوك الأندلس، من: بنى عزون، وبنى مردنيش، وبنى همشك، ووجوه طلبة الحضرة (من رجال الحاشية)، ومنهم: أبو محمد المالقى، وأبو بكر بن الجد، وأبو موسى عمران.

ودخل وجوه أهل باجة على الأمير يوسف، والوزير أبى العلاء إدريس بن جامع يعرف بهم واحداً بعد الآخر. وبعد تشریفهم باللقاء والسلام أمرهم بالمشى إلى بلدهم باجة وسكنهاها: «بعد ونظرنا لكم فى زوال روعكم والتثام صدعكم». وكان من أوامر الأمير يوسف فى هذا الشأن: رجوع جند أهل البلد ورعيتهما، وإعمار الحصون المجاورة لباجة والاستيطان بها. هذا، وكما كانت سياسة الإعمار الموحدية فى الأندلس، صدرت الأوامر بسكنى إحدى القبائل الموحدية فى مدينة باجة، حتى يكتمل التضامن بين المجاهدين من الأندلسيين والموحدين المغاربة، فيشد كل منهما أزر الآخر، دون انتظار وفود المجاهدين الموحدين من المغرب، والذى يمكن استحضارهم حسبما تقضى الضرورة.

وعهد بولاية باجة الجديدة إلى واحد من أسرها العريقة، وهو الحافظ:

أبو بكر بن وزير.^(١)

العودة إلى باجة:

يفهم من نص ابن عذارى أن أول الداخلين إلى باجة كانت الحامية المخصصة للدفاع عن المدينة، وهو الأمر المنطقي. وهكذا سار الحافظ (المشرف) أبو على ابن تيمـصـليت، في ٥ ربيع الثانى سنة ٥٧٠هـ/٤ نوفمبر ١١٧٤م، على رأس قوة عسكرية من أشبيلية إلى شلب. ومن ثم سار فى جولة تفتيشية على جميع بلاد الغرب: الهدف منها التحضير لما يلزم من أجل إعمار باجة. وخرج إثره فى اليوم التالى (٦ ربيع الثانى/ ٤ نوفمبر ١١٧٤م) وإلى باجة المعين، وهو: أبو بكر بن وزير، على رأس الحامية المخصصة لضبط باجة، من: الجند والفرسان.

أما عن أهل باجة فكان خروجهم من أشبيلية بعد أسبوعين، وذلك فى يوم ٢١ من ربيع الثانى، وكان وصولهم إلى باجة فى يوم الخميس ١ جمادى الأولى/ ٢٨ نوفمبر ١١٧٤م، حيث عاينوا ما كانت عليه، ومن الدمار وأنكروا الأوطان». وعندما «مشى كل واحد منهم إلى داره، وموضع قراره، فأبصروا ما يشيب له الوليد، من: حرق وتمزيق».^(٢)

وهكذا لم يكن أمام الباقين من أهل باجة، والذين يقدر عددهم بنحو ٢٠٠ (مائتى) رجل «من شيوخ وشبان ورجال وفرسان»، سوى النزول فى القصبة (حصن المدينة): «على ما كانت عليه من هدم سورها وخرابها». ورغم كثرة ما ألم بهم من الروع، فإنهم بدأوا إعداد القلعة الخربة لسكناهم، إنتظاراً لما كانت تعدّه الدولة لهم فى مدينتهم «الشهيدة».

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٠٦، حيث الإشارة إلى بيتى الشاعر العربى

القديم لبید:

ذهبت عامر فلم يبق منها
برباض الحبرير إلا الديار
وكذلك الزمان يذهب بالناس
وتبـسقى الطول والآثار

وبدأوا فعلاً فى التسو واللحظة ببناء بابين للقصبة، أحدهما من جهة المدينة، والآخر من جهة الفحص أى الضاحية. وهكذا بدأوا السكنى فى القصبة، مع حرص كل واحد منهم على نقل خشب داره وجعله معه بالقصبة، لعله ينفعه فيما بعد. وعندما «خاطبوا الخليفة بدخولهم (البلد) جاوبهم بما أرضاهم»^(١).

وفى يوم الأربعاء ٧ جمادى الأولى من ٥٧٠هـ/ ٥ ديسمبر ١١٧٤م، وصل عمر بن تيمصليت من جولته فى شلب وغيسرها من البلدان، وبصحبته ٥٠٠ (خمسمائة) رجل من الحشد (العسكرى) والبنائين الذين جلبوا معهم ما يكفى من القوت لمدة شهر كامل، إلى جانب ما يحتاج إليه من آلة البناء.

وهكذا اتصل العمل والإجتهاد فى بناء السور إلى آخر الشهر (جمادى الأولى)، لكى يعود الحافظ ابن تيمصليت من جديد إلى شلب وبلاد العرب «برسم حشد (فريق) آخر للبناء. وقمادى العمل فى البناء المذكور إلى شهر رمضان المعظم (مارس- إبريل)، وقد كمل سور القصبة، وشرع فى بناء سور المدينة على كبره وخرابه». وهنا كان على الحافظ ابن تيمصليت أن يذهب إلى الحضرة العلية بأشبيلية ليقدم تقريره عما أنجز من العمل. وكان وصوله إلى أشبيلية فى أول ليلة من شوال/ ٢٥ أبريل ١١٧٥م، فكان دخوله إلى الخليفة وإعلامه بما صنع، وهو ما شكره له.

وأنه لم تمض فترة من الوقت إلا وقد قام الخلاف بين أهل باجة وبين عاملهم أبى بكر ابن وزير، الأمر الذى حدثت فيه المطالبات والشهوات، وانغمس فيه أعيانها بشهادة أهل الزور، الأمر الذى أنكره القاضى عليهم. وأمام شكايات أعيان باجة من ابن وزير وسوء سياسته، أمر الخليفة «بعزله عنهم، وولى بدلاً منه أباً على عمر بن تيمصليت». وبذلك اتصلت الغبطة بباجة، وتمكن الناس بقصبتها، وفى ديارهم الحديثة البنيان، وتبايع

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوى) ص ١٠٦.

الناس أرضها بينهم فى خارجها وداخلها، وحرثوا الأرض، وعمروها، وبنوا الحوانيت والرباع»^(١).

هذا، ورفعت إلى دار الإشراف (الجباية) بأشبيلية ما هو مفروض عليها من الضرائب العشرية، وكراء الرباع (الوكالات التجارية)، الأمر الذى سرّبه أمير المؤمنين يوسف.

وهكذا عادت الحياة إلى باجة التى ظلت عامرة بأهلها طالما بقى أبو يعقوب يوسف فى أشبيلية. ولكنه ما إن رحل عن الأندلس، وجعل أخاه أبا على الحسن والياً على أشبيلية حتى تعثرت الأحوال. فمن الواضح أنه طالما بقى أبو يعقوب يوسف فى أشبيلية الحاضرة، كان ملك البرتغال ابن الرنك (هنريكز) ملتزماً بالطاعة والأدب.

الغدر من جديد بباجة :

وهكذا لم يمض على خروج يوسف من أشبيلية إلى مراكش سنة وبعض سنة، حتى عاد ابن الرنك إلى الغدر بباجة. فقد خرج بجمعه فى أواخر سنة ٥٧٣هـ/ربيع سنة ١١٧٨م، ونزل على باجة، وبقي عليها أياماً وهو يفسد زروعها حتى كاد يتغلب عليها. «ثم إنه أقلع عنها ووصل إلى أشبيلية، ونجح فى الدخول إلى قرية طريانه (Triana)، حيث مرسى الأسطول، بل ونجح فى التغلب على بعض قطع الأسطول البحرية فى الوادى الكبير، ثم انصرف فوجد باجة البائسة قد أقفرها أهلها، وخرجوا منها بأولادهم وعيالهم، وتفرقت جميع أموالهم، وفروا إلى ميرتلة (Mértola) وذلك فى المحرم من سنة ٥٧٤هـ/يونيه-يولييه ١١٧٨م.

أما كيف حدث ذلك، فكان يوم نحس أو سوء بخت بالنسبة لأهل باجة. فالمدينة البائسة لم تكن لتسحى من أجل الدفاع فقط، بل كانت قاعدة للهجوم أيضاً- حسب تكتيك حرب الحصون فى تلك الأراضى التى كانت متنازعة بين الطرفين المتحاربين، والتى لم يكن الموحدون قد حسمو

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٠٧.

مواقعها لصالحهم بعد.

والحقيقة أن الحافظ (المحافظ) عمر بن تيمصليت والى باجة كان قد خرج منها بجندھا وفرسانھا، وفي صحبته حامية حصن شقرة (Serpa) تحت قيادة على بن وزير، وذلك للإغارة على فحوص قصر أبي دانس القريب. والمهم أنه خرج إليهم جمع عسكر أبي دانس، فتقاتلوا معهم، وأثناء القتال، خرج عليهم جملة من نصارى أهل شنترين فى فحوص القصر على غير ميعاد، الأمر الذى جعل كلا من ابن تيمصليت وابن وزير وجماعتهم من حامية باجة ينهزمون هزيمة شنعاء، إنتهت بأسر كل من: ابن تيمصليت، وابن وزير، وبعض من كان معهما من الرجال والفرسان، بل وقتل الباقين. وكان من الطبيعى عندما وصل الخبر إلى باجة أن يفرّ العزل من أهل باجة أجمعين.^(١)

نهاية سعيدة لإقامة يوسف الطويلة فى أشبيلية :

التحالف العائلى بين بنى مردنيش وبنى عبد المؤمن يؤكد الوحدة بين المغرب والأندلس،

وفى السنة قبل الأخيرة لإقامة الخليفة يوسف الطويلة فى أشبيلية، وهى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤-١١٧٥م تمّ التحالف العائلى الكبير بين أسرتى بنى مردنيش وأسرة بنى عبد المؤمن الخلافية، حيث «تعرّس أمير المؤمنين (يوسف) بـ»صفية« ابنة ابن مردنيش (محمد بن سعد)، وكان ابتناؤه بها ليلة السبت ٥ ربيع الأول/٤ من نوفمبر ١١٧٤م. فكان فرح وحدة التكامل

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٠٧-١٠٨- حيث يختم ابن صاحب الصلاة، مصدر ابن عذارى الرئيسى، ناسباً القول إلى الحسن بن وزير، الذى يقول: إنه بعد أسره ومعه ابن تيمصليت حملهما ابن الرنك إلى عاصمته قلمرية (Coimbra)، فعمل لهما عرض تشهير (وتجريس) عظيم؛ سار فيه القائدان الموحدان وهما مكبلان بالحديد. وهكذا انتهى الأمر بأن توفى ابن تيمصليت نتيجة لثقل السلسلة الحديدية فى عنقه، وقسوة التعذيب. أما ابن وزير ففداه أمير المؤمنين يوسف بـ ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) دينار حشمية (مرابطية).

بين المغرب والأندلس، بقيام دولة التوحيد الأسبانية المورسكية (المغربية). وفي ذلك العرس الكبير تقول رواية ابن صاحب الصلاة أصلاً، ان الخليفة أبا يعقوب يوسف، وجه إلى العروس المردنيشية الزرقاء العينين، والذهبية الشعر، ١٠٠٠ (ألف) دينار عينا، وهو يقول: «إنما وجهت بهذا العدد تأنيساً، وإنما الصداق الذي أمرنا به ٥٠ (خمسون) ديناراً»^(١). فكأنما الموحدى العابد يوائم ما بين الترف الأندلسى والتعشف المغربى. وهذا لم يمنع أبا يعقوب يوسف من أن يهب لعروسه المردنيشية جميع ما أهدى إليه إختوتها عند فتحه لمرسية، من: الكسى والحلى والخدم، وزادها من عنده ما بهتها. وهنا تقول الرواية إنه عندما «هم من وصل معها من النساء بالدخول معها، قال الخليفة: تدخل المباركة منفردة، فدخلت، وقبلت يده، فدعا لها بخير وجامعها». والظاهر أن ذلك يعنى أن أمير المؤمنين الموحدى المتبتل لم يقبل وساطة الماشطات فى تقديم عروسه إليه بالطريقة المتعارف عليها، والتي تعنى إثبات العذرية بشكل علنى وبمعرفة المحيطات بها، وسط ضجيج آلات اللهو والموسيقى، كما كان متعارفاً عليه قديماً، وهو الأمر الذى ربما كان مستمراً حديثاً من تقاليد الزفاف فى نواحيينا المصرية. وربما يكون مثل هذا ما يفهمه مثلى، من مقولة الزوج الخلاقى الموحدى- رجل الدين والفلسفة- لصوبحبات عروسه المردنيشية: «تدخل (ومنها الدخلة كما نرى) المباركة منفردة»^(٢).

والمهم فى نهاية الأمر (أو العُرس) أنه: «اتفق لبنى مردنيش أسعد ما اتفق لأحد من ثوار الأندلس، فإنهم أخرجوا ما كان بين أيديهم ثم صاروا حماء (حماية) لأمير المؤمنين، وهذا غريب وشئ عجيب»^(٣).

(١) ابن عذارى، ص ١٠٨، وقارن ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٢١٢- حيث النص على إسم صاحبه.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١٠٨.

(٣) نفس المصدر.

ومن المهم أيضاً في رواية ابن عذارى أن سنة ٥٧١هـ/٧٥-١١٧٦م ،
وهي آخر سنوات الإقامة الخمسة للأمير يوسف بن عبد المؤمن في أشبيلية،
انها تنتهي على عكس عُرُس سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، يحدث مأساوى
يتمثل في نكبة مشرف (جاي) أشبيلية محمد بن عيسى. ففي شهر
جمادى الثاني (١٧ ديسمبر ١١٧٥م-١٤ يناير ١١٨٦م) خضعت حسابات
ابن عيسى (التي كانت موضع شك) للتدقيق، «وتولى تشييف حاله وماله
للمخزن (للحكومة أو بيت المال) رجل الدولة المعروف يلول بن جلداسن،
واستصفى ماله بأنواع العذاب حتى الموت»^(١).

والمهم في قصة استصفاء مال مشرف أشبيلية في نهاية إقامة الأمير
يوسف أنها تظهر وجهاً آخر لشخصية يوسف، وهو التدقيق في مراقبة
شئون الحكم والإدارة، وعدم التساهل في الشؤون العامة، وخاصة ما يتعلق
منها بالملل: عصب الحرب ونظام الملك، تماماً كما هو العدل- وهي الصفة
التي ورثها من غير شك من والده الكبير: عبد المؤمن، وهي الصفة التي
جعلت منه عظيم بنى عبد المؤمن، مما سبقت الإشارة إليه.

إضطراب الغز المصريين في طرابلس :

وهنا لبأس من الإشارة إلى ما وقع في طرابلس (الغرب) سنة
٥٦٨هـ/١١٧٢م وصول جماعة من الغز المصريين إلى طرابلس، حيث
بدأوا أعمالاً عسكرية وشغب ستكون تمهيداً لما يصيب بلاد إفريقية من
إضطرابات خطيرة كان لها أثرها في عدم استقرار المنطقة على عهد يعقوب
المنصور بن يوسف.

(١) ابن عذارى (هويثي)، ص ١٠٨- حيث تكملة النص: «حتى ضرب نفسه بسكين كان
في يده فلم يمت من ذلك، ثم عذب وضرب حتى مات، فلف في حصيرة وربط في
وسطه بحبل ورمى به في وادي أشبيلية، وقذفه الوادي بعد أيام في باب أشبيلية،
فأصبح عبرة... نعوذ بالله.

العودة من أشبيلية إلى مراكش

كشف حساب السنوات الخمس من الكسب والخسارة في العدوتين

لاشك أن استقرار الحكومة الموحدة المركزية لمدة ٥ (خمس) سنوات مستتالية في بلاد الأندلس (٥٦٦-٥٧١ هـ/ ١١٧١-١١٧٦ م) كانت له مبرراته السياسية والأمنية بالنسبة لكل من العدوتين، مما يتعلق بعملية الإنقاذ الموحدة في الأندلس، والتي بدأها المرابطون من قبل، ومن الواضح أن عملية الإنقاذ المرابطية كانت عسكرية بحتة إذا ما قورنت بعملية الإنقاذ الموحدة التي كان لها مساران متوازيان في مجالات الحرب والسياسة من ناحية، وفي مجالات الإنشاء والإعمار في المناطق التي كان قد أصابها الخراب نتيجة للصراع الطويل بين «حرب الاسترداد المسيحية»، «وحرب الاسترجاع الإسلامية»، والتي كانت ميادينها قد أصبحت مناطق محرمة ليس لها صاحب، والتي صارت مجالات للنزعات العسكرية التخريبية من جانب كل من الطرفين المتصارعين، وذلك في تلك الحرب الدائمة، والتي بدأت من مطلع القرن الثاني الهجري/ ٨م، في شكل حرب عربية إسبانية يمكن توصيفها بالمسيحية الإسلامية، فكانها بعض حلقات الحروب الصليبية، كما يقال.

والمهم أن تلك الحرب تحولت إلى صراع شبه أهلي في فترة ملوك الطوائف، ليس في الجانب الإسلامي فقط، بل وفي الجانب الإسباني المسيحي أيضاً، حيث ظهور العديد من الدويلات المسيحية إلى جانب قشتالة واشتوريش وليون، مثل: نافارا وأراجون وكونتية برشلونة، ومن ثم البرتغال، وهي الدويلات التي كانت تتحالف فيسما بينها وبين ملوك الطوائف الأندلسيين، والتي كان يتحالف بعضها مع المسلمين ضد البعض في عصرنا الموحدي هذا، كما حدث مع قشتالة وليون، بل ومع البرتغال- حسب مقتضى الحال.

هكذا، كانت أحوال الحدود المسيحية الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية

مستقرة ما بين وادي تاجه في الجانب المسيحي شمالاً، ونهر وادي أنه (جواديانا) جنوباً بشكل عام، فكان مناطق ما بين النهرين (تاجه وأنه) قد صارت أرضاً حراماً. هذا مع الأخذ في الحسبان أن انحراف جواديانا يساراً نحو مصبه في الساحل الأندلسي الجنوبي جعل منطقة الغرب الجنوبية وكأنها منفصلة عن كتلة الأندلس الأسبانية، الأمر الذي سمح بتوغل دولة البرتغال الناشئة جنوباً بغرب، على حساب الأراضي الإسلامية، الأمر الذي كان يبشر بضياح «الغرب» (Algarve) تماماً مع انحسار الحدود الإسلامية نحو غرناطة والجنوب الشرقي لشبه الجزيرة الإيبيرية- رغم جهود المريدين قبل تمدد الموحدين إلى الأندلس.

وهكذا، فبفضل مواصلة يوسف أعمال والده عبد المؤمن، من اتخاذ مواطني قدم لتأمين النزول إلى الأندلس في الرباط المعروف بجبل الفتح (جبل طارق)، وقع على عاتق يوسف تأمين منطقة العاصمة الأندلسية أشبيلية بإعمار ما كان قد تهدم من حصون منطقتها، وفتح ما كان يهددها من حصون الأعداء، كما أكد ذلك العديد من الفارات البعيدة حتى طليبة وطليلة، بعد وبذة وقونقة وبذلك يكون قد أمن أرضها بعد أن كانت لا صاحب لها (no man's land). أما ما ترتب على الإقامة شبه الدائمة في أشبيلية، فكان من الطبيعي أن يترتب عليه بعض السلبات التي تدخل فيما كان يهدد بعض مواطني المغرب مثل مجئ الترك إلى طرابلس سنة ٥٦٨هـ/٣-١١٧٢م، أو اضطراب صنهاجة في المغرب، مما تأتي الإشارة إليه.



الطريق إلى مراكش :

كان تحرك الخليفة يوسف من أشبيلية صوب العدو في يوم الخميس (وهو من أيام السعد الإسلامية، كما نرى) الموافق ١٤ شعبان من سنة ٥٧١هـ/ ٢٨ من مارس سنة ١١٧٦م، في قلب الربيع: موسم الخير وعيد الطبيعة.^(١)

والذي يلتفت النظر هنا، هو أنه على غير المعتاد عند الموحدين من الإحتفال بالمناسبة العامة التي كان يخرج فيها الخليفة باصطفاف العساكر على أنواعهم، من: فرسان: رجالة، والسير على ضرب الطبول، ورفع الرايات والعلامات، كان خروج الخليفة يوسف من أشبيلية، هذه المرة في السرّ دون العلانية. فقد «دخل في غراب (من قطع الأسطول السريعة) في الوادي، من مرسى طليطة (Tejada) ولم يسلم عليه أحد من أشياخ أشبيلية، ولا رأوه لاستعجاله»^(٢) - دون تفسير سبب تلك العجلة. والمهم أن مقتضيات تلك العجلة أملت ترك الطريق المعتاد لعبور المجاز من طريقه إلى قصر المجاز (قصر مصمودة)، واتخاذ طريق طنجة الموازي لساحل الأطلنطي (بدلاً من طريق سلا- مكناس- فاس). ويمكن تفسير ذلك بإقبال طلائع فصل الصيف وتحسن الأحوال الجوية المواتية.

وهكذا، خرج جميع الموحدين من أتباعه إلى طنجة بعيالهم وأبنائهم،

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشي) ص ١٠٩ - حيث الإشارة أولاً إلى شهر رمضان ثم من بعد إلى إحتمال أن يكون في شعبان، وهو ما أخذنا به ليتفق مع موعد الوصول إلى مراكش في رمضان، هذا ما يأخذ به ابن أبي زرع في قرطاسه، ص ٢١١ - حيث بعد بناء جامع أشبيلية قد تم قبل قفوله إلى مراكش في شعبان سنة ٥٧١هـ/ فبراير- مارس ١١٧٥م، وقارن هوشي، الموحدون، ج ١ ص ٢٧٤.

(٢) ابن عذارى (هوشي) ص ١٠٩.

وكذلك الحلفاء من الأمراء الأندلسيين، من بنى مردنيش وبنى همشك، إلى جانب رجال الدولة من العمال والكتاب، ومن في معيبتهم. وانتظر أبو يعقوب في طنجة وصول الرجال حتى استوفوا عليه، ومن ثم مواصلة الطريق إلى مراكش، حيث كان دخولها في ١٥ رمضان (٥٧١هـ) / ٢٩ مارس ١١٧١م، فكان الرحلة استغرقت شهراً بأكمله - ربما بسبب الاحتياطات الأمنية التي كانت سبباً في استعجال الخليفة في الخروج من أشبيلية. (١)

والمهم أن أبا يعقوب واجه بعد وصوله بحوالى شهر ونصف أى فى أول ذى القعدة (٥٧١هـ) / ١٢ مايه ١١٧٦م نزول الوباء والطاعون معه فى الحاضرة مراكش، بشكل لم تعرفه المدينة من قبل - كما حدث على سبيل المثال قبل سفره إلى مراكش سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠-١١٧١م، والذي عانى منه يوسف كثيراً مما سبقت الإشارة إليه. وذلك بسبب استسراء المرض الذي كان يحصد فى اليوم الواحد الـ ٢٠٠ (مئتين) شخص وأكثر. هذا، وكان للعائلة المالكة نصيبها الكبير من الخسائر فى «الأشراف السادات»، حيث مات من أبناء عبد المؤمن، إخوة الخليفة، كل من: السيد أبو عمران، وإخوته السادة: أبو سعيد (عثمان)، وأبو عبد الله (محمد) ثم أبو زكريا (يحيى) صاحب بجاية. أما عن ضحايا أشياخ الموحدين فى الوباء، فيذكر منهم: أبو سعيد بن الحسن. وأما عن الشيخ أبى حفص بن يحيى الهنتاتى فمات بعد خروجه من قرطبة فى الطريق إلى الحضرة مراكش، وكان دفنه برباط الفتح من سلا. ومن المهم أيضاً أن إجراءات الحجر الصحى التى كانت تقضى بعدم الدخول إلى المدينة الموبوءة أو الخروج منها، فرضت على العاصمة مراكش - بعد أن تبين أن «كل من خرج منها، فاراً بنفسه مرض فى الطريق». (٢)

(١) ابن عذارى (هوشى)، ص ١٠٩.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٠٩ - حيث النص على أن الناس كانوا لا يستطيعون حمل موتاهم إلى الجامع للصلاة عليهم، فأمر الخليفة بالصلاة عليهم فى سائر المساجد.

وأخطر من كل ذلك أن المرض أصاب الخليفة نفسه- فكانت المرة الثانية التى يضربه فيها المرض- وما زاد الطين بلة أن أخاه أبا حفص (الوزير الخطير، والحاجب المشرف على شئون القصر) مرض هو الآخر، وكان مرضهما «طويلاً حتى كاد أن يذهب بهما»- ثم إستقلا بعد ذلك. هذا، ولقد أصاب المرض أيضاً كل العاملين فى القصور الأميرية ودور العائلة حتى كان يموت فى دورهم كل يوم الـ ٣٠ (الثلاثون) شخصاً. ودام ذلك الطاعون الخطير بقية سنة ٥٧١هـ (٦- ١١٧٥م).^(١)

غزو صنهاجة القبلة: سنة ٥٧٢هـ (٧٦- ١١٧٧م)؛

ومع إقبال سنة ٥٧٢هـ/ ٧٦- ١١٧٧م، وارتفاع الوباء والطاعون كان مسير الخليفة يوسف- الذى كان قد خرج لتوه من مرحلة النقاهة، كما نرى- على رأس حملة عسكرية لغزو قبائل صنهاجة القبلة (أى صنهاجة الصحراء- خلفاء المرابطين الأول). الأمر الذى يعنى أن استقرار الحكومة المركزية الموحدية فى حاضرة الأندلس أشبيلية، إذا كان مفيداً بالنسبة لثبات أقدام أهل العدو الأندلسية، فإنه كان عكس ذلك خطيراً بالنسبة للعدو المغربية، ليس فى المشرق الإفريقى حيث كانت العناصر التركية الغزية قد بدأت تتسرب خلف قبائل العرب الهلالية، بل وبالتعاون مع عرب طرابلس منهم، فكان الخطر لم يكن يهدد الولايات الشرقية للأمبراطورية الموحدية فى طرابلس وجبل نفوسة فقط، بل وكان يهدد أيضاً المناطق الغربية نفسها: جنوب الصحراء المراكشية، وهو الأمر الذى لم يمكن

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٠٩- ١١٠- حيث الرجوع إلى ابن صاحب الصلاة وروايات شهود العيان من كبار رجال الدولة الموحدية، مثل: أبى بكر بن الجدد، والسيد أبى على الحسين بن عبد المؤمن، وحيث كان ضحايا سنة ٥٧١هـ من كبار رجال الدولة، مثل: القاضى أبى يوسف حجاج بن يوسف المراكشى (فريد زمانه، وله باع واسع فى الأدب، والكاتب أبى الحكم بن هارون المالقى، وأخيه المشرف أبى الحسن (من جلة الطلبة)، والكاتب أبى الحسن على بن زيد الأشبيلي، ومشرف غرناطة: أبى عمرو بن أفلح، إلى جانب جملة من الطلبة والموحدين.

السكوت عنه، بل والذي يفسر كيف أن الخليفة يوسف خرج من أشبيلية وحده إعلاناً عن ضرورة الإسراع في العودة إلى البلاد المراكشية، وإن وقف القدر ممثلاً في الوباء والطاعون، أمام سرعة اتخاذ الإجراءات المناسبة لإقرار الأمور في الجنوب المراكشى، في بلاد القبلة الصحراوية. هذا، فضلاً عما كان يبشر باضطراب المشرق البعيد في طرابلس الغرب - وبطبيعة الحال كان إقرار الأمور في المغرب المراكشى له الأولوية من إهتمامات الخليفة، على المشرق المغربى.

وهكذا خرج يوسف في ٤ من ذى القعدة سنة ٥٧٢هـ / ١٠٨١م سنة ١١٧٧م «برسم الغزو لصنهاجة القبلة»، وهو يستخلف «أخاه أبا حفص، والياً وأميراً على الناس»^(١). وهنا يتضح لنا أن المقصود بصنهاجة القبلة، هى مواطن قبيلة هسكورة الصنهاجية المقيمة في وادى درعة، شرق بلاد المصامدة في صحراء درعة، بين منابع وادى تنسيفت ووادى السوس: قلب بلاد المصامدة الموحدين.

والمهم أن أبا يعقوب يوسف عندما وصل إلى رباط هسكورة، حاضرة المنطقة، «أمر الناس ببناء بيوت ودور للسكنى» للقوات الموحدية التى كان يقودها، وهى المسألة التى تعنى انتهاج سياسة توطين الموحدين، التى يخشى أن يتجدد فيها عدم الاستقرار بسبب الفتنة، وهى تقريباً نفس سياسة الاستيطان الموحدية التى بدأ تنفيذها فى الأندلس - خاصة فى المناطق العامرة بالحواضر، مثل: أشبيلية، وهو الأمر الذى كان يمكن أن يحقق الاستقرار، لو نجحت سياسة التوطين الصعبة هذه - إذ الحقيقة أن تيار الهجرة يكون عادة من الصحراء إلى بلاد الحضر الشمالية، والأكثر خصوصية، وهى السياسة التى لم يقدر لها النجاح فى حالة أمبراطورية الموحدين.

(١) ابن عذارى، الموحدون (هويشى) ص ١١٠.

والحقيقة أنه إذا كانت العودة من أشبيلية بالشكل السابق غير منطقية، حيث كانت الأندلس أكثر استقراراً من المغرب، فإن توطين أهل مراكش في صحراء القبلة كانت هي الأخرى غير منطقية. فالخليفة يوسف عندما قرر العودة إلى مراكش قدم على عسكره المقيم في أرض هسكورة ابنه، وخليفته السيد أبا يوسف يعقوب (المنصور) كنوع من تدريب ولي العهد، بينما رحل معه في طريق العودة: الشيخ القائد أبو عبد الله بن يوسف بن وانودين. وتبع ذلك بقية العسكر والأجناد عندما أذعن جبل صنهاجة بالطاعة. فكان منطقة صنهاجة الجبل أصبحت منطقة فراغ أمني، كما يمكن القول مثل ذلك عن الأندلس بعد رحيل الحكومة المركزية إلى المغرب، والإستقرار في العاصمة مراكش.

أحوال الأندلس بعد العودة إلى مراكش الكونت نونيه يهاجم قونكة

رحل الخليفة يوسف عن أشبيلية، وقد ترك والياً عليها أخاه أبا على الحسين، كما ترك على قرطبة أخاه أبا الحسن (على). وإذا كان ابن عذارى يعلق على ذلك بالرواية الديوانية الأصل، قائلاً: «فألزما الجد والنظر في الثغور»، فإنه يتبع ذلك بما يناقضه من القول: إنه «عندما تحقق العليج الغادر نونه: صاحب طليطلة (نونيه دي لارا المتغلب على طليطلة)، ظهر للأفونش (صاحب السبطا) - أخزاه الله - رحلة الخليفة أبي يعقوب من الأندلس نقض العهد، ورفض السلم والعقد، فخرج بجمعه الذميم ونازل مدينة كونكة (قونكة: Cuenca) من جديد (مثلما فعل سنة وبذة)، فاستغاث أهلها بأمير المؤمنين».

وهنا يأتي تفسير إلزام السيدين الأخوين: واليا قرطبة وأشبيلية بالالتزام الجدد وضبط الثغور، بما وقع على عاتقهما من الإلتزام بمواجهة العدو بما كان في إمكانهما. فلقد رأى الخليفة يوسف إنه لما كان الناس في مراكش صازالوا بعد يعانون من توابع المرض والطاعون، وأنهم: «لا يقدرّون على

الحركة» بمعنى عدم إمكانية وصول إمدادات للأندلس من مراكش «المطعون» ، فإنه اعتمد على إمكانات الأندلس المحلية في دفع خطر العدو القشتالي. وهنا لم يكن أمام الخليفة إلا أن يأمر أخويه في قرطبة وأشبيلية بالتعاون معاً في القيام بغارات على كل من طليطلة وطلبيطة، فلعل ذلك يرغم العدو على التخفيف من حصار كونكة، على أساس مبدأ أن الهجوم خير وسيلة للدفاع- وإن كان بإمكانات الأندلس المحلية فقط، حسبما كانت تقضى الأحوال الصعبة في مراكش.^(١)

الحملة على طليطلة وطلبيطة

(شوال ٥٧٢هـ/ إبريل ١١٧٧م)

هكذا خرج عسكر قرطبة مع السيد أبى الحسن عند تحسن الأحوال الجوية في فصل الربيع، وذلك يوم الاثنين ٦ شوال ٥٧٢هـ/ ١٨ أبريل ١١٧٧م، وأغار على طليطلة وانصرف سالماً غانماً. ومن الناحية الأخرى خرج السيد أبو على الحسن بعسكر أشبيلية، وذلك في ٤ (أربعة) آلاف فارس، و٤ (آلاف) راجل إلى جهة طليطلة، حيث نجح في فتح حصن على ضفة وادى تاجه، حسبما يفهم من النص، وحيث «سبى جميع من وجد فيه من النساء والصبيان، وقتل الرجال». وهنا تقول الرواية بطرافة إن السيد أبا الحسن والى أشبيلية، لما كان قد أقسم- في موجة حماسه عند الخروج للغزو- على أنه سوف يجوز وادى تاجه، بمعنى التوغل شمال طليطلة، فإن الرجل الطيب رأى أن يبرر قسمه الجريء هذا، فصحب معه قارباً صغيراً يسمح بجوازه وحده لوادى تاجه (نهر طليطلة)، ثم أنه هاجم ضفة وادى تاجه- حيث الحصن السابق الذكر، كما نرى. وبذلك تحقق ما كان في الإمكان من مهاجمة ضفة وادى تاجه الجنوبية، ثم انصرف إلى

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١١٠-١١١ حيث النص أيضاً: «فوصل الأمر إلى السيدين المذكورين يؤكد عليهما أن يتحركا لغزو وجهات طليطلة وطلبيطة (Ta-

lavera) لعل العدو يقلع من كونكة».

أشبيلية بالغنائم والأسرى، سالماً غانماً.^(١)
ثأر البيبوج صاحب السبطاط حليف نونيه :

والظاهر أن توغل قوات قرطبة وأشبيلية شمالاً فيما وراء وادي أنه، كانت فرصة انتهزها الأمير القشتالي أصلاً، وصاحب ليون، وهو المعروف بالبيبوج صاحب السبطاط، للقيام بحملة بعيدة في الغرب، مما يذكر بحملات الفونس المحارب صاحب أراجون، والفونسو السابع القيصر القشتالي. فلقد جاز البيبوج بجمعه الذميم في غارته هذه وادي أشبيلية، ووصل إلى نظر أركش (Arcos) وشريش (Jerez) في أقصى الجنوب.

وكان ردّ الموحدين سريعاً فقد خرج عسكرهم من أشبيلية فلقق بجملة أهل طبيرة يسوقون المغانم أمامهم، فأحدقوا بهم، فقتلوهم أجمعين، وأنقذ ما كان بين أيديهم من الغنم، كما أسروا ٨٠ رجلاً من أدلائهم.

واستقبل العائدون من تلك الحملة مظفرين إستقبلاً حافلاً، فقد خرج إليهم من أشبيلية موكب كبير «بالعلامات والطبول والنظارة من العامة». هذا، كما صفت الأعلاج من الأدلاء بين يدي السيد أبي على الحسين، والى أشبيلية، الذي «أمر بضرب رقابهم فقتلوا أجمعين بمحض الموحدين». هذا، ويقول ابن عذاري أن السيدين أميري قرطبة وأشبيلية بقيا في بلديهما ظافرين في حملاتهما على الأعداء، إلى أن كان استدعاؤهما إلى الحضرة مراكش في النصف الثاني من سنة ٥٧٣هـ/٧٧-١١٧٨م^(٢)

**إستدعاء السيدين والي قرطبة وأشبيلية إلى الحضرة
للتشاور في أمور الأندلس الداخلية والخارجية**

ومن الملاحظ في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أنه كان حريصاً على تتبع أعمال الولاة في الأقاليم، سواء كانوا من السادة أفراد الأسرة المالكة، أو من كبار مشايخ الدولة أو من أصحاب الوظائف العامة، من:

(١) ابن عذاري، الموحدون (هوشي)، قسم ٣، ص ١١١.

(٢) ابن عذاري، الموحدون (هوشي)، ص ١١١.

الطلبية والحفاظ، بل ومحاسبة المتهمين منهم، محاسبة شديدة سواء فيما يتعلق بالتهاون في أمن البلاد، أو الخيانة في الأموال، أو الانحراف عن قواعد العدالة والاستقامة.

وفي ضوء هذه الاعتبارات كان يتم استدعاء كبار المسؤولين إلى الحضرة، وخاصة من يمثلون السلطة في بلاد الأندلس. وهكذا لبى الأخوان: حاكم أشبيلية أبو علي الحسين، وحاكم قرطبة أبو الحسن علي، استدعاء أخيهما الأكبر الخليفة يوسف إلى العاصمة مراكش. وكان خروجهما سوياً من أشبيلية يوم الثلاثاء ٨ رمضان ٥٧٣هـ / ٢٨ فبراير ١١٧٨م، ومشى في صحبتهما القائد ورجل الدولة: أبو داود يلول بن جلداسن، كما صحبهما أبو علي بن عزون وجملة من أشياخ الموحدين الأشبيليين. وكان من المعروف سلفاً أن موضوع المدارس أو المسألة، هو: «المفاوضة في مصالح المسلمين، ومحاربة أعداء الله الكافرين».

ولا شك أنه كان من نتيجة المدارس والمفاوضة بين الخليفة وأخويه صاحباً أشبيلية وقرطبة، حسبما تشير إليه الرواية فيما كان قد تبقى من سنة ٥٧٣هـ / النصف الأول من سنة ١١٧٨م، فلقد نزلت العقوبة بعدد من «الوزراء والعمال والخداماء» مثل: (أبو العلا إدريس) ابن جامع، وبنيه، «وكان لهم في الوزارة ١٥ (خمس عشرة) سنة». فلقد أقيلا من مناصبهم، بل وحددت إقامتهم بمدينة ماردة (Merida)، «مغربين مهجرين» (ستة) أعوام إلى أن مات أبو يعقوب في غزوة شنترين (سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م). ولما استخلف أبو يوسف يعقوب (النصور) عفا عنهم، كما عفى عن سواهم^(١).

هذا، وكان ممن انتقم منهم أيضاً الخليفة يوسف: مشرف أشبيلية (وجابى خراجها): أبو عبد الله محمد بن المعلم، الذي «انتقدت عليه أخبار شنيعة، وأحوال فظيعة»، فأمر بسجنه، ومصادرة أمواله عن آخرها،

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى) ص ١١١-١١٢.

فتفرقت أحواله، بل «وضربت بعد محنة طويلة عنقه- رحمه الله». وكذلك كان الأمر بالنسبة لمشرف سجلماسة ابن فاخر، وكذلك أبو الحسن علي بن جُنُون.^(١)

وفى إطار توحيد حكومة الأندلس وإدارتها بين أفراد العائلة الملكية، صدرت الأوامر الخلافية سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٧م بتولية ابني أخى الخليفة: أبى الحسن، والى أشبيلية الذى توفى فى نفس العام (٥٧٤هـ)، وهما: أبو زيد، وأبو محمد عبد الله، بولاية كل من غرناطة ومالقة. هذا، كما شغل منصب والى سجلماسة بوفاة أبى العباس بن عبد المؤمن، أخى الخليفة. وكان من بين وفيات أعيان سنة (٥٧٤هـ)، وفاة: موت أبى على بن عزون، والقاضى أبو القاسم بن فضيل، وكذلك وفاة: شيخ طلبة الحضرة المراكشية: أبو محمد المالقي، أحد رجال عبد المؤمن المقربين، ومن بعده ابنه يوسف (خليفتنا).^(٢)

كَلْبُ الْعَدُوِّ الْبَرْتِغَالِي فِي الْأَنْدَلُسِ وَاشْتِدَادُ هَيْبَتِهِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

واعتباراً من أواخر سنة ٥٧٤هـ/ أوائل ١١٧٩م، ومن ثم سنة ٥٧٥هـ/ منتصف ١١٧٩م، وهى سنة وفاة السيد الأعلى أبى حفص عمر (الوزير الخطير، وصاحب الإشراف على القصر، معاون الخليفة أبى يعقوب يوسف) تبدأ مسيرة الأحوال فى الأندلس من سى إلى أسوأ. ففي أواخر سنة ٥٧٤هـ أوائل ١١٧٩م، فى الوقت الذى كان سيل وادى أشبيلية يخرج على جهات طريانة، كانت المنطقة تعاني الأمرين، بسبب نشاط العدو البرتغالى: ابن الرنك (الفونس هنريكيز) فى البر والبحر. فقد كان يشير الفرع فى قرى الشرف (El-Ajarafe) بغرب أشبيلية، وغيرها من المناطق

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١١٢.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١١٢- حيث كان المالقي من أهل العلم والدين، ترفع له المسائل وأشعار الشعراء، كما تقدم للخطابة والصلاة بأمر المؤمنين.

المجاورة. وكان ردّ الخليفة يوسف على ذلك هو إرسال ابنه أبى اسحق كوال (أو نائب له) لأشبيلية وسير معه عسكرياً ضخماً.

ولمواجهة اعتداءات العدو البحرية رأى الخليفة يوسف أن يعهد بقيادة أسطول سبّته إلى غانم بن مردنيش، وبدأ غانم نشاطه الجهادي بمهاجمة العدو البرتغالي في قاعدته البحرية أشبونة (الشبونة)، حيث هاجم الميناء والمرسى، وتغلب هناك على قطعتين من قطع العدو، رجع بهما إلى قاعدته في سبّته.^(١)

وهكذا اشتعلت نيران الحرب مع العدو البرتغالي، الذي كان يحسن حرب «الغدر» أو الغارات الفجائية السريعة، الأمر الذي كان يتفوق فيه علي الموحدين، كما حدث في باجة وغيرها (مما سبق). فرداً على مفاجأت ابن مردنيش للأشبونة، «عبرت (بعد ذلك) جملة ذميمة من الشياطين إلى سلطيش، فتغلبوا عليها، وأسروا فيها من المسلمين خلقاً كثيراً، وفك الله أميرهم بالفداء منهم».

والأخطر من ذلك هو ما حدث في سنة ٥٧٥ هـ / يونيه ١١٧٩ - مائه ١١٨٠ م، من ارتحال السيد أبى على الحسن (بن عبد المؤمن) عن قرطبة بجميع أهله وولده ورجاله، ثم ما تبعه من ارتحال أبناء أخيه المتوفى أبى حفص (السيد الأعلى: صاحب القصر)، الذين ساروا بأجمعهم إلى مدينة مراکش - مما نعتبره من علامات النحس سنة ٥٧٥ هـ هذه. ويظهر ذلك مما تقوله تلك الرواية من أنه عندما «سألهم الخليفة عن أحوال الأندلس، فأخبروه أن صاحب طليطلة (هو الآخر) أظهر بعض الصلح، وبالع في الغارة والفتح».

وبطبيعة الحال لم يكن الخليفة أبو يعقوب يوسف (بجلالة قدره) ليستطيع السكوت عن مثل هذا التهديد (المرفوض). إذ تقول الرواية إنه: «غار... لذلك، وجمع أشياع الموحدين، فغارو لغيرته... وأخذوا في

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشي)، ص ١١٣، ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤٠.

الاستعداد للجهاد. ونظر الخليفة أبو يعقوب في استجلاب العرب من أفريقية، وعزم على الغزو إلى مدينة قفصة لأن يحسم علتها. فكان حكومة مراكش الموحدية المركزية، كانت قد وقعت بين شقى الرحا، كما يقال: بفتنة الأعداء فى الأندلس، من: برتغال وقشتاليين، وفتنة العرب بأفريقية، ومن حام حومهم من الوافدين الجدد من الترك والغز أو الأغزاز. فكان الجبهة الإفريقية الشرقية التى أطفأ عبد المؤمن نارتها، قد عادت إلى الاشتعال من جديد، ممثلة فى فتنة أمراء الطوائف المسلمين.

المسألة الإفريقية تطفو على السطح من جديد حركة يوسف إلى إفريقية وغزوة قفصة

سبب الغزوة أن صاحب قفصة وهو علي بن المعتز، المعروف بالطويل، وهو من سلالة ملوك قفصة من بنى الرند، ثار فى سنة ٥٧٥هـ/٧٩-١١٨٠م، وذلك عندما رأى دخول الترك إلى إفريقية واستيلاءهم على بعضها، وانقياد العرب إليهم، طمع فى الاستقلال والاستبداد، فخالف يوسف، ووافقه أهل قفصة، فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين وذلك، فى سنة ٥٧٥هـ/٧٩-١١٨٠م، وعندئذ أرسل والى بجاية إلى يوسف يخبره باضطراب الولاية.^(١)

وكان خروج أبى يعقوب يوسف إلى إفريقية وقفصة فى الأشهر الأخيرة من سنة ٥٧٥هـ/١١٨٠م، وبالدقة حسب رواية الشقة عند ابن عذارى فى يوم الخميس ١٥ شوال ٥٧٥هـ/١٥ مارس ١١٨٠م. أما ما لفت إنتباه ابن عذارى فى رواية ابن صاحب الصلاة، فهى البركة بمعنى الراتب أو العطاء التى كان يعطيها لعساكره (أى لقواد العسكر كما نرى) وكانت تصل إلى ألف دينار (لكل واحد منهم فى كل مرة؟)، وأن ذلك تمادى مدة غزوته هذه، إلى أن انصرف عنها، وذلك بالإضافة إلى ما كان يصرف لهم من العلوفات والمواساة (الإكراميات والهبات) والمرافق (التنفقات الجارية) فى كل منزل.^(٢)

وعند خروج يوسف فى تلك الغزوة كان عليه أن يتصل بالطلبة الذين بجزيرة الأندلس معرفاً إياهم بجهادهم هذا، حتى يكون مثلاً يقتدون به فى أرض الزباط والجهاد بالأندلس.^(٣)

(١) انظر ابن الأثير ج ١١ ص ٢٦٧، ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١١٣-١١٤ - حيث نقرأ النص: إلى أنه كان يعطى البركة لعساكره فى غزوة قفصة: ألفاً ألفاً وليس ألف ألف بمعنى مليون) كما ظن هوى ص ٢٨١. تفسيراً لابن عذارى.

(٣) ابن عذارى، ص ١١٤. واشتغل (يوسف) فى سد الشغور التى يخافها بعد (ابن الأثير ج ١١، ص ٤٦٧).

ومما يؤسف له أن أخبار الحملة الإفريقية تنقطع من ١٥ شوال ٥٧٥هـ، فلا نعرف عنها شيئاً حتى عيد الأضحى (١٠ من ذى الحجة) من نفس السنة^(١)، حيث التوقف على مسافة يمكن تقديرها نسبياً بعشرة مراحل من تلمسان.^(٢)

وهكذا تنتهى سنة ٥٧٥هـ / ١١٨٠م دون أن نعرف شيئاً مهماً عن الحملة سوى أنها كانت تتوجه بقيادة ولى العهد (المنصور) نحو تلمسان. وتبدأ سنة ٥٧٦هـ (٢٨ ماية ١١٨٠م - ١٦ ماية ١١٨١م)، ونعرف أنه فى أولها: إستكملت العساكر الموحدية بتلمسان. فكان طلائع الحملة الإفريقية وصلت إلى تلمسان بقيادة ولى العهد (المنصور) فى آخر سنة ٥٧٥هـ/ آخر ماية ١١٨٠م، وأن بقية القوات وصلت صحبة الخليفة يوسف فى أوائل سنة ٥٧٦هـ/ أول يونيه ١١٨١م. (ما بين ذى الحجة والمحرم).

وبعد أخذ قسط من الراحة، بدأت التعبئة من أجل المسير إلى غزو قفصة وبلاد القيروان، وذلك فى ١٢ من صفر/ ١٠ يوليه. كان المسير إلى بجاية، حيث تحقق عنده أن ابن المعتز (المنتصر) يحرض العرب على الفتنة، وأنه يواصل (يراسل) الممتنع بقفصة وبواليه على الشقاق فتقبض عليه، ودخلت داره فوجد فيها مخاطبات العرب إليه بجوابه بما يشهد عليه. فأخذ ما كان بيده من الأموال والذخائر.^(٣)

(١) انظر الهامش السابق.

(٢) على أساس متوسط المسافة من نهاية عيد الأضحى سنة ٥٧٥هـ - ٥٧٦هـ دون تحديد الزيادة. فهذا ما نفهمه من النص المبتصر الخاص بتلك الحملة. ابن عذارى، والذي يقول: «فلما عيد عيد الأضحى من السنة (٥٧٥هـ) حض على البدار إلى ما عزم عليه من الجهاد والسلوك فى الأكام والجهاد (يعنى أنه عيد فى منطقة جبلية صعبة)، وقدم ابنه المنصور أباه يوسف، فوصل تلمسان فى هذه السنة المزرخة (٥٧٥هـ) - والتى رأينا إختصارها إلى النصف بسبب خشونة الأرض وصعوبة السير بالتالى. ولو قدرت المرحلة بحوالى ٢٥ كم، يكون التعييد بالأضحى على مسافة ٢٥ كم تقريباً.

(٣) ابن عذارى، الموحدون، ص ١١٤، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤٠ - ٢٤١.

وسار يوسف من بجاية حتى كان بقرب قفصة، حيث وصل إليه جميع
أشياخ العرب من قبيل رياح بالطاعة، وطلب الأمان في دورهم وأنفسهم،
فأسعفوا فيما طلبوا.^(١)

والمهم أن أمير المؤمنين يوسف نازل قفصة فضرب عليها الحصار، وقاتل
أهلها رمياً بالمنجنيق، وغيره من آلات الحصار، وذلك لمدة ٣ أشهر كما
يقول ابن الأثير، حيث النص على أن قفصة «بلدة حصينة، وأهلها أنجاد»،
وأن يوسف «قطع شجرها» نكاية فيهم، وينفرد ابن الأثير برواية طريفة
تنسب إلى صاحب قفصة (على الطويل: ابن المعتز) الفضل في تحقيق
الأمان لأهل بلدة: قفصة، وذلك أنه عندما اشتد عليه الأمر وعلى أهل
بلده، خرج مستخفياً إلى خيمة يوسف، وعرف حاجبه أنه قد حضر للقاء
أمير المؤمنين الأمر الذي أثار عجب يوسف: «وكيف أقدم على الحضور
عنده بغير عهد». ويفهم من الرواية أن «الطويل» كان لديه الرد، إذ:
دخل وقبّل اليد واعتذر وطلب العفو له ولأهل بلده، «فرّق له
يوسف، فعفا عنه وعن أهل البلد، وتسلم المدينة في رمضان في
(سنة ٥٧٦هـ/يناير-فبراير ١١٨١م) وسير صاحب قفصة العاقل الشجاع
إلى بلاد المغرب». «فكان فيها مكرماً عزيزاً، وأقطعه ولاية كبيرة».^(٢)

استمالة العرب الراحية

وعقد الصلح مع ملك صقلية

وفيما يتعلق بترتيب قفصة تظل رواية بن الأثير هي الأوفى والأقرب
إلى الحقيقة. فلقد «رتب الخليفة يوسف لقفصة طائفة من أصحابه
الموحدين، وحضر مسعود بن زمام أمير العرب عند يوسف أيضاً، فعفا عنه
وسيره إلى مراكش. وسار يوسف إلى المهدية، فأتاه بها رسول ملك الفرنج،

(١) ابن عذاري، الموحدون، ١١٤، ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤١.

(٢) ابن الأثير، ج ١١ ص ٤٦٧-٤٦٨- حيث دخول المدينة في أول سنة ٥٧٦هـ، وهو
التاريخ الذي فضلنا عليه تاريخ ابن عذاري، الموحدون، ص ١١٤.

(غليوم) صاحب صقلية، يلتبس منه الصلح، فهأذنه ١٠ (عشر) سنين». هذا، ولما «كانت بلاد إفريقية وقتئذ مجذبة فتعذر على العسكر القوت وعلف الدواب، فسار (يوسف) إلى المغرب مسرعاً والله أعلم»^(١).

وهكذا إفتتحت قفصة في شهر رمضان سنة ٥٧٦هـ/يناير- فبراير ١١٨١م، ونزل عنها على بن المعتز المعروف بالطويل، ومن ثم رحل الخليفة يوسف إلى تونس، وأنفذ عساكر العرب (إلى المغرب)، وعقد على إفريقية والزاب لأخيه السيد أبي على، كما عقد على بجاية للسيد أبي موسى^(٢).

وفى تونس خاطب يوسف أهل حضرة مراكش، وأهل الأندلس، وبعث مع الرسالة بقصيدة- من نظم الكاتب الخطيب أبي بكر بن طفيل الوادي أشى أولها:

ولما انقض الفتح الذى كان يرتجى أصبح حزب الله أغلب غالب
أما عن عظيم الروم (صاحب صقلية)، فقد خصه الشاعر بعدد من الأبيات، منها:

ومدّ على رغم الصفار لصفنا يديه عظيم الروم فى حال راغب^(٣)

(١) ابن الأثير، ج ١١ ص ٤٦٨، وقارن عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص ٢٥٢... حيث مصالحة ملك صقلية فى هذه السفرة، بعد أن خافه خوفاً شديداً، فقبل منه وهأذنه على أن يحمل له كل سنة مالاً إتفقا عليه. وينص صاحب المعجب على أنه كان من بين هدايا ملك صقلية للخليفة يوسف حجر الياقوت المسمى بالحافر الذى كان يزين مصحف عثمان عند الموحدين.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١١٤، ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤١.

(٣) انظر ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١١٤-١١٥. وحيث النص على استبشار الناس بأشبيلية بتلك الأخبار وهأأوا السيد أبا إسحق، كما أنشد أبو مروان عبد الملك بن محمد، فى ذلك قصيدة أولها:

فتح يفوت مدارك الأوهام ويعجز عن الإحصاء الكلام

وقارن عبد الواحد المراكشى الذى يقول فى المعجب (ص ٢٥٣- ورجع أمير المؤمنين أيهم يعقوب إلى مراكش من إفريقية، بعد أن لم يبق بجميع المغرب مختلف عليهم (الموحدون)، ولا معاند لهم، ودانت له جزيرة الأندلس بأكملها.

ومن الوثائق الهامة التي وصلتنا عن أحداث إفريقية وقفصة مما يتعلق بالعرب والسياسة التي اتبعتها الدولة الموحدية منذ أيام عبد المؤمن بالنسبة لإشراك هؤلاء العرب في الجهاد في الأندلس، بل وتوطينهم فيها- كما كان الحال في بداية الفتوح الإسلامية، على أن يكون ذلك قاعدة لعملية الإنقاذ الموحدية والتجديد الإسلامية في الأندلس. وهنا نشير إلى تلك الرسالة التي أنشأها الكاتب أبو الفضل بن طاهر بن حمزة والموجهة من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين (يوسف)، والموجهة إلي الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بقرطبة^(١).

ويخاطب الكتاب الصادر من تونس (بعد نهاية حملة قفصة) المسؤولين في قرطبة، مذكراً إياهم بعهد المهدي المعصوم وخليفته عبد المؤمن: المنصور الناصر لدين الله، ومشيراً إلى ما تحقق في قفصة وإفريقية من «الفتوح الجليلة التي جاوزت مدى الأفهام...» وشاهد أحلى أن «هذه الدعوة العزيزة التي هي نظام الإسلام».

وأنه خلال تلك الغزوة المباركة تمّ جمع أشياخ العرب وأعيانهم... من جميع قبائل رباح... فذكروا بحقوق هذا الأمر العظيم (ص ١٥٠-١٥٢)، ونهبوا على ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق في أول الإسلام، وإن الله قد وعد هذه الطائفة المنصورة أن تملك العرب، كما بشر به المصطفى. وعرفوا أن الغرض منهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس... والذي ينتقلون إليه من الرباط في سبيل الله يجمع لهم الخيرة من الدين والدنيا (ص ١٥٢).

ويُنن لهم أنهم إذا إستقبلوا هذا الغزو السعيد بنيات متجردة... ونفروا إليه بحملتهم... واستصحبوا معهم من تتعلق به الخواطر من أهل وأبناء ونعم وشاء، وجعلوا كل ذلك وراءهم حيث ما يرسم لهم من بلاد

(١) انظر رسائل موحدية (نشر برونسسال)، الرباط ١٩٤١، الرسالة رقم ٢٦، ص ١٤٩ وما بعدها.

الأندلس... ثم صمدوا لعدوهم... كانت خواطرهم لغزو أعدائهم أفرغ.
فتحركت إلى ذلك حفائظهم، وثارت لنصر دين الله عزائمهم... ولم
يبق من جموع رياح كلها... إلا من حضر ذلك من أعيانهم، وذوى حلومهم
وأسانهم، وكلُّ أظهر جميل البدار. وودع جميعهم على الأخذ في الحركة
على هذه الصفة المباركة من التفويض بالرحيل، والتسليم لهذا الأمر
العظيم... وأن يكون رباطهم عوضاً عن عشواء في الفتنة
خبطوها... (ص ١٥٣-١٥٤).

وقد أخذوا في الحركة بعون الله على طرق شتى، بعضها بالصحارى
وبعضها بالسواحل: كل قبيل قد اختار أقرب الطريق إلى الموضع الذي
سنّه مبدأ انتقاله، وأرفقها بنفسه وأهله وماله... ورأينا أن ذلك لهم أوفق
وبهم أرفق، حتى لا يزدحموا في المسير.
وقد أصحابوا من الطلبة والحُفَاط... من يقيم منادهم، ويحفظ
أعدادهم... وإن جموعهم كتكاثر الحصى وعدد الرّبي.

وكان ممن حضر لهذا الجمع السعيد... الشيخ أبو سرحان مسعود بن
سلطان ابن زمام... فظهر منه من جميل الأقوال والفعال التي تنبى عنه
أنه صادق في جميع الأحوال... ثم أخذ في الرحيل بنفسه وأهله وولده
وجملة من تعلق به. وسار في الرعيل الأول... والجهد في سبيل الله شغل
خواطره وأفكاره.

وكل من كان قد أساء الظن من هؤلاء العرب قد بادر الآن بالامتنال...
ورجا أن يختم عمله بالرباط في تلك الجزيرة محتسباً على الله نفسه...
فقد وعسبوا في التخلي من هذه، الأوطان، وتركوها لمن كان فيها من
القطان، سوى من سكن في قبائل سليم بجهات أطرابلس، وما وراءها
مشرقاً، مصححاً إلى برقة الاسكندرية.

وبعد الإشارة إلى من سبق في مخاطبتهم وإنذارهم مع رجاء إجابتهم
للجهاد، يذكر بأن مجرد «كف أيديهم عن هذه البلاد، وصرفهم إليها

لدليل على أن هذا الأمر العزيز لا ترقى إلى فهمه العقول... وأنه مؤيد من الله».

فقد كان العرب أولاً وآخرأ لا تنقاد لقائد... فلانت قلوبهم من الآن لهذا الأمر العظيم... كتب ١٥ شوال سنة ٥٧٦هـ / ١٤ مارس ١١٨١م.^(١) وهكذا فإلى جانب إخضاع بجاية وقفصة فى حملة إفريقية لسنة ٥٧٥-٥٧٦هـ / ٨٠-١١٨١م فإن تلك الحملة كانت لها أهميتها الكبرى بالنسبة لاستنفار عرب إفريقية (باستثناء عرب طرابلس وبرقة) للجهاد فى الأندلس، فى شكل جهاد إستيطانى كأن الهدف منه تعريب الأندلس من جديد إلى جانب نشر الإسلام على مذهب التوحيد التومرتى. وهكذا تتكامل جهود أبى يعقوب يوسف فى عملية الإنقاذ الموحدة للأندلس، ويحق لكاتب الرسالة الجهادية أن يستوحى تاريخ الأندلس فى عصر الذروة، عصر الخلافة، فيطلق على يوسف فى رسالته الديوانية الموجهة من الأندلس إلى قرطبة لقبى المنصور (بالله) والناصر (الدين الله).

وبهذه الأنباء التى أكدت هيمنة الخليفة يوسف على مجرى الأمور فى إفريقية وطاعة الطوائف الإسلامية فيها، وكذلك قوة النورمانيين فى صقلية، واستبشر الناس بأشبيلية، وعبر أعيانها عن عظيم التهنئة لواليتها السيد أبى إسحق. وفى حفل الاستقبال هذا، وقف ابن الجد خطيباً، تماماً كما قام مؤرخنا ابن صاحب الصلاة: أبو مروان عبد الملك بن محمد، بإنشاد قصيدة أولها:

فتح يفوت مدارك الأوهام ويعجز عن الإحصاء بالأقلام

والمهم أن الخليفة أبا يعقوب يوسف بعد أن أنفذ أخبار حملته الناجحة فى إفريقية من تونس، أخذ عائداً من إفريقية بعد أن استناب على إفريقية أخاه أبا الحسين ومقره مدينة تونس التى صارت قاعدة إفريقية وعاصمتها.

(١) بروفنسال، رسائل موحدة، الرسالة ٢٦، ص ١٥٢-١٥٧.

بينما ولى أخاه أبا موسى بالقيروان. أما عن رحلة العودة فالمعروف منها
هو تاريخ الوصول إلى فاس في شهر صفر من سنة
٥٧٦هـ/يونيه-يوليه ١١٨٠م.

A S R



مرحلة جديدة في ولاية أبي يعقوب يوسف

يعتبر إقرار الأمور في الأندلس خلال اتخاذ أشبيلية حاضرة للدولة الموحدية ما بين سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م و٥٧١هـ/١١٧٦م مرحلة هامة في إقرار أحوال العدو الأندلسية، وفرض ما يمكن أن يشبه نوعاً من الهيمنة الموحدية على الأراضي (التي لا صاحب لها) والتي كانت بمثابة حراج فاصلة بين الأراضي المسيحية في الشمال والأراضي الإسلامية في الجنوب، والتي كان يمكن للطرف الآخر من الجانبين، فرض نوعاً من الهيمنة عليها نظير دفع الثمن من المال أو الحصون - علامة الخضوع أو التبعية (Vassalité) ومثل هذا ما تحقق بعد سنة ٥٧٥هـ/١١٨٠م - سنة وفاة السيد الأعلى أبي حفص عمر، شقيق الخليفة يوسف وصاحب قصره، والذي يمكن اعتبار وفاته كنوع من الاستقلال، بمعنى التحرر أو الإنعتاق من التبعية، كما هو الاستقلال بمعنى البرء من المرض. وهكذا يمكن اعتبار نجاح يوسف في تهديد إفريقيا التونسية، وفرض التبعية على عربها الهلالية، ومن ثم فرض الهيمنة على الملكية النورمندية في صقلية، إنجازاً كبيراً يؤكد ما يتفق عليه بعض الكتاب، مثل: عبد الواحد المراكشي، من إضفاء صفة كبير بنى عبد المؤمن على يوسف.^(١)

(١) انظر المعجب، ص ٢٥٢ - وما بعدها - حيث يقول عن سنة ٥٧٥هـ/١١٨٠م التي تم فيها غزو إفريقية ومصالحة ملك صقلية، «ورجع أمير المؤمنين يعقوب إلى مراكش من إفريقية بعد أن لم يبق بجميع المغرب مختلف عليهم ولا معاند لهم»، «ودانت له جزيرة الأندلس بأسرها - كما ذكرنا - وكثرت في أيامه الأموال واتسع الحراج، انظر ص ٢٥٥ - عن اتساع الدولة وزيادة الحراج، ص ٢٥٦ - حيث «... فلم يرتفع لملك من ملوك المغرب مثل أبي يعقوب هذا، وبعده ما ارتفع إليه من الأموال».

ردود فعل سلبية في الأندلس نتيجة الانشغال بتهديد إفريقية

والمهم أن انشغال أبو يعقوب يوسف في غزو بجاية وقفصة وتهديد بلاد إفريقية كانت فرصة انتهزها العدو البرتغالي فأوقع غدرًا بأسطول سبته. وانتهى الأمر بما يشبه الكارثة بالنسبة لغزاة البحر الموحدين. فلقد أسر غانم بن مردنيش قائد الأسطول بسبته كما أسر أخوة أبو العلاء (إدريس) وجماعة من أصحابه، بل واستشهد بقية إخوانه، مع جماعة من المسلمين وانتهت الوقعة بإحتواء العدو البرتغالي على كثير من القطائع - أخذاً بثأر السنوات السابقة، كما نرى - وحمل رجالها من المسلمين أسرى إلى لشبونة (الأشبونة) وذلك في ١٤ من المحرم من سنة ٥٧٦هـ / ١٣ يونيو ١١٨١م.

ومن مكان أسره في لشبونة أرسل غانم بن مردنيش خطاباً للخليفة يوسف، « يشكو سوء حاله ». وكان وصول كتابه إلى تلمسان، في طريق العودة من الغزوة الموقفة، في أول صفر ٥٧٦هـ / ٢٧ يونيو ١١٨١م. وكان أن صدر أمر الخليفة إلى هلال بن مردنيش، أخى غانم أن ينصرف إلى حضرة مراکش. لتدبير أمر فداء أخيه. وفعلاً سار هلال إلى مراکش حيث دبر المال اللازم لأخيه غانم، وأرسل به إلى أشبيلية.

وفي أشبيلية تم تدبير إرسال المال إلى المختصين بتدبير فك الأسرى لدى العدو، وهم الفكّاء. والذي يفهم من بقية الرواية أن الأمر لم يكن يتعلق بفك أسر غانم بن مردنيش، بل بفك أسر جميع البحارة المسلمين الذين غدر بهم، كما يفهم في نهاية الأمر. وهكذا إنطلق غانم من الأسر وأخوه أبو العلاء (إدريس)، ومن كان قد بقي من الأسرى من أصحابه.

والظاهر أن الانشغال بأمر إفريقية حيث كان وفود أتراك الغز مع قراقوش يشير المزيد من اضطراب العرب هناك، الأمر الذي هبأ الفرصة للعدو البرتغالي الذي « كلب في البحر » في سنة ٥٧٦هـ / ١١٨١م بمنطقة

شتترين، كما كان الحال كذلك بالنسبة للقشتاليين من « أهل طليطلة في
الإلحاح على بلاد الأندلس بالنكاية وشن الغارات على القرب والبعد من
بلاد الإسلام ».^(١)

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١١.

عودة الروح الجهادية بعد النجاح فى تهالين إفريقية

وهكذا، وبمجرد تحقيق الظفر فى إفريقية، كان من الطبيعى أن نشطت النفوس لجهاد أعداء الله الكفار، «فأببلوا فيهم بلاء من أخذ الشار». ومع مطلع سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، وصلت البشارة إلى أشبيلية بوصول الخليفة يوسف إلى الحاضرة مراكش، فكان على السيد الوالى: أبى إسحاق أن يسير للقاء أبيه هناك وتهنئته بسلامة الوصول، كما سار بصحبته ابن وانودين مع عدة من أشياخ أشبيلية.

وحذا حذو أعيان أشبيلية أشياخ كل من قرطبة وغرناطة ومُرسية فكان عليهم البدار إلى المشى إلى أشبيلية، لأداء واجب السلام والولاء. وكان وصولهم مع السيد أبى عبد الرحمن يعقوب بن عبد المؤمن، والى مرسية وبقى الوفد مقيماً بمراكش إلى أول شهر ذى القعدة ٨ مارس ١١٨٢م.^(١)

الشار من البرتغاليين؛

وهكذا كانت سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م سنة ثارات الموحدين من غدر البرتغاليين لأسطول سبتة. وصدرت الأوامر فعلاً للقائد أبو عبيد محمد بن وانودين الهنتانى، بأن يعسكر بجميع الموحدين من أهل أشبيلية، إلى جانب جميع من كان بها من الأجناد النظاميين. كما حشد أهل الحصون من الفرسان والرماة، وخرج من أشبيلية «فى غاية من الإستعداد». وكان هدف الحملة أطراف يابرة حيث غنم المسلمون جميع ما وجدوه بخارج يابره (Evo-ra) من الغنم والبقر.

والأمر المستغرب، أن كانت منازل يابرة فى يوم عاشوراء ٥٧٧هـ/ ٢٧مايه ١١٨١م، وكان الشار منها على مستوى ذكرى اليوم العظيم، فأمر ابن وانودين، «وهو يقوم بالمسلمين كالليث الضارى» بقطع ثمارها وأشجارها وكرومها وعلى الجملة «إعفاء رسومها». كل ذلك

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١١٦، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤١.

«والكفرة قد انحجروا خلف سورهم إنحجار الثعالب العاوية إذا سمعت زئير الأسود العادية».^(١)

وبعد إقامة يومين على يابرة انصرف ابن وانودين عنها بالعسكر لكي يصبّحوا حصناً آخر للنصارى هو حصن قنج، فتغلبوا عليه فكانت حصيلة الغارة سباء ٤٠٠ (أربعمائة) من النساء بين كبيرة وصغيرة، ومن الرجال ١٢٠ (مائة وعشرين) غير الكثيرين الذين قتلوا منهم.

والمهم أن حملة يابرة هذه إستغرقت ما يقارب العشرين يوماً، إذ دخل ابن وانودين أشبيلية فى آخر محرم «فى تبريز، وحفل عظيم» وهناك «باع السبى بها، وكثر عند الناس الخدم».^(٢)

وفى نفس سنة ٥٧٧هـ/٨٢-١١٨١م، وبعد أسر غانم بن مردنيش (تم التنسيق بين القوات البحرية فى كل من سبتة وأشبيلية) فخرج قائد أسطول سبتة: عبد الله بن جامع من قاعدته بالأسطول، بينما خرج للقائه قائد أساطيل أشبيلية بجزيرة قادس: أبو العباس الصقلى بمراكبه الحربية. وبذلك التنسيق تم استكمال ٤٠ (أربعين) قطعة بحرية، فنهضوا من قادس بجمعهم إلى جهة شلب، حيث تم اللقاء بالأسطول البرتغالى الخاص بأهل أشبونة، فى نفس الموضع الذى تم فيه أسر غانم بن مردنيش فى البحر (١٥ محرم ٥٧٦هـ).

(١) وفى ذلك يروى (ابن عذارى، ص ١١٧) أعمال البطولة الرائعة لابن وانودين، مثل استيقاظه من النوم وقت القائلة ومواجهة مهاجمى خبائه من نصارى يابرة، وركوبه من فوره وهزيمة الأعداء المهاجمين أجمعين «حتى تساقطوا فى حفير السور رجالاً دون دواب، فأخذت دوابهم وأسلابهم، وقتل منهم خلق كثير، ولم يخرج منهم بعد ذلك قليل ولا كثير.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١١٧، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤١- حيث الاختصار المركز والمفيد فى نفس الوقت: واتصل به ابن محمد بن يوسف بن وانودين يجدد بالموحدين من أشبيلية إلى أرض العدو، فنازل مدينة يابرة، وغنم ما حولها، وافتتح بعض حصونها، ورجع إلى أشبيلية.

والأمر المثير هنا هو أن اللقاء تم فى يوم الذكرى السنوية الأولى لأسر غانم ابن مردنيس، إذ كان اللقاء الجديد فى يوم ١٥ من محرم ٥٧٧هـ/ ٢ يونيه ١١٨١م. وإذا كان ذلك من الأمور المستغربة حقاً، كما يقول نص ابن عذارى، فإنه من ناحية أخرى يدل على أن حرب الطوائف كانت تدور، سواء فى البر أو البحر، بشكل رتيب. والحقيقة أن وقوع تلك المعركة فى مثل نفس اليوم من العام الهجرى، تعنى أنه كان هناك فارق بمقدار ١١ (أحد عشر) يوماً بالنسبة للتقويم الشمسى الدارج حالياً.

والواضح من تفصيلات المعركة البحرية الشأرية أنه ما كان للأسطول البرتغالى القرصانى الناشئ أن يواجه الأسطول الإمبراطورى الموحدى: المغربى الأندلسى، فى معركة نظامية مبرمجة. فلقد أسر الأسطول الموحدى نحو الـ ٢٠ (عشرين) من القطنع مع أسلابهم وأسلحتهم. وهكذا، وصف ذلك النصر بأنه مبرور حيث قتل فيه من النصارى كثير، وأسر منهم نحو الـ ١٨٠ (الألف وثمانمائة). هذا ولاندرى إن كان من الصحيح أنه «لم يمت (فى ذلك النصر) إلا رجل (مسلم) واحد». وأغلب الظن أن خسارة البحرية الموحدية كانت فعلاً رمزية هينة.

وبعد ذلك النصر الكبير إقتسم قائدا الأسطولين السبتى والأشبيليى الغنيمة والأسرى وغيرها، وانصرفوا عائدين إلى قواعدهما. والظاهر أنه، بناء على قاعدة تقسيم الغنيمة، كان على القائد إرسال الخمس الخاص بالخليفة إلى مراكش، فهذا ما يفهم من مبادرة القائدين: ابن جامع والصقلى بغنيمتيهما من الأسرى إلى أمير المؤمنين الذى أعطى منهم البعض فى فداء غانم ابن مردنيس، بينما ضرب أعناق الباقين.^(١)

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١١٧-١١٨، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤١- حيث: «والتقوا بأسطول أهل أشبونة فى البحر فهزموهم، وأخذوا ٢٠ (عشرين) من قطنعهم مع السبى والغنائم».

والحرب سجال مع البرتغال:

والمهم أن خيل أهل شنترين التابعين لملك البرتغال ظلوا يلحون بالضرب على بلاد المسلمين، كما حدث في الشرف بغرب أشبيلية وغيره من أنظار أشبيلية. والمهم أن الحرب بين الفريقين كانت سجالات، وذلك أنه عندما خرج عسكر أشبيلية للدفاع عن البلاد، إنتهى القتال الشديد بين الجانبين بتفوق العسكر الموحدى الذى قتل من «رجال العدو المهاجمين، نحو ١٧٠ (مائة وسبعين) رجلاً». ولكنه عندما تكشف غدر العدو بخروج حليفهم، إنهزم المسلمون أمام المفاجأة واستشهد منهم جماعة. والظاهر أن ذلك النجاح الطارئ من جانب البرتغاليين، شجع صاحب طليطلة، القشتالى على أن يكون شريكاً هو الآخر فى الضغط على الأراضى الاسلامية المتاخمة. وهكذا تولت خيل طليطلة، كما تقول الرواية، الضرب على استجه (Ecija) وجهة قرطبة فى شرقيها، الأمر الذى أدى إلى مخالفة الخليفة يوسف بالخرقة المراكشية، طلباً للنجدة بطبيعة الحال.

تدهور الموقف فى الأندلس مع قدوم سنة ٥٧٨هـ/ ٨٢-١١٨٣م

محاولة اكتساح الأندلس من قبل ملكى البرتغال وقشتالة

وهكذا وقعت بالأندلس فى سنة ٥٧٨هـ أحداث قبيحة. فقد وصلت خيل البرتغاليين من جهة شنترين والأشبونة إلى قرية شلوقة (Sanlucar) من أنظار الشرف، فى حملة من ١٠٠٠ (ألف) فارس و ١٠٠٠ (ألف) راجل وضربوا عليها، وقتلوا من وجدوا من المسلمين، كما أسروا وغنموا. هذا، كما أغاروا على حصن القصر (Aznal cásar) وغيره. «وانصرف العدو على طريق لبله (Nie bla) موقورون، والمسلمون بين أيديهم مأسورون»- الأمر الذى يعنى هيمنة وغلبة تامة على منطقة الغرب.

والظاهر أن صاحب قشتالة الفونس المعروف بـ «أذفونس الصغير» وأيضاً «بالسليطين» رأى أن الفرصة مواتية للمشاركة فى اقتطاع أراضى المسلمين، فخرج إليها بجمعه الذميم- وهو طامع فى الاستيلاء على بلاد

الأندلس- التي ظهرت وقتئذ وكأنها «أضحية» الأيتام في مأدبة اللثام- كما نرى. وفعلاً وصل وفد قرطبة- المهددة في الصميم- إلى أشبيلية يعرفون أن الفونس بن شانجة، ملك قشتالة وطليلة، قد وصل بجموعه لحصار قرطبة، فارتفع السعر بها إرتفاعاً عظيماً.

ومن بعد ذلك أتت الأخبار تترى بنزوله عليها، وهو ما حدث فعلاً في ٤ من صفر ٥٧٨هـ / ١٠ يونيو ١١٨٢م، حيث نزل بالقرب منها. وحوز قرطبة حيث استقر السليطين، أخذ يشن غاراته إلى جهات كل من مالقة ورندة وغرناطة. «فغلا السعر لذلك وعظمت الضيقة»^(١).

وأمام هذا الخطر الداهم على مركز القلب من الأندلس، اتخذ ابن وانودين الإجراءات المناسبة لضبط العاصمة أشبيلية والبلاد المجاورة لها، «وشدها بالرجال»، ومثل هذا حدث بفحص قرمونة (Carmona) حيث أمكن دفع بعض ضرر النصارى هناك. ومع الإشادة بعزم أبى عبد الله بن وانودين وحزمه، كما يقول ابن عذارى: «كانت خيل العدو تجول يميناً وشمالاً في اكتساح وتدمير».^(٢) الأمر الذي كان ينبئ عن سوء المصير.

ومن ثم نازل العدو استجه ولازمها حتى نقب سورها، وكاد أن يتغلب عليها، لولا حافظها (محافظها): أبو محمد ابن طاع الله «الذى ثبت الله قلبه، وثبت أقدام المسلمين». وهكذا، كان على العدو أن يقلع عن حصار استجه في يوم الخميس ١٣ من صفر سنة ٥٧٨هـ / ١٩ يونيو ١١٨٢م. ومع ذلك بقي العدو في المنطقة يلح عليها بالإفساد والتدمير. وفي خلال ذلك نجح في الدخول إلى بعض حصون رونده (Ronda) بغدر يهودى دلهم على عورتها، كما تقول الرواية. ومن ذلك الحصن أخذوا ١٤٠٠ ألفاً وأربعمائة نسمة) من: رجل إلى امرأة. هذا، كما أحرقوا الزروع بنظر

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١١٨، وانظر ابن خلدون، ج ٦ ص ٤١.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١١٨.

الجزيرة الخضراء ورندة.^(١)

وفى نفس هذه الجولة، تغلب العدو فى ١٧ صفر/ ٢٣ يونيو على حصن سنتفيلة والمنار (Santafile y Ilmanar) على ما كان عليه من الامتناع والارتفاع، الأمر الذى زاد من طمع العدو فى الاستيلاء على غييره من الحصون. حتى أن الفونسو المعروف بالصغير أو السليطين قال لأقماطه (كونتاته) حين أخذ سنتفيلة، التى أسر فيها ٧٠٠ (سبعمئة) من الرجال والنساء: «الآن أخذ قرطبة وأشبيلية»^(٢) - هذا، ونحن فى قلب العصر الموحدى، عصر العظمة الإمبراطورية: ابن عبد المؤمن. والحقيقة أنه كان هناك نظام لفداء أسرى تلك الحروب على المستوى العام والفردى، سواء على المستوى الرسمى حيث تقوم الدولة بدفع الفدية عن طريق التفاوض أو على المستوى الشعبى حيث كانت للفداء مؤسساته الخيرية وهكذا، وقع فداء أسرى سنتفيلة على أهل أشبيلية الذين دفعوا ٢٢٧٥ (ألفين وسبعمئة وسبعين وخمسة) دينار، دفع منها ابن زهر (الفيلسوف الطبيب ١٠٠ (مائة) دينار والباقي جمعه الناس بالمسجد (الكبير).

والمهم أن العدو القشتالى الذى كان يطمع فى الاستيلاء على كل من قرطبة وأشبيلية، أراد أن يجعل من سنتفيلة أسفينا يدقه فى منطقة القلب هذه من الأندلس - فبدأ بتحصين المدينة، وجلب إليها السكان النصارى والأقوات، وقواها بالعدد والآلات. ثم أنه أسكن فيها ٥٠٠ فارس و ١٠٠٠ راجل عاهدتهم على حمايتهم وإعانتهم، وأقلع إلى بلاده فى ١٣ ربيع الأول ٥٧٨هـ/ ١٨ يوليئ ١١٨٢م، بعد أن دوخ أقطار الأندلس مدة ٤٥ (خمسة وأربعون) يوماً.^(٣)

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١١٩ وانظر ابن خلدون ج ٦ ص ١١٩.

(٢) ابن عذارى، ص ١١٩.

(٣) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١١٩، وانظر ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١.

رد فعل مناسب للتحدي القشتالي إسترجاع سنتفيلة

لما تحقق المسئولون فى أشبيلية من انصراف العدو القشتالى إلى بلاده
اتفق الرأى بين الموحدين على منازلة سنتفيلة والتخلص من خطرهما الداهم
فى التو والحين.

وهكذا استنفر السيد أبو إسحق ابن الخليفة أبى يعقوب والى أشبيلية،
الأجناد (المرتزقة) والحشود (المتطوعة) من بلاد الأندلس برسم الجهاد.
وعندما اكتمل الاستنفار خرج بهم من أشبيلية فى أول ربيع الثانى سنة
٥٧٨هـ / ٤ أغسطس ١١٨٢م. والظاهر أن والى أشبيلية ومجلس حربه،
كانوا يرصدون تحركات حامية سنتفيلة القشتالى خارج المدينة، فدبروا
مفاجأة عسكرية وهم يغيرون على بعض جهات قرمونة وغيرها، فاتبعوهم
والتقوا بهم، وهزمهم، وقتلوا منهم ٧٠ (سبعين) فارساً، وأسروا آخرين،
إستاقوهم مكبولين إلى السيد أبى إسحق الذى ضرب رقابهم فى الطريق.

ثم إن الموحدين عادوا ليضربوا الحصار على سنتفيلة، ومع تشديد
الحصر وطول الوقت، ضاقت حال المحاصرين خلالها، فعدموا الشعير لعلف
دوابهم فقدموا لها القمح بدل الشعير، فمات أكثرها. وظل الحال على هذا
المنوال إلى ٦ جمادى الأولى / ٨ سبتمبر ١١٨٢م عندما وصل الخبر (عن
طريق الجواسيس) بخروج إذفنش من طليطلة نجدة لأهل سنتفيلة. وهنا
أقلع السيد أبو إسحق مع رجاله من الموحدين عائداً إلى أشبيلية، بعد
حصار ناهز الأربعين يوماً^(١).

والمهم أنه بعد أن وصل ألفونس الثامن بعد ٤ (أربعة) أيام، خرج إليه
إخوته من سنتفيلة فى مشهد حزين.

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١١٩-١٢٠ (حيث دام حصار سنتفيلة ٤٦
يوماً)، وقارن ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ٢٤١ (حيث نازل الحصن نحو من ٤٠
يوماً).

وذلك أن الـ ٥٠٠ (خمسمائة) لم يبق منهم إلا ٥٠ (خمسون) حيث مات الباقون بالقتال والوباء. أما (الألف) رجل من السكان فلم يبق منهم إلا ٦٠٠ (ستمائة). وهنا لم يكن أمام الملك القشتالي إلا الأمر لهم بالرحيل عن سنتفيلة، فكان إخلاؤها في ١٥ جمادى الأولى / ١٧ سبتمبر.^(١) فكان التوازن قد عاد بين القوتين القشتالية والموحدية بعدما أصابه من الإختلال سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م.

(١) ابن عذاري، الموحدون (هوشى)، ص ١٢٠.

قلق في منطقة معدن النحاس الأبيض بمدينة داي قرب السوس الخليفة أبو يعقوب يوسف يقود حملة لقطع المناقبين عن المعدن

المعروف عند الإدريسي، ورث بطليموس في علم الجغرافيا، وكبير الجغرافيين المسلمين، وغير المسلمين في أوج العصور الوسطى وحتى مطلع العصر الحديث، كما هو معروف، أن جبال أطلس في منطقة داي، على بعد مسيرة (الأربعة) أيام من عاصمة السوس العريقة أغمات، مشهورة «بمعدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس بمشارك الأرض ومغارها». ومن المهم التركيز هنا على أن الإدريسي يصف هذا النحاس قائلاً: «وهو نحاس حلو، لونه إلى البياض، يتحمل التزويج (التطعيم)، ويدخل في لحام الفضة. وهو (أيضا) إذا طرق جاد (تحسن) ولم يتشرح، كما يتشرح غيره من أنواع النحاس»^(١).

ومن المهم الإشارة كذلك إلى أن الإدريسي ينص على أن «هذا المعدن (المنجم: في مدينة داي على مرحلة من تادلة) ينسبه القوام إلى (بلاد) السوس (الأقصى)، وليست مدينة داي من بلاد السوس لأن بينهما مسافات أيام كثيرة»^(٢).

والحقيقة أن نص بيان بن عذارى؛ والذي يرجع إلى ابن صاحب الصلاة، الذي ترجع معلوماته إلى شهود العيان، يؤكد حقيقة أن ذلك المعدن المذكور أنه «في جبل السوس» ويقع «على مقربة من بلاد هرغة»^(٣)، ببلاد المصامدة بالامتياز، قبيلة محمد بن تومرت المعروف بالفقيه السوسي (ج ٥). وتؤكد رواية الإدريسي، أن نحاس ذلك المعدن (المنجم: الأبيض) كان نافعا، «يحمل إلى سائر البلاد، ويتصرف به في كثير من

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، النسخة الكاملة (٢ مجلد ص ٢٤١).

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق (النسخة الكاملة، ص ٢٤١ - حيث تحديد المسافة بين

أغمات وبين داي وتادلة ٤ (أربعة أيام).

(٣) ابن عذارى، الموحدون (هوشي)، ص ١٢٠.

الأعمال»، على عهد الأدرىسى، قبل سنوات عديدة، من الفترة التى تناولها الآن من سبعينيات القرن السادس الهجرى/١٢م. يفهم ذلك من نص ابن عذارى فى بيانه، حيث القول: «لما صح عند أمير المؤمنين (يوسف) ان المعدن (المنجم) الذى بجبل السوس، على مقربة من بلاد هرغة (قبيلة محمد بن تومرت المصمودية)، «قد أخرج منه شئ كثير لم يعهد من قديم الزمان»، بمعنى الوفرة فى الإنتاج منه، تبعاً لحاجة السوق، حسب مصطلحنا الحديث.

ولما كان ما يستخرج من باطن الأرض، سواء كان من المعادن أو من اللقايا من كنوز الذهب أو الفضة وما شابهها هو من حق ولى الأمر (أو الحكومة)، كان ينبغى على المستغلين للمناجم أن يدفعوا للدولة مستحقاتها مثلة فى نسبة، ربما بلغت النصف من قيمة المستخرج.

والذى يفهم من النص أن المستخرج على عهدنا هذا، «يعهد (مثله) من قديم الزمان» يعنى أنه لم يكن له قيمة ذات بال، فالواضح من النص أن الدولة لم تكن تهتم به، ولم تكن تطالب المستغلين بما عليهم من حق الدولة، أى حق الأمير ولى الأمر، حسبما يقول النص: «وظهر أهل هذا الجبل بما تحصل فى أيديهم منه واغتصبوه لأنفسهم بغير حق منه للخليفة»، الأمر الذى ترتب عليه تجهيز العساكر، لاستخلاص ما للأمير غضباً إن لم يكن طاعة ورضى من جانب المستفيدين وحدهم، أو المستغلين.

وتم حشد العساكر الذين ربما كانوا من جند الخليفة الخاص أو «الحرس الملكى» فى مراكز العاصمة، وفى يوم أول صفر سنة ٥٧٨هـ/٦ يونيو سنة ١١٨٢م.^(١) كان الخروج فى اتجاه مدينة داي حيث منجم النحاس الأبيض، مما سبقت الإشارة إليه.

وواضح من رواية ابن عذارى أن الحملة تأديبية عسكرية، بقدر ما كانت

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١٢٠.

تنظيمية إدارية. وذلك أن أول ما فعله الخليفة يوسف، هو «النظر في بناء حصن عليه، وأسكنه بالأجناد واستعد لتحصينه غاية الاستعداد»، بمعنى تنظيم الجباية وفرض دفع المستحقات من قبل المستغلين. ولما كانت جباية الأموال هي عصب تراتيب الدولة، وإقرار نظمها على كل المستويات، وخاصة الجهادية منها، لم يكن من المستغرب، أن يقوم أبو يعقوب يوسف بالزيارة الروحية لتينملل، مقر وفود كل من الإمام ابن تومرت: شهاب الدين، وخليفته عبد المؤمن: سراج الموحدين^(١)، وأظهر يوسف الإيحاء إليهما، وأسكب عبراه عليهما. وعندما عاد إلى مراكش أمر وفود الأندلس أن يسيروا من هناك إلى زيارتهما^(٢). حيث نقل نص ابن صاحب الصلاة الذي يقول: وكنت في وفد أشبيلية، فزرت القبرين الملازمين بتينمل مع أبي بكر بن زهر، وأبي الوليد بن رشد، وأمر طلبة الحضر أن يرثوهما، بذكر وافر فضائلهما ومآثرهما، فكان من قول أبي مروان بن خالد:

فيا روضة المهدي حل بك الهدي وسر مع الأيام ليس يحول
أحقاً أمير المؤمنين إمامنا محال القمر الذي منه أقول
فطوبى لأرض حل فيها إمامه وللهم هدى هـا واخليل
وإلى جانب القبرين اللذين كانت تزهو بهما تينمل، واللذين سيلحق بهما قبر أبي يعقوب يوسف، كانت تينمل تتطور إلى ما يمكن أن يجعلها نظيرة للمدينة المنورة، بالنسبة لجماعة الموحدين، وعلى وجه الخصوص لمصامدة السوس. وإلى جانب القبرين كانت تينمل تزهو وقتئذ برابطتيها العريقتين في جبل إيجليز غير بعيد من الغار، فكانت إحادهما تسمى «رابطة وانسرى»، والأخرى «رابطة الغار».

وترسخت قداسة الرابطتين «منذ كان الناس يأخذون التراب منهما

(١) ابن عذارى، الموحدون، ص ١٢٠.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٢١.

فیتبرکون به ویجعلونه علی المرضی»، فكانه ماء زمزم، فی الحرم
المکی. ^(١)

(١) ابن عذاری، الموحدون، ص ١٢١-١٢٢ .

كفة الصراع في الأندلس تقيل إلى صالح الموحدين

لاشك أن استرجاع سنتفيلة بعد أزمة سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م، المشكلة في غارات قشتالة والبرتغال على مراكز القلب في الأندلس، في قرطبة وأشبيلية، بل وتمدها في الغرب إلى أقصى الجنوب حتى نظر الجزيرة الخضراء ورُنده، كان انجلاء العدو عن سنتفيلة علامة مبشرة لاستعادة الأنفاس، ومواصلة الصراع واستمرار عملية الإنقاذ الموحدى في الأندلس، التي تمثلت في نظر الخليفة يوسف للموحدين بالأندلس، بتقوية عزمهم، وإعمال جدهم وحزمهم، وأمرهم بالصبر^(١). وزاد العزم فعلاً بعد إقرار الأمور في قلب الوطن، في داي والسوس، ومن ثم المزار الكريم في تينملل حيث الروضة المكرمة وقبر الإمام شهاب الدين وصاحبه الخليفة سراج الموحدين.

وهكذا، في هذا الجو الموحدى، المفعم بالثقة في الله وفي أهل التوحيد، نظر رجل الدولة الكبير (أبو عبد الله) ابن وانودين، في استئناف الغزو بعيداً في قلب أراضى العدو تأديباً وترهيباً الأمر الذى كان يؤدى مع صدق النيات، إلى أحواز « طليطلة » كان أمنية الاسترجاع. وكان النظر في الجهاد يعنى إعداد العدة للحرب والقتال، من: حشد الأجناد وما يلزمهم من أدوات الحرب والمؤن والعتاد. ومن ثم كان التحرك من أشبيلية الحاضرة بالعسكر في ٨ جمادى الثانى سنة ٥٧٨هـ / ١٠ أكتوبر ١١٨٢م، فى نهاية الصيف وفترة إقبال الخريف قبل الشتاء، وبصحبة ابن وانودين: الموحدون وأشبياخ الأندلس. والظاهر أن يكون خروجه مفاجأة العدو، فسلك غير الطريق المعتادة، والمؤدى إلى حصن بشة (النسوب لابن سعيد الخير). وهناك تم عرض العساكر « فوجد فيهم عدداً وافراً، فسرّه ذلك »، وأسعده. وبعد إنعقاد مجلس الحرب الاستشارى، تمت الموافقة على أن تكون طلبيرة هدفاً لغاراتهم وثاراتهم.

واستمرت المسيرة مدة ٣ (ثلاثة) أيام، وقد ستر الله البعث بالضباب والغيم حتى خفى على النصارى وصوله، وهو الأمر الذى يفسر كيف بدأت المسيرة فى أعقاب الصيف مع إقبال فصل الخريف. ومقربة طلبيرة إلتقوا بسرية مكونة من ٢٠ فارساً من النصارى، فقام قوامهم وأخذوهم، باستثناء دليلهم الذى فرّ عائداً إلى قواعده، وهكذا، فعندما اقترب المسلمون من ضفاف وادى تاجه لم يجدوا شيئاً مما كانوا يقصدونه من المغنم والأنعام، وعندئذ عرفوا أن ذلك الفار (الدليل) قد أعلمهم بخبرهم، وكشف عن أثرهم.

فأزعجوا (أسرعوا) فى السير إلى قرب طلبيرة: هدفهم. وهناك «أغاروا على ما وجدوا من المغنم فى فحوصها، وساروا على تعبية، وترتيب... حتى وصلوا طلبيرة المذكورة، فى منتصف جمادى الآخرة/ ١٦ أكتوبر ١١٨٢م. وفى الغد كانت الغزوة فى الأعداء، إذ نزل المسلمون فى ربوة مرتفعة، على بعد ميل من المدينة. ودهش الأسبان (النصارى) وتعجبوا لما عاينوه من الإقدام عليهم... «وكانوا منذ سبعين سنة لم يروا مسلماً فى تلك الأرض، إلا إن كان مأسوراً»^(١).

وعندئذ اجتمعوا كلهم: من البلد والحصون المجاورة، وخرجوا إلى الربوة المذكورة. وهنا تنتهى المغامرة الموحدية فى قلب بلاد قشتالة سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، إذ: أفلح المسلمون منصرفين بما كان بين أيديهم من المغنم والأسلاب، والأعداء القشتاليون فى إتباعهم لمسافة تقدر بحوالى ٨ (ثمانية) أميال. وكانت مسيرة غريبة أشبه بحفل كرنفال تنكرى، كما نرى. فلم يخرج جميع أهل طيرة، ولم يبق فى المدينة شيخ ولا صبي إلا خرج، ومعهم القسيس يحرضهم على القتال، وليضمن لهم النصر والظفر. وابن وانودين (أمامهم) يقدم أصحابه ويعظهم بما لهم عند الله من الأجر والثواب على الجهاد. «وهو مع ذلك يطاول مع النصارى المقاتلة، ويقطع

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٢٢ - ١٢٣.

الأرض ليسخرج من قُرب بلادهم»، إلى أن نزل قُرب جبل يستترهم، وقال:
«هذا موضع الحرب إنشاء الله».

والأمر المستغرب هو النهاية الغربية لتلك المسيرة العجيبة. فلقد توادع
الناس وعزموا على الجهاد... وحمل ابن وانودين والمسلمون على الكفرة.
حملة أصابهم الله فيها، فانهزموا وولوا أديبارهم... ومات منهم في الموضع
المذكور أزيد من عشرة آلاف بين فارس وراجل (دون ذكر للصبيان
والشيوخ)، وقتل فيها من اليهود نحو الألف... وامتألت أيدي المسلمين
من أسلابهم ودوابهم.^(١)

والمهم أن أمير المؤمنين يوسف بعد ما علم بذلك النجاح الذي حققه ابن
وانودين ورجاله في أرض العدو البعيدة سرّ بهذا الفتح غاية السرور. وإن
كان قد تغير على ابنه السيد أبي إسحق «في كونه لا يحضر تلك الغزوة
التي نسبت لابن وانودين، وهو من جملة قواد». هذا، كما «عاقب كل من
تخلف من الأجناد، وهجره وحُرِم من العطاء حتى تاب واستغفر».^(٢)

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٢٣.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٢٣-١٢٤.

أمجاد ابني وانودين وما قدموه من المفاخر لساداتهم الموحدين

وهكذا، حق لابن عذاري أو لمن نقل عنه، أن يختم ذلك النصر اللامع في طلبيرة، بالحديث عن مآثر ابني وانودين، وهما: أبو يعقوب يوسف بن وانودين وولده محمد.^(١)

وهكذا فرغم وجود الخليفة أبي يعقوب يوسف، بالعاصمة مراكش - بعيداً عن أشبيلية فإن بلاد الأندلس كانت قد بدأت تفيق من الضربات الموجهة التي كانت توجهها لها كل من البرتغال وقشتالة لمدنها العريقة، وحواضرها، مما كان يُعتبر من مواضع القلب الحساسة، والتي كانت تتجاوز قرطبة وأشبيلية أحياناً حتى أقصى الغرب والجنوب. هذا ولو أنه يمكن إعتبارها كردود فعل للحملات الموحدية البعيدة المدى والتي كانت تظل بلاداً لم ير أهلها عسكر المسلمين منذ ٧٠ (سبعين) عاماً وأكثر، مما سبقت الإشارة إليه .

هذا، وإذا كانت الأمور في مراكش التي غلت فيها الأسعار في النصف الثاني سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، كما انتشر المرض حتى اعتل الخليفة. فإنه (١) بيان ابن عذاري، الموحدون (هوشي)، ص ١٢٤ - حيث إنه: لم يتقدم أحد بالدخول في دولة التوحيد وهو أمير على قبيلته إلا يوسف هذا، وبه ضخم التوحيد وعظم فالفضل يرجع له إذ ساد قبيلته بخروجه لهذا الأمر العالي، وبذلك صار واحداً من كبار أهل خمسين، مع صغر سنه. هذا، كما عرف يوسف بنشأته الدينية الطاهرة وتضلعه في علوم الدين حتى إنه كان يعرض مصوباً مالك في مجلس عبد المؤمن. هذا كما عرف بأنه بطل شجاع، صلبه عبد المؤمن في غزواته وفتوحه (حركاته)، كما في فتح بجاية والمهدية وغيرها، كما كانت له إنتصاراته المشهورة، مع أهل شرق الأندلس سنة ٥٧٠هـ/٧٥-١١٧٤م، وهزيمته للنصارى في شنترين وفي حصن، بنج وحصن برجانة وقرمونة وتوصيله المسيرة لبطليوس، وإنقاذ الأسرى والغنم من بين يدي ألفونس في حصن الغلال، إلى غير ذلك من مناقبه. هذا، ولو أنه لم يسلم من السقوط من علاء «اذ طوب وأدب لسكانه حصن غافق من ثغور الأندلس، ومن ثم حددت إقامته في تونس، مما يأتي: هذا، كما سار وأن أبا عبد الله محمد فكان من كبار قواد الدولة ورجالها مثل والده العظيم.

يرجع الفضل لأطباء الأندلس الذين وفدوا عليه للعلاج، «إلى أن وجد الراحة»، فلاشك أن فترة الإبلال من المرض التى انتهزها الشعراء فى مدح الخليفة، كانت مناسبة لتحريضه على جهاد العدو أينما كان، بل تحريضه على المزيد من الفتوح التى تطمئن بها البلاد وتبشر بالمزيد من الرخاء. وهنا لبأس من الإشارة إلى القصيدة التى أنشأها أبو العباس بن عبد السلام، إذ قال يمدح الخليفة ويُهنئه ويحرض على المزيد من الانتصارات على الأعداء، قائلاً:

ستملك أرض مصر والعراقا وتحجى نحوك الأمم إشتياقا
ولولا عطف الإبلال كنا بنار الوجدن حترق إحتراقا

هذا، ولا بأس أن كان التبشير بفتح مصر فى مناسبة الإبلال هذه فى أواخر سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م، تعنى أن خلافة مراکش الموحدية كانت تنظر بعين الإشفاق إلى ما يجرى فى بلاد أفريقية البعيدة، وخاصة ما كان يجرى فى طرابلس من دخول الغز المصربين بقيادة قراقوش، قائد ابن أخ صلاح الدين، وتحالفه مع عرب المنطقة الهلالية، من بنى سعد، الذين كانوا يقلقون الخلافة الموحدية بمراكش، وهى التى كانت تعمل كل ما فى طاقتها فى اكتساب ودهم، بل وتهجيرهم إلى الأندلس، حيث كان يرى أبو يعقوب يوسف فى استقرار عرب إفريقية فى الأندلس، ليس بأولادهم ونسائهم فقط، بل وبأنعامهم أيضاً، هو الحل الناجح فى عملية الإنقاذ المغربية، التى كانت قد بدأت منذ أيام المرابطين، والتى كان يمكن أن تنتهى بالنجاح على عهد ورثتهم الموحدين، الذين لم يكونوا يطمحون فى إنقاذ الأندلس فقط من أصحاب الريفونكيستا (الاسترداد)، بل ومن المخاطر الوافدة من الترك فى أعقاب العرب الهلالية، الأمر الذى كان يؤدى إلى الطموح ليس فى فتح مصر وبوابة المشرق، بل والطموح فى فتح بغداد قاعدة العراق والمشرق الإيرانى التركى أيضاً.

وفى مقابيل الأفكار التى يمكن أن تعبّر عن فكرة الاتجاه إلى الدنيا.

والتكالب على حطامها بهذه المناسبة، يشير ابن عذارى إلى الأفكار المضادة مما يتمثل فى الزهد فى الدنيا والعمل من أجل الآخرة، حيث يسجل وفاة قاضى الجماعة بمراكش، وهو «أبو موسى بن عمران، والذي كان فريد زمانه ديناً وعلماً وأدباً» والذي كان من إنشاده وقتئذ: قبل وفاته:

دع ذكر دار قصدها أن تخربا وأعمل لدار ملكها لن يذهب^(١).

من شواهد الاستقرار فى أطراف الدولة الموحدية من أقصى المغرب الأندلسى إلى أقصى المشرق الطرابلسى، والذي يؤكد استقرار قواعدها الإمبراطورية، هو التوسعة التى تمت فى مدينة مراكش العتيقة وذلك فى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، لتكون جديرة بحاضرة الإمبراطورية الموحدية على الأيام الأخيرة التى تمثل قمة الذروة أو بداية تلك الذروة على عهد خليفة عبد المؤمن المؤسس الحقيقى للإمبراطورية، بل ابن تومرت المنظر لقيام تلك الدولة، وواضع قواعدها الأولى فى إيجليز هرغه وتينملل.

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٢٥- حيث النص أيضاً على أنه فى اليوم الذى توفى فيه القاضى أبو موسى بن عمران، ولّى مكانه القضاء: أبو العباس بن مضاء.

﴿ ١٢ ﴾

توسعة مراكش سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م الأسباب: ما بين الرجاء والخوف

واضح من الروايات التاريخية الخاصة بتوسيع مراكش هذا، فى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م^(١) وكما هو الحال بالنسبة للعواصم العريقة للدول الكبرى عبر العصور، أن نمو العاصمة هو تبع لنمو وتعاظم الدولة، حيث أن العاصمة أو المحاضرة هى قصر السلطان وبالتالي مركز الإدارة العامة، من: مدينة يمثلها القصر الأميرى مركز السلطنة، ودينية يمثلها المسجد الجامع حيث مقصورة الإمام (ولى الأمر: صاحب القصر)، وعسكرية تمثلها المحلة (مقر الحامية أو الحرس الأميرى- نواة القوات المسلحة، والتي ستتحول على عهد الموحدين إلى القصبة أو المدينة الأميرية التى تعسكر بها الحامية أو الحرس). ومن أهم مؤسساتها: ديوان الإنشاء (أو الرسائل)، وديوان الجباية أو المال، وديوان الجند أو العسكر ومن ثم ديوان العطاء، وما نشأ من دواوين أخرى مثل: دواوين القضاء والأشغال والحسبة والحبوس (أو الأوقاف).

والحقيقة أن مراكش عندما بنيت على عهد المرابطين فى سفح الجبل كانت مدينة بدوية من حيث الموقع ما بين الجبل والصحراء، وكانت بدوية مرة أخرى لكون بنائىها المرابطين كانوا من الجمالة أصحاب قطعان الإبل. فمراكش من هذا الوجه كانت أقرب إلى الواحة الصحراوية منها إلى البلدة الحضرية، رغم ما كان قد بدأ إقامته فيها من قصر الحجر (أو دار) وهو منزل الأمير الذى يدل اسمه على أنه متميز فى مراكش حينئذ، عن غيره من أبنية الطين أو الطابية، التى كانت تتميز هى الأخرى عن مضارب (١) الإدريسي مراكش ص: ٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦.

قبائل المنطقة من الأخبية والخيام أو حتى القباب.

ومن المهم هنا الإشارة إلى أنه لا ذكر لمراكش في مسالك البكري، وذلك في منتصف القرن الخامس الهجري/ ١١م. أما عن نزعة الإدريسي في منتصف القرن السادس الهجري/ ١٢م، فهو يذكر أن مراكش بناها يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م في وطاء من الأرض ليس حولها شيء من الجبال الا جبل إيجليز الصغير، ومنه أخذ الحجر الذي بنى به قصر أمير المسلمين على بن يوسف، وهو المعروف بدار الحجر، وتم البناء بالطين والطوب والطوابي المقامة من التراب. أما على أيامه فيذكر الإدريسي: «ومدينة مراكش في هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الأقصى، لأنها كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم وسلك جميعهم. وكان بها أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة. أما عن أزقتها فواسعة ورحابها فسيحة ومبانيها سامية، وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة».

ولما تغلب عليها المصامدة تركوا جامعها (جامع) يوسف بن تاشفين عطلاً مغلق الأبواب... وصنعوا لأنفسهم مسجداً جامعاً يصلون فيه (هو جامع الكتبية). ولما تغلب المصامدة على الملك قتموا الماء الجاري إليها، وصنعوا سقايات بقرب دار الحجر، وهي الحظيرة (القصبية) التي فيها القصر منفرداً متحيزاً بذاته، والمدينة خارج هذا القصر.

- ويقدر الإدريسي طول مراكش على عهده، بأنه أشف من ميل، وعرضها قرب ذلك. وعلى ٣ (ثلاثة) أميال منها نهر تانسيفت وليس بالكبير لكنه دائم الجرى، وإذا كان فصل الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقى ولا يذر.^(١)

وفي توسعة مراكش كنتيجة طبيعية لتوسع الإمبراطورية الموحدية، يقول ابن عذاري: «لما دانت لأمير المؤمنين (يوسف) المغرب والأندلس وإفريقية، وملك ملوكها... إلى أحواز طرابلس براً وبحراً، إنجلي الناس إلى مراكش (١) الإدريسي، نزعة المشتاق، ص ٢٣٤-٢٣٥، وقارن الاستبصار، ص ٢٠٨-٢٠٩.

من كل مكان، وتفاحروا في سكنائها... فصارت أوسع البلاد معاشاً
فأكثرها خلقاً، وأريجها تجارة، فضاقت بالناس، فلم يجدوا موضعاً للبناء
ولا محلاً للسكنى»^(١).

هذا إلى جانب أن الخليفة يوسف «كان قد أعد عدداً من القبائل، من:
هسكورة وشنهاجة أن يرحلوا من بلادهم إلى سكنائها بأهلهم وبنينهم
فامتثلوا ذلك»^(٢) وهو إذا كان يوسف قد حقق بتهجير بعض قبائل
شنهاجة إلى مراكش هدفين دفعة واحدة، أولهما تهديد بلاد شنهاجة
(القبلة) وثانيهما تأكيد عمليات التهديد في إفريقيا والدفء في
الأندلس، فإنه في مقابل ذلك كان عليه اعداد السكنى المناسبة للسكاجرين
الجدد، من شنهاجة وغيرهم»^(٣).

الشروع في التوسعة

هكذا كان وصول قبائل شنهاجة إلى مراكش سنة ٥٧٩هـ وشكواهم من
عدم وجود مكان ينزلون به، هو نذير تحول الحاضرة المغربية إلى مدينة
«كوزمبوليت ثانية» أى عالمية، كما يقال الآن. وهكذا نظر أمير المؤمنين
يوسف في ذلك، وأمر ابنه وولى عهده وخليفته/ السيد يعقوب
(المنصور)، بالخروج في أول ربيع الثاني/ ٢٤ يولييه ١١٨٣م، ومعه شيوخ
الموحدين، وعرفاء البنائين ينظرون تحت نظره حيث يكون الإتساع. وفي
نهاية هذه الرحلة الإستكشافية «إتفق رأيهم على زيادة مدينة متصلة من
جهة القبلة». وعندما رجعوا إلى الخليفة وعرضوا عليه ما اتفق عليه رأيهم
في إضافة مدينة جديدة إلى مراكش العتيقة، «فرأى رأيهم وأمضى
سعيهم»^(٣).

وهكذا بدأ العبيد والعاملون في حرفة البناء، من الرجال المختصين،

(١) ابن عذارى، الموحدون، ص ١٣٦.

(٢) ابن عذارى، الموحدون، ص ١٢٦، وقارن الإستبصار، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) ابن عذارى، ص ١٢٦.

بهدم السور القديم بجهة باب الشريعة. ومن ثم كان الإبتداء فى بناء أساس السور الجديد فى صبيحة يوم الإثنين ٢٥ من ربيع الثانى ٥٧٩هـ / ١٧ يوليئ ١١٨٣م واتصل العمل فى بناء ذلك السور مع بناء باب الشريعة مدة ٤٠ (أربعين) يوماً «حتى كمل، وجاء على ما قدر فيه وأمل»^(١).

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٢٦، انظر العمرى (ابن فضل الله) مسالك الابصار فى ممالك الامصار، ترجمة جزئية: عن إفريقية بدون مصر L' Afrique moins 'L'gypte ترجمة وتحقيق مع مقدمة و ٥ (خمسة) أشكال بمعرفة: جودفروا - (ديومبين، باريس، مكتبة الإستشراق: بول-جتنر، ١٩٢٧- ص ١٧٩- حيث مراكش على مسافة واحدة ما بين البحر والصحراء مقدارها ٤٠ ميلاً، وكثيرون تحدثوا عن إتساع منازلها، وامتداد منازلها، وعن القصور التى يملكها بنو عبد المؤمن، وأولادهم ومن يحيطون بهم من الجند وفى إتساع تلك المنازل أن الواحد لو صاح فى أولها على صاحبه فى آخرها لا يسمعه. الأمر الذى بين أنها مساكن قبلية فسيحة، أشبه بالرباع ذات الصحن السماوى فى غير مراكش من المدن العريقة. ودور مراكش الموحدية عند ابن فضل الله العمرى (نقلاً عن ابن سعيد) ٧ (سبعة) أميال. والمعروف أن بانيها يوسف بن تاشفين هو أول من بنى فيها دار (قصر) الحجر، وحوله بنى الناس مساكنهم. وفيما بعد كان يوسف: أبو يعقوب بن عبد المؤمن أول من وسعها، فهو الذى مدنها، وزينها وزاد فيها، وجلب إليها المياه وزرع فيها البساتين (البساتن). وصومعة مسجد الجاهل المسمى بالكتيبة، مبنية بالحجر، وارتفاعها ١١٠ (مائة وعشرة) أذرع. وعلى باب مسجد الجاهل توجد ساعة على ارتفاع ٥٠ (خمسین) ذراعاً فى الهواء، فى كل ساعة من النهار يقع ثقل وزنه ١٠٠ (مائة) درهماً، ويجرس بصوت عال يسمع من مسافة بعيدة. وتسمى الساعة المنجانة. وهى اليوم لا تعمل (العمرى، ترجمة (ديومبين) ص ١٧٨هـ ٣ حيث تشبه ساعة الكتبة هذه، من غير شك، ساعة المدرسة البوعنانية بفاس التى درس بقاياها أ. بل (A. Bel)، فى نقوش فاس الخطية، مع صورة فوتوغرافية ممتازة، والتى يضاف إليها عمل «كارا دى فو» (Carra de vau): مفكروا الإسلام، مع رسم تشكيلى، وكذلك لفيدمان wiedemann عن تقنيات العرب. هذا مع الإشارة إلى تقسيم حاجى خليفة (كشف الظنون ج ٢، ص ٦٩-٧٠) لأنواع الساعة، من البنجمات (البنكومات)، وهو الشكل القديم للبنجمة فى صبح الأعشى (ج ٥ ص ١٦٢) وحاجى خليفة يذكر من أنواع الساعات: الرملية، والمائية، والساعات الدائرية المتحركة بالعجلات التى تدور الواحدة منها فوق الأخرى. وإن كانت- ربما- بعد ذلك بقرنين.

والمهم أن مراكش صارت تفخر على عهد يوسف بن عبد المؤمن بقصورها الفاخرة، التي يقول ابن سعيد: أنه لا يستطيع وصفها، بل يكتفي بالإشارة: إلى أن كل واحد منها، مستقل بذاته، يحقق جميع أغراض سكانه، من: الحدائق والحمام والحظائر (الاصطبلات) والمياه، إلخ... فلا تحتاج امرأة من نساؤه إلى شراء شيء من الخارج. وحتى الأولاد لا يحتاجون إلى الذهاب إلى المدرسة، فليهم مدرستهم الداخلية. فسيّد البيت يخرج من الباب ممّطياً صهوة جواده، فلا تراه أية عين أجنبية يسير على الأرض^(١)، فلا يبقى من جديد في مراكش إلا على أيام يوسف يعقوب المنصور، وذلك في المدينة الملكية أو (القصبة) التي ستعرفها مراكش، وهكذا كانت الحاضرة مراكش تزدهر تحضراً وعظمة مع استمرار الأحوال الأمنية في ربوع الدولة الموحدية، واستقرار أحوالها الاقتصادية والحضارية بعامة.

(١) العمري، ترجمة ديموبين، ص ١٧٩.

﴿ ١٣ ﴾

القلق ما بين إفريقية والأندلس :

والحقيقة أن تأمين الاستقرار والتحضر كان رهناً بسيادة الأمن والسلام، قاعدة التقدم والرخاء، وهذا ما كان من الممكن أن يتحقق، إلا في ظل السلطان القاهر والعدالة بمعنى الإستقامة دونما إنحراف - وهى الأمور التى يلزمها ما يناسبها من الوقت والزمن: مادة التاريخ وكيانه.

وكان اضطراب الأحداث فى كل من جناحى الدولة الموحدية التى تطير بهما فى المشرق الإفريقى والمغرب الأندلسى حيث يجمع بينهما الصدر فى المغرب الأقصى والرأس فى مراكش الحاضرة.

القلق فى إفريقية «اضطراب بنى سليم»

وكانت بداية القلق فى إفريقية، حيث جرفت الأحداث فى النصف الثانى من سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م والى إفريقية السيد / أبا الحسن بن عبد المؤمن أخا الخليفة، وذلك فى صراعه مع العرب من بنى سليم، فى منطقة قابس. فلقد وصل القلق وعدم الشقة إلى قيام الحرب المكشوفة بين السيد/ أبى الحسن وبين بنى سليم. وعندما تأزم الموقف بعض الشئ أراد السيد أن يجرى بعض التحركات التشكيلية، كما يقال، فى ميدان القتال، فأمر لفرسان الموحدين من أهل الرايات أن ينقلوا من موضعهم فى الساحة المكشوفة، والتى ربما جره العرب إليها حيث يحسنون الطراد أو الكرّ والفر، بأسلحتهم الخفيفة، واللجوء إلى الجبل (جبل كسرى) للامتناع من العرب فى بعض نواحيه. والمهم أن نقلة الخيل صوب الجبل، أثارت خواطر عامة الناس من الرجالة، فظنوا أنها الهزيمة، «فتركوا أثقالهم ، وانكسروا منهزمين، دون قتال»، ومالوا عن السيد/ القائد الأعلى، الذى اضطر إلى اللجوء هو الآخر بمن معه من الحرس إلى الجبل، الأمر الذى أدى إلى

عطشهم مع مرور الوقت. وأمام شدة العطش قرر السيد أبو الحسن أن خير وسيلة للخروج من ذلك المأزق، هو الهجوم «دفعة واحدة» لاختراق صفوف العرب، الأمر الذي لم ينجحوا فيه، «فأحرق العرب بهم»، بل «وتقبضوا على السيد وعلى أصحابه». وكان للخبر الصعب وقع الصاعقة في مراكش، حيث شغل ذلك الحادث بال الخليفة وخطره، وغار بذلك غيرة علم بها باديه وحاضره... واتفق الجميع على غزو بني سليم وجهادهم وأخذ الثأر منهم.

والحقيقة أن المسألة لم تكن تستحق كل هذا الهم من الخليفة، فقد كان عرب إفريقية، وبني سليم منهم، يعرفون قدر الخليفة الموحدى، كما كانوا قد مارسوا الخلاف من قبل ودفعوا ثمناً باهظاً له. وهكذا لم يمس طويل وقت من ورود الخبر السيئ إلى مراكش فى ١٠ جمادى الأولى ٥٧٩هـ/أول سبتمبر سنة ١١٨٣م، حتى وصل الخبر الشار إلى مراكش بعد أيام، وذلك فى ٢ جمادى الثانى ٥٧٩هـ/٢٣ سبتمبر ١١٨٣م، يعلن النبأ السعيد بإطلاق السيد أبى الحسن من أيدي العرب، وذلك عن طريق فدية مالية «فى نفسه وأصحابه، وتأكيده ذلك بوضوئه إلى تونس، فانبسطت النفوس»^(١).

أصداء وهمية فى الأندلس لمصادر القلق فى إفريقية

نلاحظ أنه عقب أخبار اضطراب عرب بني سليم هذا، فى قابس سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م تدخل أبو يعقوب يوسف بنفسه فى أحداث الأندلس كما يقدمها هوشى فى نشرته لابن عذارى، بأخبار قابس وبني سليم فى إفريقية وكأنها نتيجة طبيعية لها. وذلك أن النصارى (الأسبان) خرجوا إلى بعض حصون المسلمين، فقطعوا كرومها وأشجارها وحرقوا زرعها... فبادر أهلها وأشياخها حضرة مراكش متضرعين إلى الله تعالى فى نظر

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٢٧- حيث كان تاريخ ورود خبر وصول السيد إلى تونس فى ٢ ربيع الثانى فعدلناها إلى جمادى الثانى لتستقيم الأحداث زمنياً.

الخليفة لهم... فأمر الموحدون بأشبيلية أن يحملوا إليهم الميرة... «فأمر الموحدون بأشبيلية أن يحملوا إليهم الميرة من الطعام والآلات... فجهزوا ٤ (أربعة) آلاف دابة بالميرة أوصلها إليهم أبو عبد الله بن وانودين (الإبن) بعسكر الموحدين، والأجناد إلى بلدتهم فحبسوا بعدد مآتهم ونشروا بعد وفاتهم». والذي نراه أن هذا تكرار لأزمة بطليوس (فى سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) قبيل تدخل الخليفة يوسف فى حملته إلى الأندلس، والتي أدت إلى استمرار إقامته فى أشبيلية لمدة خمس سنوات، مما سبق ذكره فى وقته.

والمهم هنا هو أن رواية ذلك الحدث فى سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م، تأتى كمقدمة للسطوة بشيخ كومية أبى زكريا بن حيون (وبابنه على) الذى كان مشرف تلمسان (جانبها)، والذي كان يخرج مكبولاً للحساب على عمله، ثم انتهى الأمر بإخراجه منفياً من الحضرة (مراكش) إلى بطليوس، بينما بقى ابنه فى السجن «إلى خروج أمير المؤمنين فى غزوته إلى شنترين (آخر غزواته)».

هذا إلى جانب هروب على بن محمد بن رزين من مراكش، وهو المعروف بالجزيرى (نسبة إلى الجزيرة الخضراء). والذي كان على مذهب الخوارج الأزارقة فى تكفير جميع المسلمين، واجتمع إلى قوم من العرب يقرؤن عليه مذهبه فأغواهم وشاع خبره ومذهبه، والذي لما توفى القاضى ابن الجلال بسبته، سيذكر مقتله أيام المنصور.^(١)

وهكذا تشابكت الأمور بين بلاد المغرب المراكشى (مراكش)، وبين كل من بلاد الأندلس (بكل عناصرها من عرب وبربر (بلديين)، وبلاد إفريقية بكل عناصرها من بربر (بلديين) وعرب (هلالية) وأتراك أغراب وافدين). وكل ذلك يعنى أن مسألة الدمج والتوحيد بين كل تلك العناصر، فى تلك

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٢٨- هذا كما توفى أبو بكر الحصار الأشبيلي فى سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م، (بسبته) والمشرق بإفريقية ابن مثن.

الدولة المترامية الأطراف لم تكن شيئاً هيناً أو سهلاً المنال. ولكنه كان على الخليفة الموحدى أن يتحمل تبعات الإمبراطورية، وكان على حزب التوحيد بكياناته الثقافية والمعنوية، أن يستمر فى مراحل التشكيل الوجدانية- فى ظل ظروف تلك السلبات الطائفية.

عود على بدء: يوسف وتقويم الموقف من جديد فى الأندلس بالإقامة فى نيابة أشبيلية

وهكذا صدرت الأوامر الخلافية بتمييز المجاهدين، من: الموحدين والعرب والقبائل والغز، وتم ذلك العرض فى يوم السبت ٢٥ جمادى الثانى/ ١٤ أكتوبر ١١٨٣م. كما صدرت الأوامر بعمل ١٠ (عشرة) مجانيق، وتم صنعها ومن ثم جرب رميها بالحجارة فى حضرة الخليفة يوسف. وذلك فى مكان التبريز (التدريب) ببساتين البحيرة خارج مراكش، فى حضور النظارة خلال الأيام المتبقية من شهر جمادى الثانية.

وبقدوم شهر رجب إرتحل من البحيرة إلى القصر الخلافى بمراكش، وكان دخوله من الباب الجديد فى مراكش، وهو باب الشريعة (مصلى العيد)، فكأنه كان حفل افتتاح ذلك الباب. فلقد عبر الموكب الملكى باب الشريعة، وقد تقدمه ماشياً على قدميه (ولى العهد) ابنه أبو يوسف يعقوب، يحيط به جميع البنين. وأقام فى القصر يفكر فى أمر الغز ويدبر شئون الحملة العسكرية.

والظاهر أن أخاه أبا يوسف بن عبد المؤمن والى مرسية، كان متهماً فى أشياء أخذت عليه، والظاهر أنه كان يخشى أن تكون الغزوة فرصة لمساءلته، فرأى أن يبادر بالمسير إلى الحضرة فى مراكش (فى نفس شهر رجب وقت الإعداد للحملة)، ووصل فعلاً إلى الحضرة مع جملة من أعيان ولايته (مرسية)، ولكنه لم يؤذن له بالدخول على أخيه أمير المؤمنين لما وصله عنه، وصَحَّ عنده، ثم أمره بعد ذلك بالدخول مع (الإخوة والأبناء)

السادات والموحدين. (١)

تدبير شئون الأندلس الإدارية

وكان من الطبيعي أن يكون تدبير شئون الأندلس الإدارية، وهو ما استغرق الجزء الأكبر من شهر شعبان، حيث صدرت الأوامر في ٢١ منه/ ٩ ديسمبر ١١٨٣م، بتعيين أبناء الخليفة الأربعة، حكماً لقواعد بلاد الأندلس. فلقد تعين السيد أبو إسحق (الأسنى) والياً على أشبيلية، أما عن قرطبة فكانت من نصيب أبي يحيى، وكان الذى سعى له فى ولايتها أبو الوليد بن رشد (الفيلسوف) الذى آل إليه القضاء. هذا وكانت غرناطة من نصيب أبى زيد، بينما آلت مرسية إلى أبى عبد الله. وكان عليهم المسير إلى ولاياتهم هذه، «كمقدمة لحركته الحافلة». (٢)

هذا وكانت ولاية المدن الكبرى أيضاً من إختصاص الأمير. وهكذا عزل أبو يعقوب يوسف أحمد بن محمد الحوفى عن قضاء أشبيلية، وعهد به إلى أبى المكارم بن الحسين المصرى، كما عهد بقضاء أغرناطة إلى أبى عبد الله الصقر. وكان على القضاة أن يصحبوا السادة المسافرين. هذا، «كما أمر الجميع المعينين للسفر مع السادة بالكسوة والزاد على مراتبهم وأقدارهم».

وهكذا تحرك الجميع للسفر إلى الأندلس فى ٢٧ من شعبان/ ٨ ديسمبر ١١٨٣م، بعد ما أمروا بالرفق فى المسير. (٣)

(١) ابن عذارى، الموحدون، (هوى)، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) ابن عذارى، الموحدون، (هوى)، ص ١٢٩.

(٣) ابن عذارى، ص ١٢٩.

ترتيب الحملة المتحركة إلى الأندلس

وفى نفس يوم ٢٧ شعبان/ ٢٨ ديسمبر كان عرض الحملة العسكرية، فحضر الموحدون، والعرب، والمتجددون، وصنفهم الخليفة على قدر طبقاتهم، وأمر بالجرى على سنن الحق فى ذلك.

وفى يوم ١٥ من رمضان/ ٢ يناير، تمت قسمة السلاح والخيال على طلبة الحضرة، وقدر لذلك ٢٤ (أربعة وعشرون) فرساً. هذا، كما أعطى خباء (خيمة) لكل ١٠ (عشرة) من الفرسان. وقمادى «هذا الإنعام والإحسان إلى شهر شوال» (يناير-فبراير).

وفى ٢١ رمضان/ ٩ يناير ١١٨٤م أخرجت البركة لجميع العساكر من الفرسان والرجال.

أما المسيرة فحدد لها يوم السبت ٢٥ من شوال/ ٨ فبراير ١١٨٤م. وكانت الحركة بعد صلاة الصبح وقراءة الحزب، كما جرت العادة. وهكذا اجتمع الناس واستعدوا للسير، حسبما أمروا ووعدوا.

وسار أمير المؤمنين يتقدمه علمه على الأرض مع الرجال المتقدمين لموكبه «على العادة من الترتيب». وكان ترتيب المركب يقضى بتقدم مصحف عثمان على جمل أبيض مرتفع وعليه كله قبة حمراء تصونه، وهو مرصع بنفيس الجواهر والياقوت^(١).

ويسير خلفه بنوه مع إخوته السادات، وتخفق فوق رؤوسهم الرايات مختلفة الألوان، وكان خروجه من مراكش على باب دكالة (شمال باب

(١) ابن عذارى، ص ١٢٩، وأنظر أيضاً عن مصحف عثمان، عبد الواحد المراكشى، ص ٢٥٣- حيث حجر الياقوت المسمى بالحافر، الذى جعلوه فيما كللو به المصحف- إلى اليوم (سنة ٦١١هـ) مع أحجار نفيسة. وحيث أن المصحف من نسخ عثمان، وإنه من خزان بنى أمية (فى الأندلس)، وأنه كان يحمل على ناقة حمراء... وخلف الناقة بغل محلى أيضاً، عليه مصحف آخر بخط ابن تومرت...

مسوفة العرائش^(١)، ومن الواضح أن مثل هذه الاحتفالات الكبرى كانت مناسبة للتشهير بالمتهمين بخيانة الدولة، وخصوصاً فى الأموال وللتأكد من وصولهم تحت رقابته والأمير شخصياً فى أى وقت ومكان.

وهكذا أخرج على بن يحيى بن حيون الكومى، ابن مشرف تلمسان السابق (أبو زكريا يحيى)، وهو مصفد بالحديد، وعليه رقباء الأمن يحرسونه ليلاً ونهاراً. وأثبتت الأحداث أن الرجل ابن عصبية عبد المؤمن، كان يمثل خطراً على أمن الدولة قبلاً، فما أن وصل إلى موضع تواقطين حتى نجح فى التحيل على رقبائه، إذ سقاهم الخمر، ولما أسكرهم كسر حذيده وفر على فرس أعطاه له أحد بنى عمه. وأنزل بالمستولين عن الحدث بالخيانة العظمى وأنزلت بهم العقوبات الرادعة، وكان مصير الرقباء من الحراس هو الموت بحد السيف، أما عن غيرهم من المتهمين فكانت عقوبتهم السجن.^(٢)

الوصول إلى رباط الفتح

مصير الحملة: إلى الأندلس أم إلى إفريقية؟

والمهم أن الوصول إلى قاعدة رباط الفتح العسكرية كان فى يوم الإثنين ١٣ من ذى القعدة/٢٨ فبراير ١١٨٤م وكان النزول فى مدينتها التى أطلق عليها اسم المهديّة^(٣) تيمناً بذكرى المهدي بن تومرت. ولابأس أن كانت مهديّة إفريقية الفاطمية هى التى أوحى بتسمية المهديّة هذه، على المدينة السكنية بسلا، قبل أن يغلب عليها اسم الرباط إختصاراً لرباط الفتح.

وبعد إقامة أسبوع أى فى يوم الإثنين ٢٠ من ذى القعدة/٧ مارس ١١٨٤م، ومع تباشير فصل الربيع، فصل الإعداد لمسيرة الصوائف (الغزوات الصيفية)، وصل من إفريقية وبلاد القيروان أبو محمد بن أبى (١) ابن عذارى، ص ١٣٠، وعن أبواب مراكش انظر، مسالك الأبصار للعمرى، ترجمة ديموبين الفرنسية، شكل ٤ ص ١٨٠-١٨١.

(٢) ابن عذارى، الموحدون، ص ١٣٠ وانظر ما سبق.

(٣) ابن عذارى، ص ١٣١.

إسحق بن جامع، أحدًا قواد أسرة بني جامع التي تخصصت في الخدمة العسكرية البحرية وقيادة الأساطيل فيسما بعد، بجملة (فريق) من الفرسان. وعندما دخل على أمير المؤمنين يوسف، «سأله عن أحوال العرب المنافقين الجهاد»، فعرفه ابن جامع «أن إفريقية في نهاية العافية». ولكن العرب عندما سمعوا بالحملة فروا بأهلهم، «فلا يتقى بأسهم ولا يفارقهم نكمتهم»^(١)، فكان الأوضاع في إفريقية لم تكن مطمئنة تماماً بالنسبة لإضطراب عرب إفريقية، المعول عليهم بالنسبة للموحدين- ليس في المشاركة في الجهاد بالأندلس، بل الاستيطان فيها، الأمر الذي يحى الأمل في مواجهة «الاسترداد» الأندلسي «بالاسترجاع» الموحدى المغربى. وفي هذه الظروف غير المطمئنة، ظاهرياً على الأقل، أمر الخليفة بحضور شيوخ الموحدين والعرب والقواد، وعندما حضروا لم يخرج إليهم الخليفة بنفسه- الأمر الذى قد يعنى نوعاً من عدم الترحيب، إذ بعث إليهم ابنه السيد أبا يوسف (المنصور) مع شيوخ الموحدين ليقول لهم: «إن سيدنا أمير المؤمنين يقول لكم: أنتم قد وصلتم واجتمعتم، وهو يستشيركم فى هذه الحركة (الحملة): إما لإفريقية وإما للأندلس، كل واحد فيكم بمراة»^(٢)- فكانه يترك لهم الحرية فى تقرير مصير الحملة إما لإفريقية أو للأندلس- وكان الأمر لم يتقرر بعد. وكان على أصحاب النباهة من كبار القواد والشيوخ أن يقرروا أن تبقى مسيرة الحملة المقررة سلفاً إلى الأندلس هدفها الأول، إذ «قالوا بلسان واحد: ليس أملنا إلا فى غزو الكفار بجزيرة الأندلس»، فما كان من الخليفة عندما عرف ذلك- إلا أن حمد الله «على نعمه الكاملة وآلائه الشاملة»^(٣). فكان مجلس عموم أهل الشورى هو الذى أعطى الشرعية لمسيرة الجهاد فى الأندلس.

(١) ابن عذارى، الموحدون، ص ١٣٠.

(٢) ابن عذارى، الموحدون، ص ١٣٠.

(٣) ابن عذارى، ص ١٣٠.

كلب العدو البرقغالى ينادى بالجهاد فى الأندلس:

والحقيقة أن الخبر كان قد وصل قبل أيام من الأندلس بأن العدو الغادر نكث العهد ونازل بحصن حصون المسلمين، الأمر زاد من غبطة الناس بالإقبال على جهاد الأعداء. وهكذا تم الجواز على قنطرة بحر سلا فى ٢٨ من ذى القعدة/ ١٥ مارس ١١٨٤م، وكان جواز الخليفة، آخر الناس، فى ٣٠ من نفس الشهر، وتنادى السير إلى مكناسة حيث كان الوصول فى ٦ من ذى الحجة/ ٢٢ مارس ١١٨٤م. وحيث كان تعبيد الأضحى فى بستانها الكبير فى ٢٦ مارس ١١٨٤م. ومن ثم كان الرحيل إلى فاس فى ١١ من (ذى) الحجة/ ٢٧ مارس، والمتاخمة للأشبونة (لشبون)، فوصلها الأريعاء ١٣ ذى الحجة ٢٩ مارس ١١٨٤م حيث نزل البستان (البحيرة)، وارتاح ٣ أيام، وهو يستفهم عن أحوال البلد ويختبر العمال ويوقع العقاب بالخونة منهم.

وتبين العقوبات التى أنزلتها محكمة التفتيش الإدارية هذه، تحت إشراف الخليفة، أن أبا يعقوب كان قاضيا صارما، كما تبين فى نفس الوقت أن مدينة فاس، وهى المرفهة على طول العصور، كان يصعب عليها الالتزام، بالآداب الصارمة التى تنادى «بحركة التصحيح الموحدة، وخاصة فيما يتعلق بالتقشف والبعد عن المنكرات الخارجة» ما كبر منها وما صغر، وما يترتب على ذلك، بداهة، من الخيانة فى المال العام.

والحقيقة أن الخزانة العامة فى حاجة ماسة دائما إلى المال، وخاصة من أجل ميزانية الدفاع التى كانت تتزايد مع تزايد عدد الأعداء والخصوم، كلما اتسع التراب الوطنى فى إفريقية، ومع زيادة نفقات الجهاد اللازمة لإقرار الأمن فى الأندلس. هكذا تم الإيقاع - بعد أيام قليلة من الوصول إلى فاس بمشرفها (مشرف الجباية): عبد الرحمن بن يحيى، وذلك أنه كان قد صحت عنه خيانتة فى الأموال، بل «وحمله على الرعية وإذايته»، وكذلك الأمر بالنسبة لرجلهم المقرب إبراهيم بن عبد الله الجبانى، والذي يوصف من أجل ذلك «بالجاهل قدر نفسه». وهكذا، تمت مصادرة دورهم

(القبض عليها) أجمع في كل بلد ومكان، ومن ثم أكبلهم، وحبسهم في سجن أليم. وهكذا، استشرت عملية التفتيش عن الخونة في المال، وأسفرت عن القبض على ١٨ (ثمانية عشر) عاملاً. فكان المقبوض عليهم ٣ (ثلاثة) عمال، هم: المشرف العام: ابن يحيى والخازن على المال: الذهبي، والخازن على الطعام: الطرسوقى. وفي مكناسة تم القبض على المشرف (العام): ابن عاصم، وابن هود: العامل، وصاحب المدينة (المحتسب): ابن عمر.

هذا إلى جانب القبض على المشرف برباط تازا، صاحب ملوية: على بن مرزيان، وقاضى المعدن (بمدينة داي) وغير هؤلاء. والمهم أن أموال المتهمين صودرت (استؤصلت)، كما ردت ضياعهم (مزارعهم). للحكومة (المخزن)، بل وكذلك رباعهم (منازلهم الريفية) الكبيرة. ذلك مما كشف عنه من ممتلكاتهم، وبقيت بعدها ما طولبوا به من الأموال التي قاطعوها (إلتزموا بها) على أنفسهم، وقدرها ٤٦٠ (أربعمائة وستين) ألف دينار، تعهدوا بتقسيطها على أنفسهم، فأصبحت من جباية الدولة المعروفة بالتقسيط: فكانها من المال المعروف في نظام الإلتزام، المقرر نظير الجباية. وتم ذلك التقسيط بشهادة العدول، كما «جعل عليهم الرقباء حتى دفعوا المال المذكور»^(١).

وبطبيعة الحال فأمر المؤمنين كان مضطراً لاستخلاص تلك الأموال إستخلاصاً عنيفاً، فمصارفها كانت لا تتحمل التأجيل، والحملة الجهادية المأمولة لا تستطيع التوقف على باب المجاز.

الوصول إلى قصر المجاز: قصر مصمودة

وهنا يجب الإشارة إلى أن جواز القوات الموحدية من برّ العدو المغربية إلى برّ الأندلس، كان أمراً لا يعادله عبور قوات الفتوح الأولى، كعبور طارق بن زياد الذي أطلق إسمه على الجبل المقابل لجزيرة طريف، والذي

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١٣١.

تيمن به عبد المؤمن من جديد فسماه «جبل الفتح». والواضح تاريخياً أن تقنيات العبور كانت تتطور آلياتها بشكل سريع، بل، ومنذ البداية إذ نلاحظ أن عبور موسى بن نصير برجاله من فرسان ورجاله، من البر المغربى إلى عدوة الأندلس كان مختلفاً تماماً عن عودته من الأندلس إلى سبتة- حيث حمل سببيه وتحفه على ١١٤ (مائة وأربعة عشر) عجلة- كانت وافدة معه من الأندلس بطبيعة الحال (ج١ ص٢٣٥).

ومثل هذا كانت عملية الجواز الموحدة التى يشرف عليها الخليفة أبو يعقوب يوسف، وكبار مستشاريه، مسألة معقدة، تتطلب الكثير من الخطط والرسوم، وخاصة أن تشكيل العسكر كان يختلف نوعاً ما بين مصامدة السوس، ومن دخل فى خدمتهم من صنهاجة الصحراء، إلى جانب العناصر الأندلسية البلدية، ومن ثم عرب إفريقية الهلالية- وهم من فى حرابتهم فى الحركة وفى الكرّ والفرّ، على المستوى الشخصى كما على مستوى الجماعة والقبيل.

وهكذا أصدرت أوامر الخليفة يوسف، فى يوم الإثنين ١٨ (الثامن عشر)، بتقدم كل من قبيلة هنتاتة، وجماعة أهل تينمل، من مدينة فاس إلى قصر المجاز (قصر مصمودة) برسم الجواز إلى الأندلس. وبهذه المناسبة أنعم الخليفة على شيوخ العرب الذين كانوا قد وصلوا إلى رباط الفتح، أيام إمامته هناك إنتظاراً لبدء العبور، حيث «أنعم عليهم بالكسوة العجيبة، والبركات الرواتب الجزيلة». ورغم أن بقية النص يشير إلى أنهم كانوا قد «اشتروطوا على أنفسهم أن يحضروا لهذه الغزوة فى ١٣٠ (مائة وثلاثين) ألفاً بين فارس وراجل»، وهو العدد المبالغ فيه من غير شك، حتى لو كان الرقم ثلاثين ألفاً فقط- ونحن نجتهد فى تقويم الرقم من حيث الشكل فقط.^(١)

وأمر الخليفة ابنه السيد / أبا حفص بالمشى إلى شيوخ العرب ليتقدمهم
(١) ابن عذارى، ص ١٣١، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤١.

فى المسير إلى الجواز لبر الأندلس. وكان خروج الأمير الشاب على رأس العرب من فاس يوم ٢١ من ذى الحجة/٨ إبريل/١١٨٤م. هذا، كما تقدم أيضاً بعد السادات (الأمرء) على بعض قبائل الموحدین عند الجواز.

وبطبيعة الحال يتطلب الأمر «الكتابة إلى من بالأندلس من الولاة أن يكونوا على هيئة للجهد»، وأن يكونوا أيضاً على أهبة الاستعداد لاستقبال «هذا الجمع الحفيل غاية الاستعداد»^(١).

وبعد مسير المجاهدين من فاس إلى قصر الجواز من قصر مصمودة، كان على الخليفة أن يكون آخر العابرین. وتم ذلك مع دخوله سنة ٥٨٠هـ/ الذى كان مصاحباً لتمام الربيع، فكان الحملة التى بدأت من مراكش فى فصل الشتاء، قد صارت صائفة، فى فصل نضج المحاصيل، فصل الوفرة فى الغذاء والفاكهة، فترة الوفرة لطعام الأغنام والماشية- وكل هذا كان من مشهيات حرب الطوائف.

والمهم أن الخليفة أبو يعقوب تحرك من مدينة فاس يوم الثلاثاء ١٤ (الرابع) من المحرم/ ١٨ إبريل/ ١١٨٤م فى مركبه المعتاد، والعلم الأبيض يرفرف عليه وأبناؤه السادات وإخوته يحيطون به، إلى أن وصل سبتة حيث أقام بقية المحرم والأيام الأولى من صفر، حيث كان عبوره فى اليوم ٥٥ (الخامس) من صفر/ ١٩ ماية ١١٨٤م، فكان نزوله بجبل الفتاح، من حيث كانت المسيرة إلى الجزيرة الخضراء فى اتجاه أشبيلية التى وصلها فى ١٣ من صفر ٥٨٠هـ/ ٢٧ ماية ١١٨٤م.^(٢)

وخرج أهل أشبيلية لاستقباله، وعلى رأسهم شيوخ الأندلس من العلماء والفقهاء. وفى تقدير أبى يعقوب يوسف للعلم، يذكر له أنه عندما «أبصر ابن الجد يسرع فى مشيته ليسلم عليه، ترجل عن فرسه وتلاقيا، فترامى ابن الجد على يد أمير المؤمنين، وقبلها ومسح بها وجهه، وقال: الحمد لله

(١) ابن عذارى، المرابطون (هوى)، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) ابن عذارى، ص ١٣٢، وقارن ابن خلدون، ص ٢٤١.

الذى جمعنى بك يا حبيبى وحبيب الناس...» وقابل الخليفة كلام ابن الجد بابتسامه (رضى على ما يظن)، وذلك أن بقية النص يقول: «وهذا من تواضعه (يوسف) وفضله». وتستمر رواية البيان التى تعتبر اختصاراً لمن صاحب الصلاة، الذى يقول بالمناسبة: «وكنت حاضراً فى يوم هذا اللقاء فسلمت عليه (يوسف) مع من تقدم من الطلبة إليه... ونزل- رضى - داخل البحيرة التى له بخارج باب قرمونة»^(١).

وفى اليوم التالى (١٤ من صفر) أمر بإخراج السلاالم والعدد، كما أمر بعرض (تميز) العسكر والعدد، وتوزيع جميع تلك الأسلحة والعدد على العساكر. أما عن أشياخ (رؤساء) الموحدين العرب والأجناد (المحيطين بالسادة أفراد الأسرة المؤمنية) فقد «قسم عليهم ١٠٠٠ (ألف) فرس من العتاق الجياد». وخلال تلك الفترة كانت عساكر الأندلس تتوافد على الحاضرة أشبيلية «من أقطارهم وأمصارهم». وإلى جانبهم أتى قائد البحر أبو العباس الصقلى بقطع بحرية من الأجفان الغزوانيات، وآلات الحرب البحرية والمعدات.

وهكذا كانت الأمور تسير حسب الخطة المرسومة للحشد من أهل الغزوة الفاصلة ضد البرتغال، ولم يعكّر صفوها سوى ما حدث فى ١٩ صفر/ ٢ يونيه ١١٨٤م من التنكيل بقائد الدولة الشهير: أبى عبد الله بن وانودين، مما سبقت الإشارة إليه. أما عن سبب تلك الوحشة بين الخليفة وقائد الدولة الكبير، فهو تأخر هذا الأخير فى الخروج لاستقبال أمير المؤمنين يوسف عند حلوله بأشبيلية، ذلك بسبب وعكة ألمت بابن وانودين. وكانت فرصة استغلها خصوم ابن وانودين وحساده من كبار رجال الدولة الذين «ضربوا فيه عند الخليفة، وقيل عنه (ابن وانودين) ما كان وما لم يكون، فأمر (الخليفة) بخروجه أسوأ خروج». والظاهر أن الخروج كان يعنى قعوده مشهوراً فى حالة مزرية، وهو الأمر الذى استمر مدة يومين، صدر الأمر

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١٣٢.

بعدهما بتغريبه إلى منطقة غامق على وجه التأديب. فخرج ابن وانودين وقد شاركه في العقوبة، رجل آخر من كبار الدولة، وهو: أبو زكريا يحيى بن الشيخ إبراهيم، الذي إتهم هو الآخر بالتخلف عن المبيت بالمحلة ليلتين، «فكانا خليليين إبتليا بيليتين»، كما تقول الرواية.^(١)

والذي نراه أن القاندين الكبيرين، ربما كانا متهمين- بدورهما- بالخيانة في أموال المغانم المعروفة باسم «الغلول».

أما عن مسألة محاسبة العمال على ما كان تحت إشرافهم من أموال الجباية، وكذلك محاسبة كبار القواد عن «الغلول» وعن الإهمال في أداء واجبات الاحترام لقرارات الخليفة وأوامره المتعلقة بالترتيبات الخاصة بالنظام العسكري في حملة الأندلس التي كانت تحت الإشراف المباشر لولى الأمر، هذا إلى جانب ولاية الأقاليم وخاصة في الأندلس، إنما كانت تعنى انتهاج سياسة جديدة، هدفها تشييت أقدام ملك أبي يعقوب يوسف، وتشييت أركان أسرته الملكية، تماماً كما حدث على عهد عبد المؤمن في الفترة التي ثار فيها إخوة المهدي، وما صاحبها من الاضطراب، مما اعتبر أيضاً بمثابة علامة استقرار لملك عبد المؤمن.

(١) ابن عذاري، الموحدون (هويش)، ص ١٣٢-١٣٣ وقارن ابن خلدون، ٢ ج- ص ٢٤١ .

التطهير الإدارى والتصفية العسكرية وأشارة لبدء الحملة الأندلسية فى أحوال مستقرة

وهكذا لم يتطلب الأمر أكثر من أسبوع قضاءه الخليفة يوسف فى أشبيلية لإصلاح الأمور الخاصة بالعسكر، إلا وبدأ التحرك لغزو العدو البرتغالى، وذلك فى صبيحة يوم الخميس ٢٦ من صفر ٥٨٠هـ / ١٢ إبريل سنة ١١٨٤م، والهدف المنشود هو مدينة شنترين (santarem)، الواقعة على نهر تاجه فى أقصى الغرب.

وكانت المسيرة من مرحلة (بنزل) إلى أخرى، والنزول بحصن العرجة (alarja) فى يوم الجمعة ٤ ربيع الأول. وكان الخروج منها، «وقد استكملت عليه (يوسف) العساكر من كل أفق (من الأندلس). وقد خرجوا فى أحسن هيئة، «وقد تزيا الجميع بأحسن الزى، وتبختروا فى المشى، وتوشحوا بالسيوف الهندية، والدرق اللمطية، والقسى الخطية» حتى وصلوا مدينة بطليوس حيث كان نزولهم.

وتم فى بطليوس وهى المدينة التى أصبحت ثغرية العرض الأخير للعساكر، استعدادا لأخذهم أوضاع الحرب والنزال، وذلك بلبس السلاح، وتحديد ما كان ينقصهم من الزاد (والعلف). ومن المهم الإشارة هنا إلى أن القائدين الكبيرين حيون الكومى، وإدريس بن جامع (مع طبيبه) كانا مغربين- تبعاً لسياسة محاسبة العمال التى استشرت فى دولة الإسلام إعتباراً من أيام الرشيد والبرامكة- فى كل من مدينتى بطليوس وماردة، فعندما عرفوا بالحملة إلى شنترين استأذنوا الخليفة فى المشاركة فى ذلك الغزو، فقبل يوسف فى التو واللحظة، «ومشوا فى جملة المجاهدين»^(١).

وكان الرحيل من بطليوس يوم الخميس ١٠ ربيع الأول / ٢٢ يونيه ١١٨٤م، وعندما وصل إلى وادى تاجه أمر الموحدين بالتقدم على طول

النهر حتى يقفوا على باب شنترين. وكان من المشاركين في المسير لحصار شنترين السيد أبو إسحق، الوالى على أشبيلية، وكان وصولهم إلى باب شنترين يوم الأربعاء ١٦ ربيع الأول/ ٢٨ يونيه ١١٨٤م.^(١) من الجبل، كان ويسبب الموقع الحصين لمدينة شنترين ما بين وادى تاجه والجبل، كان على الموحدین إستطلاع المكان واستكشافه: وأدّى ذلك إلى نزول الخليفة بجميع عساكره فى الجبل القريب الذى يطل على المدينة، بينما صدرت الأوامر للعساكر بالاستعداد لمناجزة أهلها والدفاع، فتأهبوا لذلك بينما إنحجز أهلها فى داخلها، وقد ملئت قلوبهم رعباً. وأمير المؤمنين فى داخل قبته الحمراء يحمس الناس بالتكبير والتهليل، والناس فرحون بذلك، وياتساع الأقوات، ورخيص الأسعار، إذ كان سعر الشعير: ١٢ مدا بدرهم، والقمح ١٥ مدّاً بدرهم.^(٢)

والمهم أن أهل شنترين انحصروا انحصاراً شديداً، حتى لم يخرج منهم أحد، كما هدم ربضهم المتصل بالسور، وأشعلت فيه النيران. وهكذا طمع المسلمون فى دخول المدينة حتى أمر النجارون بعمل السلالم الخاصة باحتلاء السور. وبات الناس على أحسن مبيت ليلة الجمعة ١٨ ربيع الأول/ ٣٠ يونيه ١١٨٤م. وفى صباح الجمعة أمر الناس بالتأهب لقتال أهل المدينة فى الأسوار. وأسفر القتال مع أهل المدينة عن تمكن الموحدين من الرّبض، وضغطوا على الفرسان منهم حتى «كانوا يترجلون عن خيولهم، ويطلعهم إخوانهم بالحبال من أعلى سور القصبه»، كما هدمت الكنيسة

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١٣٣، وقارن عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص ٢٥٧، وابن الأثير، ج ١١ ص ٥٠٥، وابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤١ - حيث مجرد الإشارة إلى حصارها.

(٢) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١٣٣-١٣٤ - حيث يقول ابن صاحب الصلاة فى منّه: لقد رأيت فى هذا اليوم ثوراً بيد عربى باعه بدرهم واحد. ولقد اشترت مع أصحابى بقرة سمينة بـ ٣ دراهم. وامتلأت المحلات على كثرتها وكبرها من البقر والغنم.

اللتان كانتا بأطراف المدينة البرانية التي انتهى الأمر بخرابها (١).

واستمر القتال من يوم السبت إلى يوم الإثنين ٢١ ربيع الأول/ ٣ يوليئه سنة ١١٨٤م، حيث دارت فيه «حروب وخطوب»، حتى «أمر الخليفة أن يرفع الناس أيديهم عن القتال، وأن يرحلوا من منزلهم، وينزلوا في منزل آخر»- فكان ذلك الأمر كان بداية الفشل في الغزوة. وما زاد في تشاؤم الناس. أن «كبا بابن الخليفة أبي إسحق فرسه واعتلت قدمه وتورمت في الحين، فكان يتصرف في أوامر أبيه على سرير من خشب، ويحمل على الأعناق»- الأمر الذي زاد في سوء الحال.

وكان صاحب الرواية يريد القول بعد ذلك، إن المصائب لا تأتي فرادى، عندما يضيف إلى ذلك أنه حدث في نفس ذلك اليوم (٢١ ربيع الأول) أن خرج عسكر أهل مرسية للإغارة على بسائط النصارى، فخرجوا عليهم، وانهزموا إلى المحلة، وأخذت من دوابهم ٥٠ (خمسون) دابة، وبيات الناس على حذر.

أما ما أبهت العقول حقاً في شنترين، فهو اختلال عقل خطيب الجماعة الذي كان يصلى بالخليفة، «عند رؤية شدة الحرب»، فركب فرسه، ودخل في عسكر النصارى مُستجيراً بهم- تَباً له من حدث مبك في الإسلام... ورغم أنهم (النصارى) عرفوه وفهموا مذهبه، فإنهم اتهموه وقتلوه». وساءت إثر ذلك أحوال القتال إذ استشهد جماعة من أعيان الموحدين، ومن

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٣٤- حيث التعليق على خراب شنترين هذا، بنبوءة الرجل الصالح: محمد إبراهيم حيث يدعو على شنترين في علته التي توفي منها، فقال:

يا شنترين ولا أنادى سامعاً ألقَ عليك بلاءها الاقدار
وتعبشت بجهاثها أعداؤها ومحا محاسنها البلى والنار
حتى أقول بنغممة يا بلدة لا أنت أنت ولا الديار ديار

وحيث تعليق الراوى: الذي ربما كان ابن صاحب الصلاة: ورحمه الله قائلها فلو كان حياً لرأى دعواه قد أجيب في هذا اليوم.

أشياخ رؤساء الأندلس وغيرهم.

وهكذا، كانت الحرب صعبة والنزال طويلاً بين الموحدين والبرتغاليين في هذه الغزوة إلى أن انتهت باعتلال أمير المؤمنين، فأمر بالرحيل^(١). ولما كانت الغزوة تنتهى كما يأتى، بوفاة أمير المؤمنين الأمر الذى قد يوحى بأنه مات نتيجة العلة التى أصابته، ويستدرك ابن عذارى، ويوضح الخبر عن حقيقة وفاة أبى يعقوب يوسف فى غزوته هذه - أى خلال الحرب والقتال. وفى ذلك يقول أبو الحجاج يوسف بن عمر، أن سبب الغزوة سوء مجاورة عدو الغرب: إبن الرنك (ملك البرتغال)، أما عن قصر مدينة شنترين، فلأنها أكثر بلاده أجناداً. أما عن القتال فلقد برز الموحدون عليهم تبرزاً أذهل الخصوم وقت الأفضدة، وبسبب عمارة المنطقة والتفاف أشجارها، لم يكن للمدينة مسلك إلا من خلال الأغصان المتشابكة والمنعرجات الصلبة، الأمر الذى يخفى أشخاص الفرسان.

وهكذا، فلما تضاربت الأنباء عن القتال، الذى طال فعلاً لغير طائل، «عزم أمير المؤمنين على الارتحال، وأمر بأن يكون ذلك ليلاً، فاضطرب إقلاع الناس... وكثر الضجيج واختلاط الأصوات فلا ترى سميعاً ولا مطيعاً. ورغم ذلك تعود الرواية لتؤكد أن ثقات الخليفة طافوا على الناس ليلاً، وأوعزوا إليهم ترتيب التحرك وكيفية الإقلاع بعد رحيل الحملة والأثقال». تعود الرواية لتقول: «وتوهم الناس أن الأمير قد ألق سحراً، واحتاط لإجازة النهر مبكراً... ولما اتضح الفجر بطلت الظنون... فركب الخليفة، وليس بساقته إلا القليل غير مستعدين. وانحدر أمير المؤمنين من منزله»، وبقي ابنه المنصور فى الموضع يرتب من يظاهر الروم عند ظهورهم، وكان هؤلاء قد تسربوا بين الأشجار وانتهزوا الفرصة فى أولئك الفرسان والأتباع واستشهد جملة من أعيان الموحدين، ورؤساء الأندلسيين، وبعض بنى مردنيش، والخطيب بن الملقى (الذى اختل عقله مما سبق ذكره).

(١) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١٣٥.

وعندما عرف الخليفة بدنو الروم من ساقته... أمر بضرب الطبول وإشراع الألوية فى الفصول، ودفع من كان بجناحي الساقة على من وجدوا من الروم منبسطين وغادروهم فى مصارعهم مجندين... ونزل أمير المؤمنين بعدوة الوادى... وأمر بتفرق الجموع... وأمر بتخريب المباني إلى حصن طرّش... كل ذلك وهو مقيم بذروة جبله... والسيد أبو زيد ابن الأخ أبى حفص على معظم البعث يستاق من المغانم الكثيرة. ووصلوا والخليفة ملتزم الفراش لعدة أيام وكان قد خرج عن مطيته مضطجعا على فراشه.

وقام القفول وضعفه يتزايد، والأطباء حاضرون: ابن زهر، وابن عقيل، وابن قاسم يلازمونه حتى جازوا وادى تاجه وضعف عن الجلوس على الدابة، «فصنع له سرير» ورواق عليه يحجبه من الهواء. والخدمة مطيفون به يتفقدون فيما يحتاج إليه من صلاح شأنه.

فذكر أنه تُفقد بعد أميال فوجد قد توفى - رحمه الله - وذلك فى ٨ ربيع الثانى سنة ٥٥٨هـ / ٣٠ يوليئ ١١٨٤م.^(١)

(١) قارن عبد الواحد المراكشى، المعجب:

الإعتصام بشنترين - (ابن الرنك) - الوصول إلى نهر تاجه (عظيم) - شدة دفاع أهلها - وصرامتهم.

الخوف من هجوم البرد آخر الصيف - ومن فيضان النهر مع إنقطاع المدد - الإنسحاب على وعد العودة فى العام القادم، قال: «نصرف غدا إن شاء الله» - أول من قوض خباؤه وأظهر الرحيل أبو الحسن بن أبى عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالملقى - وكان خطيبهم بين يدي خطيب الخلافة... العبور طول الليل - العبور تلك العشيبة... الحرص على أخذ أحسن المواضع - بلغوا الخباء... وطعن أبو يعقوب فى سرته... عبر به النهر جريا، وجعل فى محفة - هروب الملقى (عندما عرف تهديد الخليفة) إلى شنترين - أحسن إليه ابن الرنك - كاتب الموحدين... بعورات المربة (مخابرات). ابن خلكان، وفيات الأعيان: وفاة يوسف من المرض - وحمل فى تابوت إلى أشبيلية.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير
- الكامل في التاريخ (ج ١١).
- ابن أبي زرع، روض القرطاس في أخبار المغرب ومدينة فاس.
- ابن عذاري، البيان المغرب - تطوان، هوشي، قسم ٣ .
- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ط ١٩٥٠ .
- ابن خلدون، العبر (ج ٦).
- ابن صاحب الصلاة، المن بالامامة،
- الإدريسي، نزهة المشتاق، الطبعة المصرية الشاملة - ج ٢ .
- أشباح، المرابطون والموحدون، ترجمة عنان.
- جودفروا ديمومبين، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مكتبة الاستشراق، باريز (بول جتنر) ١٩٢٧ .
- حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢ (لأنواع الساعة من البنجامات).
- انظر ديولافوا (مجموعة في واحد: اسبانيا والبرتغال - باريس ١٩١٧).

- بروفنسال، رسائل موحدية، الرباط ١٩٤١
- دراسة دبلوماسية باريس ١٩٤٢ .
- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب.
- عنان، الموحدون (ج ٢).
- العمري (ابن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.
- روض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس (المؤلف مجهول).
- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٠ .
- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق المؤلف.
- سوفاجيه وكلود كاهن: مصادر دراسة التاريخ الاسلامي، ترجمة عبد الستار حلوجي، عبد الوهاب علوب، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨، رقم ٣١ (القاهرة).
- النوري، نهاية الأرب في فنون الأدب، نشر أبو ضيف
- هوشي (Huici)، امبراطورية الموحدين، المؤلف:
- العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي ، مجلة كلية الآداب - الاسكندرية ١٩٥٣ .

- عملية الانقاذ المرباطي في الأندلس - (ندوة

الأندلس: الدرس والتاريخ ٢ ١٩٩٤ .

- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار.

A δ R

أسماء الرجال والقبائل والجماعات

أسماء الرجال والقبائل والجماعات.

- آل لارا - ٣٥ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ -
- آل كاسترو - ٣٥ - ٩٣ - ٩٤ -
- الأحذب من ٥٧١ هـ / ١١٧٣ م - ١٨٢ -
- الامام المعصوم: المهدي المعلوم - ٢٥٠ -
- إدارة ابن تومرت - ٧٨ -
- ابن الرنك - ١٠١ - ١٠٢ - ١١١ - ١١٢ - ١١٣ - ١٧٤ -
- ابن حربون - ٤٦ - ٤٨ - ٤٩ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ -
- ١٠٤ -
- ابن رشد (اشهر المعلقين علي أرسطو) - ٣٠ - ٣١ -
- ابن سعيد يخلف بن الحسيني - ٥٢ -
- ابن زرقاج (القاضي) - ١٧٥ -
- ابن صاحب الصلاة - ١٩ - ٢٢ - ٣٢ - ٣٣ - ٥٠ - ٨٧ -
- ١٤٦ - ١٦٠ -
- ابن عياش (الكاتب) - ١١٨ -
- (ابن قسي) زعيم المريدين - ٤٦ -
- ابن القطان - ٨٧ -
- ابن مردنيش ٧ - ٨ - ٩ - ٤١ - ٤٢ - ٤٦ - ٥٢ - ٥٦ -
- ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١١١ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ -

- ١١٥ - ١١٦ - ١٣٨ - ١٤١ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٤ -

- ابن منخفاد - ٨ -

- ابن همشك - ٩ - ٤٦ - ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ -

- ١١١ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ -

- ١٦٤ -

- ابن ملكون: أبو اسحق ابراهيم ابن عبد الملك - ٢٩ -

- أبو اسحق ابراهيم - ٢٩ - ١٠٢ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٨ -

- ١٥٨ -

- أبو بكر البناقي - ١٤٧ -

- (أبو بكر) الشلبي - ٤٦ -

- أبو بكر العنسي الغرناطي - ١٤٧ -

- أبو بكر بن زهر - ١٤٧ -

- أبو بكر بن الجد - ١٤٣ - ١٥٨ -

- (ابن طفيل) (أبو بكر) محمد بن طفيل - ٣١ - ٣٢ -

- أبو الحجاج المعروف بالمراني - ٣٠ -

- أبو الحسن الهوزني - ٤٨ -

- أبو حفص (السيد الأعلى) - ٨ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٣ - ٧٠ - ٧٢ -

- ١٠٢ - ١٠٣ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٨ - ١٥٧ -

- أبو حفص الهنتاتي - ٦٣ - ١٠١ - ١٠٣ - ١١٢ - ١١٤ -

- أبو داود يلول بن جلدا سن - ١٤٤ - ١٤٧ -

- أبو الربيع بن عبد النور - ١١٩ -

- أبو زكريا بن علي (الحافظ) - ١١٠ -
- أبو زكريا يحيى بن عبد المؤمن لولاية بجاية - ٧٣ -
- أبو سعيد - ٥٨ - ٦٣ -
- أبو سعيد عثمان الأسني - ٧٧ -
- أبو سعيد عثمان (الهناتاي) - ١٥٨ -
- أبو سعيد يخلف بن الحسين - ٤٣ - ٦٣ - ١٣٤ -
- الحافظ الشيخ (أبو عبد الله بن أبي إبراهيم) - ٦٦ - ٦٨ -
- ٦٩ - ٧٤ - ٧٥ - ٨٨ - ١١٢ - ١١٥ -
- أبو عبد الله بن يوسف - ٥٢ -
- أبو عبد الله بن يوسف بن وانودين - ٤٣ -
- أبو عبد الله الشاطبي - ٥٠ -
- أبو عبد الله المالقي (الفقيه) - ١٣٢ -
- أبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن - ٢١ -
- أبو عبد الله (الوزير) - ٧٥ -
- أبو العلاء بن جامع (الوزير) - ٥٨ - ١١٧ - ١٢٢ - ١٢٩ -
- ١٣٤ - ١٥٢ -
- أبو عمر بن حربون - ٤٨ -
- (أبو علي الحسن) - ٦٦ -
- أبو القاسم الحوفي (القاضي) - ١٤٣ -
- أبو القاسم عبد الرحمن بن عفير اللبلي - ١٤٨ -
- أبو إبراهيم اسماعيل بن عبد المؤمن - ٨ -

- ابو العلاء بن عزون - ١٥٦ -
- ابو عثمان سعيد بن عيسى - ١٥٢ -
- ابو محمد المالقي (الفقيه) - ١٥٨ -
- ابو محمد بن الصفار (القاضي) - ١٥٨ -
- ابو محمد سيد رأي بن وزير (تخريب باجة) - ٥٤ - ١١٢
- ١١٣ - ١٧٤ -
- أبو محمد الشذوني - ٣٠ -
- أبو محمد عبد الله بن تفريجين - ١٣١ - ١٦٤ -
- أبو محمد عبد الواحد أقوشجور - ١١٩ - ١٢٦ -
- (ابو محمد) عبد الواحد بن عمر (صاحب المهدي) - ١٣١ -
- ١٣٤ - ١٦٤ -
- أبو محمد الهنتاتي - ٦٣ -
- ابو موسي عيسى بن عمران القاضي - ١٥٨ -
- ابو الوليد بن رشد القاضي - ١٥٩ - ١٦٢ -
- أبو الوليد السوسي الشلبي - ٤٩ -
- أبو يحيي بن الشيخ أبو حفص - ٤٣ - ١٠٣ -
- (ابو يحيي بن سنان) الشيخ الحافظ - ٧٤ -
- ابو يحيي زكريا يحيي بن سنان - ١٠٨ -
- ابو يحيي زكريا بن علي الحافظ - ١١٠ -
- أبو يعقوب يوسف (الأمير) - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٧٢ -
- أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن - ١٣ - ١٩ - ٢٥ - ٢٨ - ٢٩

- ٣٠ - ٤٢ - ٩١ - ٢٢١ -

- ابو يعقوب يوسف بن تيجيت - ١١٢ -

- ابو يوسف حجاج بن يوسف القاضي - ١٢٠ -

- اسحق بن جامع - ٤٣ -

- احمد بن باسة (عريف البنائين) - ١٤٤ - ١٤٦ - ١٤٧ -

- إدريس بن أبي اسحق (ابو العلا - الوزير) - ١٢١ -

- اسماعيل إيجيج (صاحب المهدي) - ٨ -

- اسماعيل بن عمر الشلبي - ٤٥ -

المصالحة بين الاخوة ٥٥٧ هـ

- ابو الوليد - ٤٥ -

- الفونس الثامن ملك قشتالة - ١٠٩ - ١٥٣ -

- الفونس المحارب ملك ليون - ٣٥ -

- أمير المؤمنين - ٧ -

- أهل غرناطة - ٨٦ -

- أهل قرطبة - ٨٦ - ٨٩ -

- أهل الشرق - ١١ -

- أهل وبدة - ١٦٣ - ١٦٤ -

- البيوج - ٩٥ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٩ - ١١٢ - ١١٣ -

- ٢٠٨

- البرتغاليون - ٧٦ - ١٧٤ - ٢٢٨ -

- بنو سليم - ١٣ -

- بنو عبد المؤمن - ١٢ - ١٩٧ -
- بنو مردنيش - ٩ - ١٠ - ١٢ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٩٧ -
- تاشفين بن علي - ٢٠ -
- ثائر طبيرة - ٩١ -
- عبد الله بن عبيد ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م .
- جدميوة (قبيلة) - ١٥٨ -
- جراند الجليقي - ٩ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١١٠ - ١١٣ -
- البربرير - ٣٩ -
- رياح الهاللية - ٤٤ - ٥٦ -
- الريف - ٥٢ -
- سبع بن مغفاد - ٤٠ - ٦٣ -
- سعيد بن يخلف (الشيخ) - ٦٢ - ٦٣ -
- سيد رأي بن وزير - ٥٤ -
- صاحب البرتغال - ١٨٥ -
- صاحب قرطبة (أبو سعيد) - ٦٣ -
- صاحب قشتالة - ١٨٥ -
- (صاحب المهدي) الشيخ أبو عبد الله بن أبي ابراهيم،
- اسماعيل ايجيج - ٧٤ -
- (صاحب المهدي) - عبد الواحد بن عمر - ١٣١ -
- صفية بنت عبد المؤمن - ١٩ -
- صنهاجة مفتاح - ٧ - ١٢ - ٣٩ - ٤٠ - ٧٤ -

- عائشة بنت عبد المؤمن - ١٩ -
- عبد الله أبو عبد الله (أخو يوسف) - ٢٤ -
- عبد الله بن عبيد ثائر طبيره (٥٤٦ هـ / ١١٥١ م) - ٩١ -
- عبد المؤمن بن علي - ١٩ - ٢٧ - ٢٨ - ٣٥ - ٣٩ - ٤٣ -
- عبد الواحد بن عمر - ١٣١ -
- عبد الواحد المراكشي : ١٩ - ٢٩ - ٣٠ -
- العدو البرتغالي - ١٢ - ١٣ - ٢١٠ -
- عرب افريقيه - ٩ - ١٢٦ -
- عرب الرياحية - ٤٨ - ٢١٥ -
- عرب الهلالية - ٣٣ - ٤٣ - ٥٦ -
- عثمان (أبو سعيد) أخو يوسف - ٢٤ -
- علي بن صاحب الصلاة - ١٠٣ - ١١٨ -
- عمر بن تيمصليت (الحافظ) - ١٠١ -
- عمر بن سحنون (الطالب) - ١٧٥ -
- عمر بن عبد المؤمن - ٢٥ -
- علي بن محرز بن زياد - ٤٣ - ٤٤ -
- علي بن مردنيش - ٢٤ -
- عبد الملك بن عياش (الكاتب) - ٢٤ -
- الغزاة - ١٠ -
- الغز المصريون - ١٢ - ١٩٩ -
- غمارة - ٧ - ٣٩ - ٤١ - ٥٣ - ٦٧ - ٦٨ - ٧٠ - ١٠٨ -

- ١٥٨

- الغيبة والرجعة - ٢١ -
- فرنانده (الببوج) - ٩٣ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٩ - ١١٢ -
- ١١٣ -
- قبيلة رياح الهلالية - ٤٤ - ٥٦ -
- قبائل الريف - ٥٢ -
- لتونة - ٤٣ - ٤٨ - ٥١ -
- اللمتونيون (المثمون) - ٣٤ -
- المصامدة - ٤١ -
- محمد بن أبي سعيد (بن المعلم) - ١٣٨ - ١٤٢ -
- محمد بن تومرت (المعصوم) - ٢١ - ٤٠ -
- محمد بن عباد (قصر) - ١٥٠ -
- محمد (أبو عبد الله) بن عبد المؤمن - ٢٠ -
- محمد بن المعلم: رئيس الكتاب - ٤٨ -
- محمد بن يوسف (الشيخ) أبو عبد الله - ٤ -
- محمد المخلوع - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٧ -
- المرابطون - ١٠٤ -
- المریدون - ٣٣ - ٤٦ -
- مزیدغ (مرزدغ) - ٧ - ٤٠ - ٤١ - ٥٣ - ٦٣ - ٦٤ -
- (مصمودة) - ٦٧ -
- مسوفة - ٤٣ - ٤٨ - ٥١ -

- ملك البرتغال - ١٠٢ -
- ملك صقلية - ١٢ - ٢١٥ -
- ملك ليون - ٩ - ٣٥ - ٩٥ -
- المنخفادية - ٨ - ٦٠ - ٦٢ - ٦٤ - ٦٥ -
- المهدي المعلوم - ٢٥ -
- الموحدون - ٢٥ - ٦٠ - ٦٥ - ٩٥ - ٩٦ - ١٠١ - ١٠٢ -
- ١٠٥ - ١١٠ - ١١٥ - ١١٦ - ١٢١ - ١٢٧ - ١٣٧ -
- ١٥٥ - ١٦٢ - خروج الموحدين من حجيم وبدة - ١٦٥ -
- الناصر محمد - ٢٨ -
- نونيو (الوصي) - ٩ - ١٠٩ - ١١١ - ٢٠٦ -
- هوشي ميراندا - ٣٨ -
- ولي العهد المخلوع - ٩ -
- يعقوب المنصور - ٢٥ -
- يعيش (الحاج المهندس) - ١٤٥ - ١٧٧ -
- يوسف (أبو يعقوب) بن عبد المؤمن (ملك الملوك) - ٧ - ٩ -
- ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٥ -
- ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٧١ -
- ١٧٥ - ١٧٧ -
- يوسف (الأمير) ٥٥٧ هـ / - ٤٥ - ٤٧ - ٥٠ - ٦٨ - ٦٩ -
- ٨٨ -
- يوسف أميراً للمؤمنين (٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م) - ٢٥ - ٧٦ - ١٠٨ -

- ١١. -

- يوسف (بن عبد المؤمن) ملكا أو خليفة - ٢٤ - ٢٥ - ٢٧ -

- ٣٣ - ٣٧ - ٨٧ -

- يوسف بن تاشفين - ٢٠ -

- يوسف بن سليمان (القائد الموحي) - ٤٠ -

- يوسف بن عبد المؤمن - ٢٥ - ٢٧ - ٣٩ - ٤٠ -

- يوسف بن ييجيت - ٤٣ -

A S R

أسماء المدن والجبال والأنهار وغيرها

من المواضع

- آبله - ١٠١ -
- الأجاص (الكمثري والعبر) - ١٤٤ -
- أسبانيا المسيحية - ٩٢ -
- أشبيلية - ٨ - ١٠ - ١١ - ٧٤ - ١٠١ - ١٠٥ - ١١٠ -
- ١٣٤ - ١٣٦ - ١٣٧ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ -
- ١٤٦ - ١٤٨ - ١٥٠ - ١٥٣ - ١٧٦ - ١٧٨ - ١٩٠ - ١٩٧ -
- ٢٠٨ -
- أغرناطه - ٤ -
- أفريقية - ١٣ - ٢٢٤ - ٢٤٨ -
- الأندلس - ٩ - ١٠ - ١٢ - ١٣ - ٣٥ - ٥٠ - ٧٤ - ٧٦ -
- ٨٧ - ٩٩ - ١٠٤ - ١١٦ - ١٨٧ - ٢٦٢ -
- أندوجر - ٧ - ٦٨ -
- أيريا - ٩١ -
- باب جهور (بأشبيلية) - ١٤٣ -
- باجة - ١٢ - ١٧٤ - ١٩٣ -
- بجاية - ٧٣ -
- البرتغال - ١١ - ١٣ - ٥١ - ١٠١ - ١٠٥ -

- بطليوس - ١٨٤ -
- (بلاد) السوس - ٢٧ - ٢٨ -
- بلنسية - ١١ - ١٧٧ -
- تلمسان - ١١٩ -
- الثغر الأدنى - ٣٦ -
- الثغر الأوسط والأعلى - ٣٥ - ٣٦ -
- جامع ابن عدبس (بأشبيلية) - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٨ -
- جامع أشبيلية - ١٤٥ -
- جبل تاسررت - ٩٨ -
- جبل السبيكة - ٤٦ -
- جبل الفتاح - ٧ - ٣٣ - ٤٥ -
- جبل الكواكب - ٨ - ٦٠ - ٦٢ - ٦٤ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ -
- ٧٠ -
- جبل وادي آش - ٨٩ -
- جدميوة - ٧٤ -
- جزيرة الأندلس - ٨ - ٨٨ -
- جزيرة شوقر - ١١٥ - ١٥٥ - ١٦٦ -
- الجلاب - ٥٤ - ٥٥ -
- جلمانية - ٩ -
- حارة مايور - ١٤٥ -
- حصن إلج - ١١٥ -

- حصن بلج - ١٥٣ -
- حصن بنيول - ١٧٢ -
- حصن طبيرة - ٨ -
- حصن الفرج - ١١٤ -
- حصن الكرّس - ١٥٤ -
- حصن لبسة - ٨ - ٦٦ - ٦٨ - ٨٨ -
- حصن طبيرة (٥٦٣ هـ / ١١٦٨ م) - ٩٠ -
- دويرة (نهر) - ٩٦ -
- رباط الفتح - ١٣٢ -
- رباط طيط (تيط) - ١٣١ -
- رندة - ٨٩ -
- الزلاقة - ١٠٤ - ١١٣ -
- السباط - ١٤٧ -
- سانتا ماريا - ١٠٨ -
- سبتة - ٤٨ -
- السبباط - ٩٦ - ١٠١ -
- السوس - ٢٧ - ٢٨ -
- طبيرة - ١٠٨ -
- طليطلة - ١١ - ١٣٥ - ١٨٣ - ٢٠٧ -
- العدوتان - ٣٣ - ٣٩ -
- العدوّة المغربيّة - ٤٨ -

- العقاب - ٢٨ -
- غرناطة - ٨ - ٦٦ - ٦٨ - ١٠٧ - ١٤٤ - ١٧١ - ١٧٧ -
- فاس - ٤٨ -
- فحص الجلاب (فتح الفتوح) - ٥٥ -
- الفداء - ١٣٣ -
- قرطبة - ١٠ - ٤١ - ١١٤ - ١٣٥ - ١٣٨ - ١٤٠ -
- ١٥٣ - ٢٠٨ -
- قرمونة - ١٤٥ -
- قشتالة - ١٠ - ١١ - ١٣ - ١٣٥ - ١٥٣ -
- قصر مسمودة (القصر الكبير) - ٨ - ٤٤ - ٦٢ - ٧٤ - ١٣٤ -
- قلعة مهدي بن توالي - ٦٢ -
- قلمرية - ٩٦ - ١٠١ -
- قنطرة أشبيلية - ١٤٣ - ١٤٦ -
- قونكة - ١١ - ٦٧ - ١٦٦ - ١٦٨ - ١٧٠ - ١٧١ - ٢٠٦ -
- قيشاطة - ١١٤ -
- كومية - ٧٤ -
- لُك (موقعة مع البرتغال) - ٥١ -
- لبسة - ٨ - ٧٥ -
- لورقة - ١١٤ - ١١٥ -
- ليون - ٩ - ١٠١ - ١٠٥ - ١٩٠ -
- المجاز (جبل الفتوح) - ٣٣ -

- مراكش - ٧ - ٩ - ١٠ - ٤٨ - ٥٨ - ٦٨ - ٨٠ - ١١٠ -
- ١١١ - ١١٥ - ٢٠٠ - ٢٠٢ - ٢٠٦ - ٢٤٣ -
- مرسية - ١١٤ - ١١٥ - ١٤١ - ١٤٩ -
- المسجد الجامع بأشبيلية - ١٠ -
- مصحف المهدي بن تومرت - ١٢٩ -
- مصحف عثمان - ١٢٩ -
- المنتيخو - ١٠١ -
- النحاس الأبيض - ١٣٠ -
- وادي آش - ٦٨ -
- وادي آنة - ١٥٤ -
- ويذة - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ -
- ١٦٠ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ -
- يوم العقاب (٥٦٩ هـ / ١٢١٢ م) - ٢٨ -